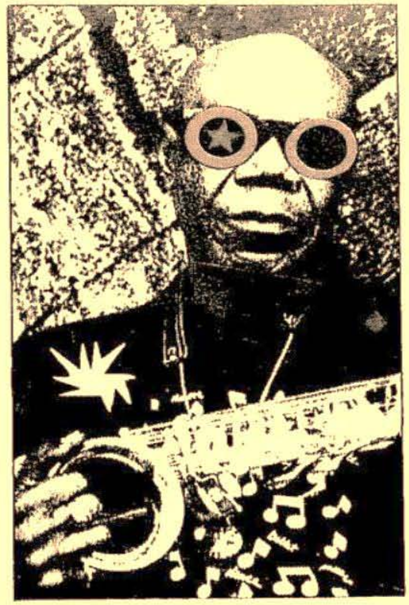
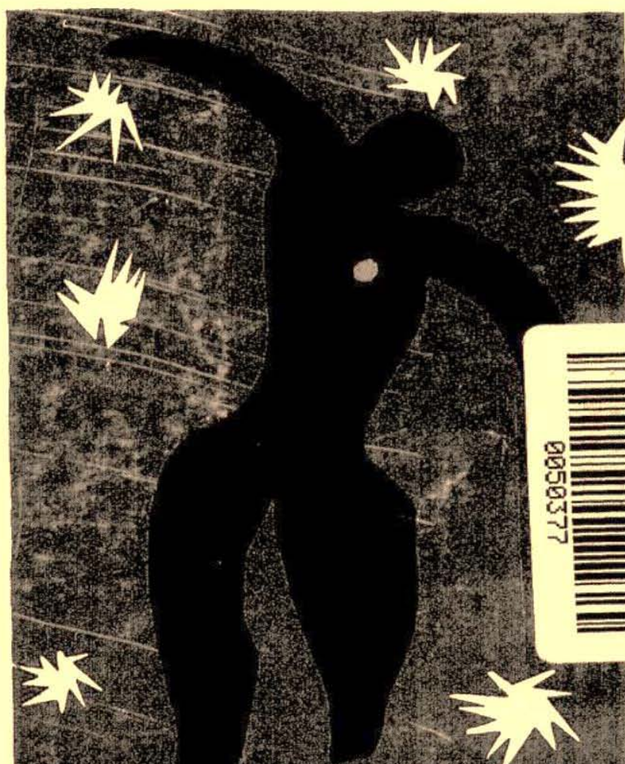
ترجمة : محمد عيد إبراهيم



توني موريسون

الكاتبة الحائزة على جائزة نوبل ١٩٩٣



چاز

[رواية]

ولوُعٌ بالموتِ على حساب الحياة

سردٌ متوترٌ صاخبٌ ،ملتزمٌ ، يَعي الآخرَ ،بينما صوت الذاتِ يحاكي الوجود .

المكانُ يتفاعل مع ساكنيه ، يأخذُ عنهم طبيعتَهُ ويُحَوِّمُ عليهم ، طابعاً وجدانَهم بكل ما يبتعثه من كوامن الوجد والفقر والقهر والعصيان ،كذا بساطة الوجود واللذة .

« چاز »توني موريسون تحكي في تراجيديَّةٍ غنائيَّةٍ من صفاء الشعر عن شخصيات سُود لها ماض مفزع وغريب ،تستبطن فيها من خِصيصَّات عالم المرأة ما لايتوفر إلاّ لامرأةٍ ،وامرأةٍ مرهفة .

قال عنها أحدُ النقادِ مرةً :

« وهبتني كوابيس ،فَظَلِلتُ يقظانَ ،أبتسمُ بوهمٍ لنفسي في متعةٍ متوترة .. »

دار شرقيات للنشر و التوزيع

چاز

هذه ترجمة لرواية
JAZZ
تاليف
TONI MORISSON

دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ شارع محمد صدقي، من هدى شعراوي
باب اللوق – القاهرة . ت : ٣٩٠٢٩١٣

الغلاف والإشراف الفني على الكتاب :
محيي الدين اللباد

توني موريسون

چاز

ترجمة : محمد عيد إبراهيم

دار شرقيات للنشر و التوزيع

«أنا اسمُ الصوتِ
وصوت الاسم.
أنا إشارة الحرفِ
ودلالةُ القسمة»

(رعد، عقلٌ صافٍ)
نجع حمادي★

(★) شَذرة من نصوص غنوصيّة قبطية عُثر عليها في نجع حمادي بمصر عام ١٩٤٥. وهي برديات بالقبطية كانت مؤلّفةً في الأصل باليونانية، تتكون من ثلاثة عشر مجلداً (كودكس)، وتحوي إلى جانب نصوص وتعليقات الجماعة الغنوصيّة من حوالي القرن الرابع الميلادي، عدداً من أعمال أدبية يونانية مفقودة مترجمةٍ إلى القبطية. تعكس الغنوصية البعد عن البشر مع القرب من المثال الذي يجتاز حدّ الحياة، ويتطلّب هذا نبذ المتع والتطلّع إلى الحرية المطلقة مع الانسحابِ من احتواء النجاسة التي تبدّد وضوح الرؤية. وجدوا بهذه الخبيئة أيضاً كلمات للسيد المسيح في مستهلّها «إن من يفهم المعنى العميق لهذه الأقوال لن يذوق الموت». (المترجم).

أعرف تلك المرأة. فقد اعتادت أن تعيش مع حشد طيور في طريق«لينوكس». أعرف زوجها، أيضاً. وقع بغرام فتاة في الثامنة عشرة، حيث جعله ذلك الغرام الخفيّ الجفول تعساً تماماً وسعيداً للغاية حتى أنه أطلق النار عليها فحسب ليصون هذا الشعور. عندما ذهبت المرأة، التي اسمها «ڤيولت»، إلى الجنازة لترى الفتاة وتمزّق وجهها الميت، طرحوها أرضاً ثم إلى خارج الكنيسة. هرولت، عندئذ، خلال ذاك الجليد، عائدةً لشقّتها، فأخذت الطيور من أقفاصها وأطلقتها عبر النوافذ كي تتجمدّ أو تطير، كان ضمنها الببغاء الذي يردّد «باحبك».

كانت الريح تذرّي الجليد الذي هرولت فيه، فلا تترك به آثار أقدام، ولوقت ما، لم يعرف أحدٌ بالضبط أين كانت تعيش في طريق«لينوكس». لكنهم، مثلي، عرفوا من تكون، من لابدّ أنها تكون، لأنهم عرفوا أن زوجها «چوتريس» هو الذي أطلق النار على الفتاة. لم يتمكّن أحد من أن يدينه، لأنه لا أحد رآه فعلياً يقوم بذلك، كما أن خالة الفتاة الميتة لم تكن تريد تبديد مالها على محامين عجزة أو شرطيين مستهزئين، حيث علمتْ بأن التكاليف لن تستنقذ شيئا. إضافةً إلى أنها اكتشفت بأن الرجل الذي قتل بنت أختها يبكي طوال اليوم، وأن حياته و«ڤيولت» صارت جحيماً كسجن.

وبغضّ النظر عما سبّبته «ڤيولت» من حزن، فقد طُرحَ اسمها كشخص يترجي مساعدةً في اجتماع يناير بنادي «سالم ويمن» (★)، ولكنّ خذلها التصويت، لأن الصلاة وحدها -لا النقود- هي ما تحتاجه الآن، كما أن لديها زوجاً يكفيها على التقريب (فقط لو يكفّ عن الشعور بالأسى على نفسه)، ولأنه يوجد في الشارع ١٣٤ من هو أولى بهذا، فقد خسر رجل وعائلته كل شيء هنالك في حريق. ومن ثمّ كان على النادي أن ينظّم نفسه لنجدة العائلة التي احترقت، وترك «ڤيولت» تتفهّم الأمر على ما كان وكيف تصلحه.

كانت «ڤيولت» في الخمسين، ومهزولة لأبعد حدّ، رغم أنها -حين أوقفت الجنازة- كانت لاتزال بمظهر حسن. قد تظنّ بأن إلقاءها خارج الكنيسة سيكون نهاية الأمر -العار وكل

(★) سالم: مدينة أمريكية، والنادي نسائي، كما يتّضح بالاسم. (المترجم)

شيء– لكنه لم يكن. «ڤيولت» بقوامها الوَسَط ومظهرها الحسن، وحتى بدون عجيزتها والشباب، كانت تفكّر في أن تقسو على «جو» باتخّاذ عشيق لها تجعله يزورها في ذات منزلها. كانت تحسب أن هذا سيجفّف من دمعه ويهبها بعض الشبع كذلك. كان يمكن للطريقة أن تفيد، فيما أفترض، ولكن أطفال المنتحرين يصعب إرضاؤهم، وبسرعة يصدّقون أن لا أحد يحبّهم، لأنهم في الحقيقة مغيّبون.

على أي حال، فإن «جو» لم يعر «ڤيولت» ولارفيقها أي انتباه. ولستُ أدري مالو كانت صرفَت العشيق أو هو هجرها. فربما توصّل للشعور بأن هبات «ڤيولت» بائسة، في مقابل تعاطفه مع الرجل حطيم القلب بالغرفة المجاورة. لكني أعرف بأن المأزق لم يدم لأسبوعين. وكانت خطة «ڤيولت» التالية –أن تقع في غرام زوجها مرة أخرى– تجلدها حتى استقرّت على أساس سليم. غسيل مناديله وتقديم الطعام أمامه على المائدة، كان أقصى ما استطاعت فعله. طفا صمت مسمّم مثلما شبكة صيدٍ كبيرة خلال الحجرات، وكان أن شقّته «ڤيولت» وحدها صارخة باتهامات مضادة. وكان يرهقها الفتور بنهار «جو» وبكلٍ من لياليهما القلقة. فقرّرت أن تحبّ– تتفهّم، جيداً– الفتاة ذات الثمانية عشرة عاماً بوجهها القشديّ الصغير، والذي حاولت تمزيقه، رغم أن محاولتها هذه لم تتمخّض عن كثير.

في البداية، لم تعرف «ڤيولت» عن الفتاة غير اسمها، وعمرها، وأنها كانت ممن يعتنى بهن في صالون التجميل المرخّص. وبذلك بدأت تجميع باقي المعلومات. ربما ظنّت أن بإمكانها حلّ لغز الحب بهذه الطريقة. بالتوفيق ودعيني لأعرف.

استفهمت من كل واحدة، بادئة بـ «ملڤون»، جارتها العلوية – وهي أول مَن وشى لها عن بذاءة «جو»، وعن الشقة التي استخدمها هو والفتاة كعشّ غرام. عرفت من «ملڤون» عنوان الفتاة ومَن أهلها. ومن عاملات صالون التجميل اكتشفت نوع أحمر الشفاه الذي كانت تستخدمه الفتاة، ونوع المشابك اللاتي كنّ يصففّن به شعرها (وقد ارتبت في أنها كانت تحتاج لفرد الشعر)، الفرقة الموسيقية التي كانت تميل إليها الفتاة أكثر (فرقة «إيبوني كيز» (*) لصاحبها «سليم باتس»)، وقد كانت بديعة باستثناء المطربة التي لابد كانت امرأته، فقد كان يدعها تهين فرقته). وعندما أوضحوا لها كيف ترقص، كانت «ڤيولت» تؤدي نفس خطوات الرقص التي اعتادت عليها الفتاة الميتة. كلها بالتمام. وحين تملكت هذا النقر الإيقاعيّ الخفيف –وركبتاها بهذا الشكل– اشمأز منها كل واحد، بمن فيهم عشيقها السابق، ويمكنني أن أعرف السبب. كان ذلك كمن يشاهد حمامة شارع عجوزاً تنقر قشرة سندوتش سردين تركته القطط من خلفها. لكن «ڤيولت» لم تكن إلا مثابرة، ولم تكن توقفها نظرة غمز أو تعليق جارح. وتردّدت على مدرسة «پ. س. ٨٩» لتتكلم مع المدرسين الذين عرفوا الفتاة. وكذلك على مدرسة «ج. هـ. س. ١٣٩» لأن الفتاة كانت تذهب إليها وقد بددت زمناً في فصول مهنية، فلم تكن هناك

(*) فرقة جاز (المترجم)

مدارس عالية في ذلك الحيّ يمكن لفتاة ملوّنة أن تواظب عليها. ولوقت طويل أزعجت «ڤيولت» خالة الفتاة، وهي سيدة تقوم بالتدريب في حيّ الملابس بين الحين والآخر، إلى أن انقادت لها الخالة وبدأت تتطلّع لزيارات «ڤيولت» فتدردش معها عن الشباب وسوء السلوك. وأظهرت الخالة كل حاجات الفتاة الميتة لـ «ڤيولت»، وصار واضحاً لديها (كما هو لديّ) أن بنت أختها هذه كانت عنيدة مثلما هي ماكرة.

أحد الحاجات الخاصة التي أظهرتها الخالة، وجعلت «ڤيولت» في النهاية تحتفظ بها عدة أسابيع، كان صورة لوجه الفتاة. كانت غير مبتسمة، لكنها في عنفوانها وجريئة للغاية. وقد تحمّلت «ڤيولت» أن تضع هذه الصورة على رفّ المدفأة بالصالة، وكانا ينظران إليها –هي و«چو»– في انذهال.

بدا ذلك كأسرة استثنائية منعزلة، بعد الطيور التي رحلت، فكان اثناهما يمسحان خديهما طول النهار، ولكن مع قدوم الربيع إلى المدينة، رأت «ڤيولت» فتاة أخرى بأربع خصلات متموجة تنساب على جانبي وجهها، تهلّ قادمة إلى المبنى تحمل لحماً للطهي في ورقة جزّار واسطوانة «أوكيه» تحت ذراعها. وقد استضافتها«ڤيولت» لتفحُّص الاسطِوانة، وبذلك ابتدأ ذلك الثلاثي الفاضح في طريق «لينوكس». ماصار مختلفاً في النهاية هو من أطلق النار على من.

❖ ❖ ❖

إني لمجنونة بهذه المدينة.

ضوء النهار منجرفٌ مثل موسَى ليقسِم المباني لنصفين. بالنصف الأعلى أرى وجوهاً متطلّعة، وليس من السهل أن أحكي عن كنه هؤلاء الناس، وعن طبيعة المعمار فيه، بالنصف الأسفل أرى ظِلاً يستحلّ مكان أي شيء بدون مبالاة: آلات كلارنت وفعل حبٍّ، قبضات وأصوات نسوة منتحبات. إن مدينة كهذي تجعلني أحلم طويلاً وأرثي لحاجات. أُلِمُّ بها. إشراق الفولاذ المهتزّ على الظل بالأسفل هو ما يفعل هذا. عندها أشرف على حزام العشب الأخضر بطول حدّ النهر، على أبراج الكنيسة، وعلى صالات الشقق بلون القشدة والنحاس الأحمر، فأشعر بالقوة. أنا وحيدة، نعم، ولكني على أهبة الاستعداد ولا أقبل التدمير – مثلما المدينة في ١٩٢٦ عندما انتهت كل الحروب فلن تقوم واحدة أخرى. الناس سعداء في الظلّ هناك بخصوص هذا. أخيراً، أخيراً، كل شيء للأمام. يقول النابهون بذلك، وينصت الناس لهم قارئين ما يكتبونه ويوافقون عليه: هنا يهلّ الجديد! فاحذر. ينقضي الهراء الحزين. الهراء الأسى. الأشياء التي لايتمكن امرؤ من دفعها. تشعّبت الطرق عند كل الناس. انس ذلك. انتهت الحكاية، بالنسبة لكم كلكم، وكل شيء للأمام أخيراً. يجلس الناس معاً في الصالات والمكاتب يفكّرون بمقاصد المستقبل، بالمشروعات والكباري والقطارات المطقطقة سريعاً تحت الأرض.

شركة «أ. و ب.» تستخدم موظفاً ملوناً. نساء ذوات أرجل ضخمة وألسنة قرنفلية كالقطط تدحرج عملات في أنابيب خضراء لوقت الحاجة، بعدها يضحكن ويشبكن أذرعهن مع الأخريات. الناس العاديون يحلّقون على اللصوص إلى الأزقة من أجل علقة ساخنة لهم، ولو كان أحدهم غبياً وسرق بطريق خاطىء يكون العقاب هذه المرة من جهة اللصوص أنفسهم. المشاغبون حديثو السنّ يستلمون العجائز، باذلين أقصى جهد ليظلّوا مرغوباً فيهم، ولأنهم يعاملون كمحطٍ للإثارة، فهم يراعون ملابسهم، ويصنعون من المهانة مستقبلاً. لا أحد يرغب في دخول قسم الاستقبال بمستشفى «هارلم»، ولو كانت المناوبة لطبيب زنجيّ فإن الكبرياء يصرع الألم. ورغم أن شعر الممرضات الملوّنات من الدفعة الأولى في «بليفيه» قد اعتبر غير ملائم لقبعة الممرّضات الرسمية، فهناك خمس وثلاثون منهن الآن يعملن بإخلاص وتفوّق في مهنتهن.

لا أحدٌ يقول بأن الدنيا جميلة هنا؛ ولاهي سهلة كذلك. الأمر هنا حاسم. فلو انتبهت إلى خطوط الشوارع –الممهّدة جميعاً– فإن المدينة لاتؤذيك.

مامن عضلات لديّ، ولذا يمكن في الحقيقة التوقّع أن أدافع عن نفسي. لكني أعلم بالتأكيد كيف آخذ حَذري. في الغالب، لا أحد يعرف تماماً ما يريد أن يعرفه عني. ثانياً، فأنا أراقب كل شيء وكل واحد، أحاول أن أعدّد خططهم واستنتاجاتهم طويلاً قبل أن يفعلوها. لك أن تفهم ما يعنيه هذا، وتضطلع للقيام به في مدينة كبيرة: يزعمون بي كل أنواع الجهل والإجرام. ولاتزال هذه حياتي الوحيدة. تعجبني طريقة المدينة وهي تجعل الناس يظنون بأنهم يفعلون ما يهوون ويفلتون به. أراهم عبر المكان كله: البيض الأثرياء، والبسطاء كذلك، يتجمعون في قصور فارهة يعيد تزيينها نسوة سود لتبدو أكثر بذخاً، وكل منهما يستريح لرؤية الآخر على ما هو عليه. رأيت عيون اليهود السود، تطفح بالشفقة على أي امرىء عداهم، يهتمون بمحال الطعام الرخيصة وكواحل النسوة الساقطات، بينما ينثر النسيم أزهار البرقوق البيضاء على خوذات رجال «اليونيا». طفا رجل ملوّن نازلاً من السماء ينفخ في آلة ساكسفون، وتحته، في المساحة ما بين عمارتين، تتكلّم فتاة جدّياً مع رجل بقبّعة من القش. يلمس شفتها ليزيل ذرة شيء هناك. فتهدأ فجأة. فيميل ذقنها لأعلى. يقفان هناك. ترتخي قبضتها على شنطتها بينما رقبتها تؤدّي انحناءً لطيفاً. يضع الرجل يده على الحائط الحجريّ مافوق رأسها. يتحرّك فكّه على هذه الطريقة، وحين يلفت رأسه أرى لسانه الذهبيّ.. تنسلّ الشمس إلى الزقاق خلفهما. وتتكوّن صورة جميلة في طريقها للغروب.

افعل ماتهوى في المدينة. في أطرافها وخباياها لايهمّ ما تفعله. فما يحدث في مساكنهم وساحاتهم وشوارعهم الجانبية هو أي شيء يعتبر به القويّ ويعجب الضعيف. كل ما ينبغي عليك أن تفعله هو مراعاة الهدف – الطريقة التي يمهّد بها إليك، كونك منتبهاً وتهتمّ على أي درب تمضي، وربما ماتريده في الغد.

عشتُ زماناً طويلاً، قد يكون مديداً، في رأيي. يقول الناس لابدّ من خروجي أكثر.

خلط. أوافق أنِ أختبيء في أماكن أحياناً، لكنك لو تُركْتَ – على مثلِ حالي – مهملاً، بينما شريكك رابض من أجل موعد مع آخر، أو يعد بإعطائك اهتمامه الكليّ بعد العشاء، ويروح في النوم مجرد أن تبدأ في الحديث – حسناً، هذا يجعلك غير مضيافٍ لو لم تحذر، وذلك آخر ما أتمناه.

فالضيافة هي الذهب في هذه المدينة؛ عليك أن تُقدّر بمهارة كم تكون بشوشاً ودِفاعياً في نفس الوقت. لو لم تعرف كيف تحبّ وكيف تهجر، فسينتهي بك الأمر إلى فوضى، أو يتحكّم فيك بشيء من الخارج، مثل تلكم الحالة المستعصية بأواخر الشتاء. في النهاية، يجري الشرّ في الشوارع، خلال الأوقات السارة والمال الوفير، ولاشِيء في أمان – حتي الموتى. بدليل تهجُّم «ڤيولت» الصريح على مراسم الجنازة في ذلك الحدث القريب. ثلاثة أيام في بداية ١٩٢٦. كان جمهرة من الخلق يتريثون ناظرين في العلامات (الطقس، الأيام، أحلامهم الخاصة)، وخمّنوا أن ذلكِ إيذان بكلِّ أنواع الدمار. تلك الفضيحة كانت كأنها رسالة بعثت لتحذير الطيبين وتعنيف الخونة. لست أدري من أشدّ طموحاً –القائلين بالنصيب أم «ڤيولتَ»– لكنه من الصعب أن نماشي الذين يؤمنون بالخرافة لنيل توقّعات أكثر.

كانت «أرمستس» في السابعة ذلك الشتاء، حين اخترقت «ڤيولت» الجنازة، ولازال المحاربون القدامى يرتدون بزّاتهم العسكرية على الطريق السابع، لأن أي شيء كانوا يدفعون ثمنه غالباً لم يثبت سعره، وربما انتهى ما كانوا يفتخرون به عام ١٩١٩. بعد ثماني سنوات، اليوم السابق لفعلة «ڤيولت» الشنعاء، جاء الجليد هامداً لحظة كان يسقط على «لكسنجتون» وطريق «بارك» أيضاً، فكنا ننتظر الحافلات التي تجرّ بالجياد كي تدكّه، عند توزيعها الفحم للأفران في السراديب المجمدة. بتلكم المباني العالية ذات الشقق الخمسة أو البيوت الخشبية الضيقة والتي يطرق فيها الناس على بعضهم البعض ليروا إن كانوا محتاجين لشيء أو لينالوا آخر. قطعة صابون؟ قليلاً من الجاز؟ بعض دهن دجاجة أو لحم خنزير لإحياء طعم الحساء من جديد؟ مَن يستعدّ زوجها للذهاب كي يرى إن كان ثمة محل مفتوحاً؟ وهل لديه وقت لإضافة زيت التربنتين بالآجل ثم تردّه الزوجات؟

التنفّس مؤذٍ في طقسٍ باردٍ مثل هذا، ولكن مهما تكون المشاكل حين يحيط الشتاء بالمدينة، فهم يتحملون بعضهم البعض، لأن الأمر يستحقّ أن تكون آمناً على طريق «لينوكس» من الجنيّات وكل ما يعتقدون فيه؛ وحيث تتغطّى الأرصفة بالجليد أولا، أو هي أوسع من طرق المدن الرئيسية بمكان مولدهم، يمكن للناس العاديين أن يقفوا على المحطة، يركبون الترام، ويعطون للمحصّل نيكل السنتات الخمسة، للوصول إلى المكان الذي يرغبون فيه، رغم أنه

لايُسعدك الذهاب إلى كثير من الأماكن، لأن ماتريده موجود فعلاً حيث تكون: الكنيسة، المتجر، الحزب، النساء، الرجال، صناديق البريد (لكن لا مدارس عالية)، معرض الأثاث، باعة الصحف الجوّالون، البارات غير المرخّصة (لكن لابنوك)، صالونات التجميل، صالونات الحلاقة، الملاهي الرخيصة، عربات الثلج، جامعو الأسمال، صالات البليارد، أسواق الطعام المفتوحة، ماكينة الوزن، وكل نادٍ، منظّمة، جماعة، جمعيات إخوانية، اتحاد، جمعية، نقابة صنّاع، جمعية راهبات، أو جمعية وهمية. عربات الجرّ، طبعاً، البالية، وهناك مدقّات تغزو بها جماعة جماعةً أخرى تتصّل بمقاطعة ثانية، ظناً منهم أن شيئاً فضولياً أو مثيراً يكمن هناك. أفعال خطف، مدوّية، وجبانة. أين يمكنك أن تفرقع فلّينة وتقرّب الكاس بارداً حتى فمك. أين يمكنك أن تعثر على خطرٍ أو تكونه؛ أين يمكنك أن تقاتل حتى السقوط مبتسماً للسكّين حين تفلت وحين لا تفلت. يجعلك هذا تنتشي بمجرد أن تراه. ومن العجيب أن تعرف أنهَ في ظهر أحد المباني توجد قائمة يعرف بها زوج من الذي سيصيد محلاً مفتوحاً، كما توجد هناك الملاءات التي يستحيل أن تنشر في المطابخ التي جلّدها الثلج الساقط، وكأنها ستائر مسرحيات مدرسة الأحد الحبشية.

ليس الشباب شباباً هنا، وليس ثمة شيء ندعوه منتصف العمر. إن ستين عاماً، أو حتى أربعين، تتساوى في الإحساس بالانزعاج من العمر. حين يبلغون ذاك العمر أو يصيرون عجائز، يجلسون حول بعضهم البعض ناظرين على مايدور هناك، حتى لو كان ترام السنتات الخمسة يوم السبت. وإلا يجدون أنفسهم ينحشرون في أمور الناس الذين لايقدرون على تذكّر أسمائهم وليس لهم أن ينحشروا في أمورهم. يسمعون أنفسهم يتكلمون فحسب، ويسعدهم مراقبة وجوه من يسمعونهم وهي مكروبة، عرفت استثناءات قلّة.بعض كبار السنّ لا يصفعون الأطفال المشاكسين؛ ويدّخرون قوّتهم لشيء هام يحتاجونها فيه. مثل تودّد أخير لامرأة ممتلىء بالتبسّم وببعض الهدايا. أو رعاية صديق قديم لا يقدر على مجابهة الحياة بدونهم. وقد يصل الأمر بهم أن يتأكّدوا من أن الشخص الذي شاركهم حياتهم الطويلة، مع صحبة مبهجة الليلة؛ لديه ما يحتاجه ليلته من الضروريات.

ولكن هناك في «لينوكس» بشقة «چوتريس» و«ڤيولت»، فإن الحجرات تُشبه أقفاص طيرها الفارغة، والملفوفة بالقماش. وقد صار وجه الفتاة الميتة شيئاً ضرورياً لأجل لياليهما. يتناوب كل منهما في إلقاء أغطية الفراش عنه، النهوض عن المرتبة الرخوة، ثم بأطراف أقدامه على مشمّع الأرضية البارد وإلى الصالة للتحديق فيما يبدو أنه الوجود الحيّ الوحيد في البيت: صورة فتاة جريئة، غير مبتسمة، تبرز من رفّ المدفأة. لوكان الساري على أطرافه «چوتريس»، منقاداً بعزلته من جانب زوجته، يبرز إليه الوجه دونما أمل أو أسى، أو اتهام أيقظه جوعاناً من نومه لرفقتها. ليس من إصبع يتهم. ولا تنقلب شفتاها بالحكم عليه. وجهها هادىء، كريم وحبيب. ولو كان الساري على أطرافه «ڤيولت»، تختلف الصورة تماماً. فيبدو وجه الفتاة جشعاً، متعجرفاً،

وكسولاً جداً. كالقشدة التي بأعلى سطل الحليب. وجه فتاة قشديّ لايؤدّي عملاً مقابل شيء؛ فتاة تلقط الحاجات من فوق مرآة الأخريات ولاتتحرّج عند اكتشاف ذلك. وجه متسلّلة إلى حوض الغسيل لنشل الشوكة التي كنت تضعها جنب طبقها. وجه مستغلق – مايراه هو ذاته الخاصة. أنت هناك، يقول، لأنني أنظر إليك.

مرتان أوثلاث في أثناء الليل، وبينما يتناوبان إلقاء نظرة على الصورة، ينطق أحدهما باسمها. «دوركا؟ دوركا» فتصير الحجرات المظلمة أشدّ إظلاماً: والصالة تحتاج لإضرام كبريت من أجل رؤية الوجه. خلفاً حجرة الطعام، حجرتان للنوم، المطبخ – كلها تقع بوسط المبنى، ولذلك لاتطلّ شبابيك الشقة على القمر أو النور من مصباح شارع. أفضل نور في الحمام، لأنه بارز عن المطبخ ويمكنه اصطياد أشعة الظهيرة. كان «چو» و«ڤيولت» قد رتّبا أثاثهما بطريقة لاتذكّر أحداً بحجرات «مودرن هوم ميكر»، ولكنها تناسب عادات الجسد، والطريقة التي يمشي بها شخص من غرفة لأخرى دونما ارتطام بأي شيء، وما يريد أن يفعله حين يجلس. تعرف كيف أن بعض الناس تضع كرسياً أو منضدة في ركن ليبدو لطيفاً لكن لا أحد في العالم يقوم برحلة إليه، فيترك وحيداً هناك؟ لم تفعل «ڤيولت» ذلك في بيتها. كل شيء موضوع حيثما يتمنّى أي واحد أن يجده، أو يستعمله، أو يحتاج إليه. ولذلك لاتوجد في حجرة طعامها المنضدة المعروفة بكراسيها الجنائزية. لديها مقاعد كبيرة غائرة ومنضدة لورق اللعب جوار النافذة عليها كتلة حجر كريم، وشجرة تنّين، ونباتات طبية حتى يمكنهم لعب الورق أو «التونك» ما بينهم. والمطبخ رحب بحيث يسع أربعة يأكلون، أو تأخذ زبونة راحتها الكاملة بأثناء ما تقوم «ڤيولت» بفرد شعرها. الغرفة الأمامية، والصالة، ليست ضائعة أيضاً، فيمكنها انتظار حفل زفاف يليق بها. فيها أقفاص الطيور ومرايا تعكس للطيور صورتها فيها، لكن الآن، بالطبع، لاتوجد طيور هنالك، فقد أطلقت «ڤيولت» سراحهم في نفس اليوم الذي ذهبت فيه بالسكّين إلى جنازة «دوركا». توجد الآن فحسب، الأقفاص فارغة، وتومض المرايا العزلاء عاكسة فيها. بالنسبة للباقي، فهو كنبة، وبضع مقاعد خشبية محفورة جنبها مناضد صغيرة حيث يمكنك أن تضع فنجان قهوتك أو وعاء الآيس كريم أمامك، أو لو كنت تريد قراءة صحيفة، يتمّ ذلك سهلاً بدون أن تتّسخ الطيّات. رفّ المدفأة عليه، في العادة، قواقع وأحجار ملوّنة جميلة، لكن ذلك كله قد راح الآن، فوحدها صورة «دوركا منفريد» تحتلّ المكان في إطارها المفضّض وتوقظهما طوال الليل.

بعض الليالي المضنية تجعلهما ينامان متأخرين، فيكون على «ڤيولت» أن تعجّل في تحضير الوجبة قبل استعدادها لحلاقة الرؤوس. لديها براعة في القصّ، لكن دونما تدريب تمّ الإشراف عليه، ولذلك لاتملك رخصة للحلاقة، وهي تتقاضى خمسة وعشرين سنتاً أو خمسين، حسب ما تقتضيه الأحوال، لكن منذ حادثتها في جنازة «دوركا»، تعللت كثير من زبائنها المنتظمات ببعض الأسباب، وكن يقمن بقصّ شعرهن لأنفسهن أو يجعلن بنتاً لهن تحمّي المكاوي. لم يكن «چوتريس» و«ڤيولت» بحاجة لكيس نقود تلك الحلاقات، ولكن بسبب أن «چو» كان يغيب عن أيام عمله الآن، فكان على «ڤيولت» أن تحمل أدواتها أكثر وأكثر إلى

شُقق قائظة بالحرّ لنسوة يتيقظن عند الظهيرة، تُصبّ «الجن» المسكَر في شايهنّ، غير آبهةٍ لما تؤديه. كن هؤلاءِ النسوة يحتجن واحدة على الدوام لقصّ شعرهنّ، وأحياناً ما تظلم الشفقة أعينهن المشرقة ويعطينها بقشيشاً دولاراً كاملاً. «تحتاجين لتغذية نفسك قليلاً» تقول لها إحداهن «ألاتبغين في أن تكوني أسمن من مكواتك للفّ الشعر؟».

«اخرسي» تقول «ڤيولت».

«إني أقصد هذا» تقول المرأة، لاتزال ناعسةً، مريحة خدّها على راحتها اليُسرى، بينما تمسك أذنها باليمنى.

«إن الرجال ينحلونك حتى تصيري قطعة غضروفٍ رقيقة، لو سمحتِ لهم»

«نساء» تردّ «ڤيولت». «النساء يضعفنني. مامن رجلٍ أضعفني مقابل شيء. هن هؤلاء الفتيات الصغيرات الجائعات يتصرّفن كنساءٍ. لايسعدهن الأولاد من نفس سنهنّ، لا، فيردن شخصاً كبيراً يمكن أن يكون لهنّ أباً. يدرن بالروج، والجوارب الكاشفة، وملابسهن لأعلى إلى ماتعرفين...»

«حاسبي أذني – فتاة! – لسوف تكوينها؟»

«آسفة. أنا آسفة. حقيقي، حقيقي آسفة» وتكفّ «ڤيولتٍ» حتى تتمخّط وتمحو الدموع بظهر يدها. «أوه، الشيطانة» تومىء المرأة، منتهزة فرصة السكون لتشعل سيجارة. «أريد منك الآن أن تسترسلي في حكاية تلك القصةالكريهة القديمة، كيف عبثت فتاة صغيرة بكِ، وكيفَ أنه –هو– لم يلام لأنه –هو– كان يسير في الشارع مهتماً بشئونه – هو، حين اعتلَت هذه الفرّج الصغيرة ظهره وجرّته إلى سريرها. خذي نفسكِ. فقد تحتاجينه على فراش موتك». «أحتاج نفَسي الآن». تختبر «ڤيولت» المشط الساخن. فَيلسع الصحيفة طابعاً إصبعاً بنيّة طويلة.

«هل رحل؟ هل هو معها؟»

«لا. لانزال سوياً. هي ماتت»

«ماتت؟ إذن مالك؟»

« يفكّر فيها طول الوقت. لاشي في باله سواها. لايعمل. لايمكن أن ينام. مآسٍ طوال النهار وكلّ الليل...»

«آه» تقول المرأة. تُطرق النار من سيجارتها، فيذوي الطرف وتضع العُقب بحذرٍ في الطفاية. تنحني ثانيةً في الكرسيِّ، تضغط حافة أذنها بإصبعين. «عندك مشكلة» تقول، متثائبة. «مشكلة عويصة. لاتستطيعين أن تنافسي الموتى لأجل الحبّ. تخسرين كل مرة».

توافقها «ڤيولت» على ذلك؛ ليس فقط أنها خسرت «چو» مع الفتاة الميتة، بل ترتاب في أنها قد تكون أحبّتها كذلك. عندما لاتحاول أن تخزي «چو» يعجبها شعر الفتاة الميتة؛ عندما لاتسب «چو» بكلمات لعينة من نوعٍ جديد، تتحاورٍ بهمسٍ مع الجثة في رأسها؛ عندما لاتقلق بخصوص فقدانه الشهية أو أرقه، تتساءل عن لون عيني «دوركا». خالتها قالت «بني»، وعاملات التجميل قلن «أسود»، لكن «ڤيولت» لم ترى أبداً فتاة لها بشرة فاتحة بعينين سوادهما فاحم.

شيء وحيد، بالتأكيد، كان ينقصها، تسوية أطراف شَعرها. في الصورة ومما تتذكّره «ڤيولت» من التابوت، فقد كان ينقص الفتاة تسوية أطراف شعرها. شعر بهذا الطول لابدّ أن يكون هشاً جداً. ومجرد تشذيب ولو ربع بوصة كان يفعل الأعاجيب، «دوركا». «دوركا».

تترك «ڤيولت» بيت المرأة النعسانة. الثلج نصف الذائب عند الإفريز يتجمّد ثانية، ورغم أن أمامها سبع كتل من الثلج، فهي تمتنّ للزبونة التي لاتجيء لمطبخها بميعاد قصّ قبل الثالثة، فيتوفّر لديها وقت قليل لشغل البيت. بعض أعمالٍ تحتاج للإنجاز حيث من المحال ألا تجد شيئاً لتنجزه. لاترتيب في الطلبات، قائمة من المهمات. ربما ترنّح يديها في الهواء، أو ترتعش لو لم تتمكّن من وضع يدها في شيء من العمل اليوميّ كمثل الانحناء على هذا الذي تؤدّيه. تشعل الفرن لكي تدفئ المطبخ. وبينما كانت ترش ياقة قميص أبيض كان عقلها على رجل السرير، حيث القائم المخلخل بعيداً عن دعامته، مفروجاً تماماً بحيث يصعب تثبيته ثانيةً. حين تجيء الزبونة، وترغّي شعرها الرماديّ النحيل، تتمتم العجوز بين ثنايا أسرارها «على مهلك»، فتعيد «ڤيولت» وضع الرباط الذي يمسك بباب الفرن إلى مفصّلته، وتكرّر دعوى بقاء ثلاثة أيام على بداية الشهر حيث يأتي جامع الإيجار. تفكّر في أنها تتوق لراحة، ذات ظهيرة مبهجة، تذهب فجأة للسينما، أو مجرد جلوسها مع أقفاص الطير تنصت للأطفال وهم يلعبون في الثلج.

نزوة الراحة هذه، جذابة إليها، ولكني لا أظنّ بأنها ستحبها. كلّهن على هذا، هؤلاء النسوة. يترقّبن راحة البال، المساحة التي لاتحتاج لامتلاء من أي نوع فضلاً عن انجراف خاصة أفكارهن. لكنهن لن يحببنها. فهن مشغولات ويفكّرنَ بطرق تجعلهن أكثر انشغالاً، لأن مساحة الفراغ هذه الضاغطة ربما تصرعهن. لاحقول من زهر ربيعٍ أرِج سوف تدفق من تلكم الفجوة، ولاالصباحات تخلو من ذباب وحرّ عندما النور يكون حييّاً. لاَ. لا على الإطلاق. فهنّ يملأْن بالهنّ وأيديهن بصابون وتصليح ومواجهات متورّطة، لأن ما يترقبهن، في لحظة تراخٍ فجأةً، هو نزٌّ الهياج. منصهرات. حركة بطيئة وكثيفة القوام. مشغولات البال ومستقلات عما في طريقه يختار أن ينطمر. أو، كذلك، في دقّ الزمان، وتحت صدورهن من الجنبين، ينساب حزن ولايدرين من أين. جارة تردّ ملَفّ الخيط الذي استلفته، وليس الخيط فقط، بل الإبرة الطويلة أيضاً، وكلاً منهما تقف على حلَق الباب ريثما تكرّر المستلفة للمقرضة حواراً مرحاً كان لها مع امرأة الطابق الأسفل؛ مرح هو الحوار فتضحكان – إحداهما عالياً بينما تمسك بجبهتها، والأخرى بطريقة خشنة حتى لتؤذي معدتها. والمقرضة تسكّ الباب أخيراً، لاتزال مبتسمة، وتلمس طيّة صدر سترتها وإلى عينها لتمسح آثار الضحك تماماً، ثم ترتمي على الكنبة فتهلّ الدموع سريعاً جدا حتى أنها تحتاج اليدين معاً لتصطادها.

على هذا المنوال، كانت «ڤيولت» ترش الياقات والأساور. ثم ترغّي بكل عزمها الثلاث أو الأربع أوقيات من شَعر تلك العجوز الرمادي، كان طرياً وشيّقاً كشعر الوليد.

ليس من نوع شعر وليد جدّتها، فقد غسلته بالصابون ولعبتْ به وتذكّرته لمدة أربعين عاماً. شعر الوليد الصغير الذي اتخذ اسمه منها. ربما ذلك السبب في أن «ڤيولت» كانت كواف – ناتج كل تلك السنين من الإنصات لجدّتها المنقذة، «ترويبليه» ، وهي تقصّ حكايا «بلتيمو سنواتها مع مس «ڤيرالويز» في ذلك المنزل الحجريّ البديع على شارع«إديسون» ، ولاشيء تفعل سوى تربية وعبادة الولد الأشقر بفانلته المطرّزة بالخيط الأزرق، والذي هرب منهما (★) حارماً إياهما من شعره المحبوب الذي كانا يرعيانه.

كان القوم مهتاجين حينما اخترقت «ڤيولت» الجنازة، لكنني لا أُصدّق أنهم كانوا مستغربين. فطويلاً، من وقت طويل قبل هذا، حتى قبل أن وضع «جو» عينيه على الفتاة، ذا يوم، جلست «ڤيولت» وسطَ الشارع. لم تزلّ بها قدم أو دفعها واحد: جلست فقط. بعد دقيقتين جاء لها رجلان وامرأة، لكنها لم تتبيّن السبب أو ما قالوه. جرّب شخص أن يعطيها ما لتشرب، فرمت به بعيداً . ركع شرطي أمامها فتدحرجت على جنبها، وغطّت عينيها. كان يمكن أن يأخذها إلى المخفر، لكن حشداً كبيراً كان يتذمّر «إنها متعبة، أو. دعها لترتاح» . حملوها إلى أقرب درج. ببطء أفاقت، نفّضت ملابسها، ووصلت لموعدها متأخرةً ساعة، فأسعدت فقط البغايا المتثنّيات، اللواتي لا يستعجلن شيئاً سوى الجماع.

لم يحدث ذلك –جلوس الشارع– مرة أخرى بقدر مانما لعلمي، فقد حاولت أن تسرق الوليد بهدوء، رغم أنه لاطريقة لإثبات ذلك. وماهو معروف هكذا: نساء «دمفري» –الا والابنة –كانتا متغيّبتين عند وصول «ڤيولت» . إما أنهما قد خلطتا اليوم، أو قررتا الذهاب لصالو التجميل المرخّص – فقط لمجرد الشامبو، محتمل، حيث تشطف أغوار الشعر في حوض حمّا توصّلت عاملات الصالون لهذا بما يلي: عليك أن تضطجعي للخلف بدلاً من الانحناء أماماً؛ ولم يكن ضرورياً أن تضغطي على عينيك بفوطة لطرد الماء المصبّن لأنه يصرف لأسفل من رأسك إلى الحوض. ولذلك، حتى لو لم تكن عاملة الصالون المرخّص لها حاذقةً مثل «ڤيولت» فإن الزبونة المنتظمة تنسلّ إلى المحلّ فقط من أجل متعة شامبو مريح.

إن حلاقة رأسين في مكان واحد تكون من حسن الحظّ، وقد كانت «ڤيولت» لهذا السبب تتطلع لميعاد الحادية عشرة. حين لم يردّ أحد على الجرس، انتظرت، وظنّت أن ربما قد عطلتهما السوق. وبعد وقت ما، جرّبت الجرس ثانية، ثم انحنت على الدرابزين الإسمنت لتس امرأة تغادر المبنى إن كانت تعرف أين نساء «دمفري» . هزّت المرأة رأسها لكن رجعت لتساعد «ڤيولت» في النظر على النوافذ والاستخبار عنهما.

«ترفعان الستائر عند العودة» قالت «وتسدلانها حينما ترحلان. ما ينبغي هو العكس» .

«ربما ترغبان في النظر للشارع عند العودة» قالت «ڤيولت» . «النظر لماذا؟» سألت المرأة. غاضبةً على الفور. «لنور النهار» قالت «ڤيولت» . «تجعلان بعضاً من نور النهار يدخل هناك» .

«بل تحتاجان للعودة إلى بلدتهما «ممفيس» لو كان نور النهار هو ماتريدانه» .

(★) من أمه البيضاء «ڤيرالويز» وخادمته السوداء «ترويبليه» ، بحثاً عن أبيه الأسود. (المترجم) .

«ممفيس؟ كنتُ أظن بأنهما مولودتان هنا».
«ذلك ما يجعلانك تعتقدينه. لكنهما ليستا من هنا. ولاحتى من «ممفيس». من «كوتّاون». مكان لم يسمعَ به أحد».
«سأكون أنا هذا الأحد» قالت «ڤيولت». مندهشة للغاية، لأن نساء «دمفري» سيدتان جليلتان، متمدنتان، أبوهما كان يملك متجراً في الشارع ١٣٦، وهما بنفسيهما كان لهما وظائف لطيفة بالتعامل مع الأوراقِ: واحدة تقطع تذاكر في «لافاييت»؛ والأخرى تعمل بمكتب محاسبة. «لم تكونا تحبان ذلك يعرف» استمرت المرأة. «لم؟» سألتِ «ڤيولت».
«ذلّ، ذاك السبب. يأتي من التعامل مع المال طولَ النهار. أتلاحظين؟ كيف أن الذين يتعاملون في المال لكسب القوتِ يصبحون مروعين؟ ألأنه يخصّ غيركِ لا لكِ؟» مصمصت بشفتيها عند النظر على النوافذ المسدلة «نور النهار خطوتي».
«طيب، فأنا أقص شعرهما كل ثلاثاء آخر واليوم ثلاثاء، صحيح؟»
«طول النهار».
«غريبة، أين تكونان إذن؟». زلقت المرأة يداً تحت جونلتها لتشدّ أعلى جوربها «خرجتا. لمكان تبدوان فيه كأنهما من غير كوتّاون». «وأنتِ من أين؟» تأثرت «ڤيولت» من قدرة المرأة على إحكام جوربها بيدٍ واحدة.

«كوتاون. عرفتُ كلاً منهما في طريق الرجوع. وحين الوصول هنا، تصرَّفَتْ كل العائلة كأنها لم ترني من قبل. ربما بسبب هذا التعامل مع المال بدلاً من المقشّة التي اعتدت عليها قبل فقداني هذه الوظيفة التي لا تحسب. يايسوع». تنهّدت بتثاقل. «اتركي رسالة، لم لا؟ لاتعتمدي عليّ أن أعرّفهما بأنك جئت هنا. فنحن لانتحادث معهما إلا في الضرورة». زرّرت معطفها، ثم لوّحت بيدها تعني افعلي مابدالك حين قالت «ڤيولت» بأنها ستنتظر قليلاً.

جلست «ڤيولت» على السلالم العريضة مُعشّشة حقيبة مكاويها والزيت والشامبو في المساحة خلف ربلتي ساقيها. حين كان الوليد بين ذراعيها، شدّت بطانيته لأعلى حول خدّيه تتقى تهديد ريح باردة من أجل الحبيب العسلي، بوجهه القشدة. تحديقه الملتبس بعين كبيرة يجعلها تبتسم. فمهّدت راحة لنفسها في معدتها بنوع من الوثب، كمثل نورٍ فيّاضٍ يسافر بأوردتها.

ظنّت أن «چو» سيحبّ هذا. يحبه. برح بها الخيال نحو حجرة نومهما وما يمكن استخدامه فيها كمهد حتى تحصل على آخر حقيقي. وهناك بالفعل صابون ملطّف في شنطة عينة «چو»، فيمكنها أن تحمّمه بالمطبخ حالاً. ولد؟ هل ولد؟ رفعت «ڤيولت» رأسها إلى السماء، ثم ضحكت بانفعال مخزون عند عودتها لتنظر. كانت ضحكة -سائبة وصاخبة- أكّدت السرقة عند البعض، وكذّبتها لدى آخرين. هل أن لصة - غادرة تسرق وليداً تسترعي الانتباه لنفسها على هذا النحو في زاوية لاتبعد مائة ياردة عن عربة الأطفال الشريرة التي خطفته منها؟ هل أن امرأة بريئةطيبة القلب تقوم بجولة مع وليد تطلب أن يشاهدوها بينما أخته الأكبر تجري عائدة إلى البيت، وتضحك هكذا؟

كانت الأخت تصرخ أمام بيتها، فتسحّب الجيران والمارة نحوها أثناء ماكانت تمسح النظر في المفارق –جيئة وذهابا– نائحة «فيلي! راح فيلي!». وضعت يدها على مقود عربة الوليد، ولم تعزم على الجري في أي طريق تحطّ عليه نظرتها، كما يتّفق؛ لو كانت تركت عربته خالية إلا من الاسطوانة التي أسقطتها فيها –الاسطوانة التي اندفعت إلى المنزل من أجلها، والموضوعة الآن على المخدة التي يفترض بأن يكون عليها أخوها الوليد– فلربما اختفت العربة أيضاً.

«هي من؟» يسألها واحد «من أخذته؟»

«امرأة! رحت دقيقة واحدة. ولاحتى دقيقة! طلبت منها... قلت... وهي قالت ماشي...!»

«تركت وليداً حياً مع غريبة لتذهبي لإحضار اسطوانة؟» فجلب الاشمئزاز في صوت الرجل دموعاً إلى عيني الفتاة «ياسلام لو ماما تقطّعك». آراء وقرارات، طفرت من بين الحشد كإضرام كبريت.

«أنت عندك إحساس بعوضة».

«من ربّاك على السوء؟».

«استدعوا الشرطة».

«لماذا؟»

«ممكن تشوف على الأقل».

«بصّوا من أجل ماذا تركت ذاك الوليد».

«ماذا؟»

«ترمبون بلوز» (★).

«الرحمة»

«ستعرف الحزن على حقٍ أكثر من أي آلة ترمبون حين ترجع أمها للبيت».

هاجت زمرة الناس القليلة أكثر وأكثر، على الأخت الغبية، الأخت غير المسئولة، وعلى الشرطة، وعلى الاسطوانة الموضوعة في مكان الوليد، وأوشكوا على نسيان الخاطفة حين قال رجل عند منحنى الطريق «هي هذه؟» وأشار إلى «ڤيولت» في الزاوية، فكان أن استدار الجميع حيث كانت تشير إصبعه، دغدغتهم لذة اكتشافها حيث كانت على الفور، ترمي برأسها للوراء وتضحك في صخب. كان يرقد برهان براءتها في حقيبة أدوات الحلاقة، والتي ظلّت على السلّم حيث كانت «ڤيولت» تنتظر.

«هل كنت أترك شنطتي، بما أنال رزقي منه، لو أنني كنت أسرق وليدكم؟ تظنون بأنني مجنونة؟ وكانت عينا «ڤيولت» تومضان بالشرر وتدخّنان بالغضب، تحدّق مباشرة في الأخت. «في الحقيقة، كنت آخذ كل شيء. العربة أيضاً، لو كنت أفعل هذا».

(★) اسطوانة زنجية بآلة الترمبون، لحنها حزين. (المترجم)

بدا ذلك حقيقياً ومحتملاً بالنسبة لمعظم الحشد، خصوصاً لأولئك الذين خطأوا الأخت. تركت المرأة حقيبتها وكانت تمشّي الوليد ريثما تجري أخته الأكبر -من السخف أن تعهد بالطفل لأيّ كان- عائدة لمنزلها لجلب اسطوانة تعزفها لصديق. وما أدراك ما الذي دار برأس فتاة مغفّلة تماماً وهي تراقب وليداً ينام؟

وبدا للأقلية بأن ذلك لايحتمل ومشكوك فيه. لماذا إذن سارت لبعيد، لو كانت فقط تلاعب الوليد وتهزهزه؟ لماذا لم تتنقّل أمام البيت كما المعتاد؟ ولماذا ضحكها كان هكذا؟ مانوعه؟ لو أنها تضحك على هذه الشاكلة دوماً، فهي لن تنسى حقيبتها فقط، بل الدنيا بحالها. عوقبت الأخت، وأخذت الوليد وعربته واسطوانة الترمبون، عائدة للبيت.

كانت «ڤيولت» ظافرة وغاضبة، انتزعت حقيبتها، قائلة «آخر مرة أؤدّي لأي واحد خدمة من هذه العمارة. راقبوا صغاركم الملاعين!». وظلّت تفكّر على هذا النحو فيما بعد، وتتذكّر الحادثة كانتهاك لشخصها. ورحل عن بالها المهد المؤقّت والصابون الملطّف. لكن ذكرى النور، على أي حال، الذي وثب خلال أوردتها، لاتزال تعودها بين حين وآخر، وفي مرة، ذات نهار معتم، كانت زوايا معينة بالحجرة تقاوم نور اللمبة، فبدت حبّات الفاصوليا الحمراء بالوعاء وكأنها ستأخذ دهراً حتى تتطرى، عندما تصوّرت البهاء الذي كان يمكن أن تحمله في ذراعها. وانزعجت بحاجتها لأماكن معتمة كقاع بئر.

لم يكن «چو» يعرف أبداً نوبات جنون «ڤيولت» العمومية. وقد عبّر «ستوك» و«چيستان»(★) -وآخرون- بكلمة عن هذه الحادثات مع بعضهم، لكنهم لم يقدروا على الإذعان بحكاية شيء أكثر من «كيف حال «ڤيولت»؟ على مايرام، هكذا؟». وعلى العموم، فإن انهياراتها الخاصة، كانت معروفة لديه.

أسمّيها انهيارات لأنها كانت كذلك. ليست ثغرات أو لحظات ضعف، بل صدوع مظلمة في نهار العالم المنير. فهي تصحو صباحاً وترى بوضوح تام خيوط مشاهد صغيرة تنكشف أمامها. بل خيط شيء خاص يتم أداؤه: أشياء الطعام، أشياء العمل، الزبونات والمعارف متقابلين، وأماكن ستدخلها. لكنها لاترى نفسها تؤدي هذه الأشياء. تراها وهي منجزة. نور العالم يقبض ويحمّم كل مشهد، ومن المفترض بأن نجد الأساس الصلب عند المنحنى حيث يثبت النور. في الحقيقة، لا أساس هناك على الإطلاق، بل أزقّة، تعوق من يخطو عبرها طول الوقت. لكن نور العالم غير تام كذلك. عند التمحيص، تظهر الشقوق، والصدوع بإسفلت واه، وأماكن مريضة خلف ماهو أي شيء. أي شيء على الإطلاق. وعندما لا تتنبّه «ڤيولت» أحياناً تزلّ باتجاه هذه الصدوع، كهذه المرة، فبدلاً من أن تضع كعبها اليسرى أماماً خطت للخلف، وانثنت ساقاها لتجلس في الشارع.

(★) أصدقاء مقرّبون لـ «چو» في نفس السكن. (المترجم).

لم تكن على هذه الطريقة. كانت فتاة مُفعمةً بالحيوية، وذات عزمٍ، وامرأة شابة مجتهدة، بلسان نهّاز للإشاعة كعاملات صالون التجميل. أرادت أن تنال هدفها، وقد نالته. اختارت «چو» ورفضت أن تعود لموطنها ذات يوم حين رأته يتشكّل منتظراً في بواكير النور. واصلت في طريقها معه، فخرجت من حيّ «تندرلوان» إلى شقة أرحب بأعالي المدينة كان المالك قد وعدبها عائلة أخرى تردّدت عليه. كانت تكتسب زبائنها بالذهاب مباشرة إليهن وتصف خدماتها «يمكن لي أن أقصّ شعركن أحسن وأرخص، وأفعل هذا في أي وقت وأي مكان ترغبن فيه» وكانت تجادل الجزارين وباعة لحم الخنزير من البدء حتى النهاية «ضع نهاية تلك القطعة الصغيرة. أنتَ تزن لي بقايا؛ هل أبتاع الورق». وقد زلّت «ڤيولت» في صدعٍ أو اثنين، من زمان طويل قبل وقوف «چو» في الصيدلية المتجر يراقب فتاة تشتري النعناعَ. كانت «ڤيولت» تحسّ بشيء ما في فمها. فعلّقت الكلمات ببعضها فقط وهي تردّ على تعليق عاديّ بدرجة ما.

«لا أظنّ اليوم الثامن كان بهذا الشهر» قالت هي، بينما كانت تحسب توافقات الرقم العادية « لاأحد يقصد أن يلتقي صدفة، ولذلك أُعلّق الثمانية على كل شيء».

«لامهرب أمامنا للّعب» يقول «چو». «انضمي لكومبو(★) وظلي فيها».

«لا. إن يوم ثمانية هو المهم، أعرف هذا. كان ذلك يظهر عبر المكان كله في أغسطس، بطول الصيف، في الحقيقة. والآن، تجهّز للخروج من الاختيار».

«على هواك». وتفحّص «چو» عينة من مستحضرات كليوباترا.

«خذ بالك أن ذلك يتضاعف صفراً أو اثنين أو ثلاثة، فقط لو وقفت هذه البنت الجميلة بجوارك؟» وتطلّعتْ إلى «چو» ترتقب ردّاً.

«ماذا» يعبس. «قلت ماذا؟»

«أوه» تتعامى عنه «ڤيولت» بسرعة. «لاشيء. أقصد... لاشيء».

«بنت جميلة؟»

«لاشيء، چو. لاشيء».

تقصد أن لاشيء تفعله نحو ذلك، لكنه كان شيئاً ما. شيئاً هيّناً، لكنه مزعج. مثلما سألتها مس «هاي وود» ذات مرة، متى يمكنها أن تقصّ شَعر حفيدتها، وردّت «ڤيولت»: «الثانية بالضبط لو كانت عربة الموتى في الخارج».

لم يكن الخلاص بنفسها من تلكم الانهيارات صعباً للغاية، فما من أحد كان يضغط عليها. هل كنّ يضغطن عليها؟ ربما. ربما، فلكل واحدة لسان خائن يتوق لأنْ يكون على سجيته. تصمت «ڤيولت». تتكلّم أقلّ، وأقلّ، حتى أن «أه» أو «الرحمة» تحمل تقريباً كل دورها في الحوار. أقلّ عفوية من فمِ شكسٍ، كانت اليد التي أمكنها أن تعثر على سِكّين قد ضاع منذ

(★) فرقة چاز صغيرة، أو فرقة رقص. (المترجم)

أسابيع في قفص الببغاء، ولاتزال«ڤيولت» كما هى، الصموت. وكانت سكتاتها عبر الزمن تضايق زوجها، تلغز له، وفي النهاية تكئبه. لقد تزوّج من امرأةٍ تتحدّث أساساً مع طيورها. أحد هؤلاء يعيد ترديد «باحبك»

❖ ❖ ❖

أو اعتادت ذلك. عندما رمت «ڤيولت» بالطيور بعيداً، جعلها ذلك دون رفقة الكناريات واعتراف الببغاء، بل أعوزها أيضاً روتين تغطية أقفاصها، وكانت هذه العادة قد أصبحت أحد الأشياء الضرورية عند الليل. الأشياء التي تساعدك عبر الطريق إلى النوم. عمل قاصم للظهر قد يؤدي لذلك، أو شراب مسكر. وبالتأكيد فهو هناك،ذلك الجسد – الودود إن لم يكن الأليف – راقد بجوارك. شخص ماتكون لمسته إعادة طمأنة، لا إهانة أو إزعاج. تنفسه الثقيل غير ساخط ولامشمئز، بل يسرك وكأنه لحيوان بيتيّ مدلّل. والطقوس تساعدك كذلك: سكّ الباب، ترتيب الأشياء، تنظيف الأسنان، تصفيف الشعر، بل كل ذلك كان تمهيداً لأشياء ضرورية حقاً. إن معظم الناس تريد أن ترتطم بالنوم. فكن كمن يدقّ عليه بقبضة من تعب كي تتجنب ليلة صمت مزعج. أقفاص الطير فارغة فهي ليست بحاجة لأن تكوّن ملفوفة بقماش. فتيات غير باسمات جريئات تحملق من رفّ المدفأة.

بالنسبة لـ «ڤيولت»، التي ماعرفت الفتاة قط، فقد كانت صورتها وشخصيتها التي اخترعها تنبني على تحقيقات دقيقة، ذكرى الفتاة علّة هذا البيت – في كل مكان وبلا مكان. لاشيء هناك لدى «ڤيولت» كي تهزمه أو تصدمه، وعندما يتوجّب عليها ذلك، أن تقاتله فحسب وإلى حدّ ما، فليس إلا قشة أو أثراً لصورة.

لكنه وبالنسبة لـ «جو» فالأمر مختلف. لأن هذه الفتاة كانت حاجته الضرورية لليالي ثلاثة أشهر. فهو يسترجع ذكرياته عنها؛ كيف أن تفكيره فيها –بينما يرقد في الفراش جنب«ڤيولت»– هو الطريقة التي يدلف بها للنوم. يعهد إلى موتها، ويتأسف على ذلك للغاية، لكنه يتأثر أكثر من فشل ذاكرته في تمثّل الهيام. ويعلم أن ذلك سوف يشحب باستمرار، من حيث بدأ بتلك الظهيرة التي اصطاد فيها «دوركا». بعد أن قالت أنها تريد جزيرة «كوني» وأن تؤجّر حفلات والمزيد من المكسيك. حتى ذلك الحين كان يتشبّث بنوعية جلدها السكّريّ، بالشجيرة الوحشية العالية التي تكوّنها مخدات السرير لشعرها، بأظافرها المعضوضة، بطريقة وقوفها التي تفطر القلب، بأقدامها المسحوبة. حتى ذلك الحين، كان ينصت لكلامها، للأشياء الفظيعة التي حكّتها، وقد شعر بأنه خسر جرس صوتها وما كان يحدث لأجفانها حين كانا يفعلان الحبّ.

يرقد الآن في الفراش مُسترجعاً كل تفصيلة من ظهيرة أكتوبر تلك حين قابلها لأول مرة، من البدء حتى النهاية، مرات ومرات. ليس لمجرد طعمها اللذيذ، بل لأنه يجرّب أن يحجّرها في باله، يطبعها هناك ضدّ بليً قادم. ولن تكون هي أو عشقها شاحبين أو أجربين مثلما حاله مع«ڤيولت». لأن«چو»، وهو يحاول تذكّر الطريق الذي ولّى حين كان هو و «ڤيولت» شباباً، حين تزوّجا، وقرر الرحيل عن مقاطعة «ڤسبر» والانتقال شمالا إلى المدينة ؛ لا شيء يأتي على باله حينذاك. يعيد بالطبع استدعاء التواريخ والأحداث والمشتروات والحيوية، وحتى المشاهد. لكنه يحاول اصطياد ماكان يشعر به في ذلك الوقت العصيب.

لقد جاهد طويلاً تلك الخسارة، وظنّ بأنه قد راض نفسه على ذلك، ووفّق لحقيقة أن السنّ العجوز لايُمكّنه من تذكّر الأشياء على النحو الذي كان يشعر به حينذاك. فيمكنك أن تقوَل «كنت خائفاً حتى الموت» لكنك لاتقدر على أن تستعيد الخوف. ويمكن أن تتمثّل في الذاكرة مشهد نشوة، قتل، حنان، لكنه ينقضي مع كل شيء إلا ما تقوله فيه من لغة. ظنّ بأنه وفّق لذلك، لكنه كان مخطئاً. حين نادى على«شيلا» ليسلّمها طلبية كليوباترا، دخل غرفة ملأى بنساء ضاحكات، صاخبات —وهناك كانت هي، واقفة عند الباب، تمسكه لتفتح له— نفس الفتاة التي أذهلته في الصيدلية المتجر؛ الفتاة التي تبتاع النعناع ذات الجلد المُدمّر الذي أثاره فاحترقت عيناه. وعلى حين فجأة، هناك، بمدخل«أليس منفريد»، كانت تقف، أصابع قدميها مسحوبة، شعرها معقوص، غير باسمة، لكنها ترحّب به للدخول طبعاً. طبعاً. وبطريقة أخرى لم يكن لديه الجلد أو الجراءة في أن يهمس لها عند الباب حينما غادر.

امتاز فجأة بعدوانية شبقة لم يكن معتاداً عليها أو كان بحاجة إليها من قبلُ. أزيز الرغبة التي صعدت بهمسته طويلاً خلال الباب الذي سكّته، بدأ يمشّطه. في البداية كبحه، متلذذاً بمعرفة أنها هناك، ثم سرّحه لكي ينشعب فيعجبه على مهلٍ. لم يحنّ للفتاة أو كان تائقاً إليها، رغم تفكيره فيها، وقرّر. حين قرّر وضع اسمه على شجرة الجوز التي نام فيها مع «ڤكتوري»، كانت قطعة الأرض تحتها، وحين أدار وجهته للمدينة، صمّم على «دوركا». بالنظر إلى زواجه من «ڤيولت» — لم يكن قد اختار ذلك، لكنه كان ممتناً له في الحقيقة، فهو لم يكن بحاجة إليه؛ لكن «ڤيولت» فعلته من أجله، ساعدته في مطاردة طير «السمنة المغرّد» بالمقاطعة، وصاحبهما صمت معتّق لذلك.

تقابلا في مقاطعة «ڤسبر»، بولاية فرچينيا، تحت شجرة جوز. كانت تعمل في الحقول كأي شخص آخر. وأمام زمان مسروق، لبثت تحيا مع عائلة على بعد عشرين ميلاً منها. كانا يشتركان في معرفة الناس، بل ربما تشكّ في قرابة ما بينهما. كانا في صحبة دائماً لأنها وضعا معاً، وكل ما قرراه بنفسيهما هو متى وأين يتقابلان ليلاً.

رحل«چو» و«ڤيولت» في عام ١٩٠٦، عن تيريل، وهي محطة سكة حديد عبرمقاطعة «ڤسبر»، وصعدا إلى قسم الملّونين بقطار «سوزرن سكاي». حين أرعد القطار مقترباً من المياه

المحيطة بالمدينة، ظنّا أن ذلك كحالتهما: كانا متوترين لوصولهما هناك أخيراً، بل ومرتابين مما يدور على الجانب الآخر. شغوفين، خائفين قليلاً، لم يأخذهما النوم طوال أربع عشرة ساعة في سفر أقل نعومة من مهد هزّاز. العتمة السريعة في العربات حين انطلقت عبر النفق جعلتهما يتساءلان مالو كان حائط هناك سيرتطمان فيه أو كأن منجرفاً يتعلّق على لاشيء. عند هذه الفكرة ارتجف القطار بهما لكنه استمر ولابد أنه ارتطم هناك أماماً لأن الارتجاف صار رقصاً تحت أقدامهما. وقف «چو» وانقبضت أصابعه على الحقائب المعلّقة فوق رأسه. شعر بالرقص أخفّ بتلك الطريقة، فأخبر «ڤيولت» بأن تفعل نفس الشيء.

كانا مُعلقين هناك، زوجان ريفيان شابان، ضاحكان يُنقّران على وقْع القطار، عندها جاء الناظر، كان سعيداً لكنه غير مبتسم، لأنه لم يكن في حاجة للابتسام في هذه العربة الملأى بالملونين.

«الإفطار في عربة الطعام. الإفطار في عربة الطعام. صباح الخير. إفطار كامل في عربة الطعام». أمسك بطانية العربة ومن تحتها تسحّب زجاجة جالون الحليب، وضعها في يد امرأة شابة معها وليد نائم على ركبتها. «إفطار كامل».

لم يكن على سجّيته تماماً، هذا الناظر. أراد من العربة كلها أن تصطفّ إلى ديوان الطعام، الآن وبقدر ما يمكن. على الفور، الآن، لأنهم كانوا يخرجون من «ديلاوار» ويبتعد الطريق عن «ميريلاند» فلم تكن هناك ستائر خضر في لون السمّ لتفصل الملوّنين الذين يأكلون على بواقي الطاعمين. لم يشعر الطباخون بالتزام تقديم حصص إضافية على الأطباق أمام الستارة؛ ثلاث شرائح ليمون في الشاي المثلّج، قطعتان من كعكة جوز الهند ترتبان لتبدوا كواحدة، وكي يخرج الترياق من سمّ الستائر، يضيفون قليلاً من الطعام في الطبق – والآن، يدورون حول المدينة، وليست هناك ستائر خضر؛ كل العربة ملأى بالملوّنين وكل من جاء أولاً يخدم أولاً كقاعدة. لو فقط أمكنهم ذلك. لو فقط أمكنهم رفع صناديقهم الصغيرة وسلالهم من تحت المقعد؛ يغلقون أكياسهم الورقية لمرّة، ويردّون شرائح الخنزير المقدّدة إلى القماشة التي كانت ملفوفة فيها، ويحتشدون رتلاً طويلاً خلال العربات الخمس رأساً إلى عربة الطعام، حيث أنه على الأقل كان مشمّع المائدَة أبيض مثل الملاءات التي جففوها على شجيرات العرعر؛ وحيث كانت فوط المائدة مطويّة بتجعيدة صلبة كالتي قاموا بكيّها لعشاء الأحد؛ وحيث كانت صلصة اللحم ظريفة كالتي يعملونها، فلمّ تتخذ الشرائح مكانها جنب شرائح الخنزير المقدّدة في القماشة. حدث ذلك لمرة. امرأة بحذاء جيد مع فتاتين صغيرتين، رجل من نوع الواعظ بساعة مسلسلة وقبعة مطوية الحوافّ، ربما يقفون ليعدلوا ملابسهم ويشقّوا طريقهم عبر العرباتّ تجاه الموائد، بيص كالزبد بشوك وسكاكين فضيّة ثقيلة. يشرفون وينتظرون جوار رجل أسود لم يكن في حاجة لجلّد كرامته بابتسامة.

إن «چو» و «ڤيولت» لم يُفكّرا في ذلك – دفعا حقّ الوجبة التي لم تَفُتهما وقد تطلّب

هذا منهما الجلوس ساكنين، أما الأسوأ، فكان أن فصلتهما المائدة. ليس الآن. لن يدخلا إلى آخر المدينة وهما يرقصان على طول الطريق. عظام وركها احتكّت بفخذه بينا كانا يقفان في الممشى غير قادرين على كفّ الضحك. لم يكونا هناك بعد وعلى التوّ كانت المدينة تتحدث معهما. كانا يرقصان. وكمثل مليون من الآخرين، فإن الصدور تخفق، وتنظّم الدقّات بالقطار خطوهما، حدّقا من النوافذ لأول لحة من المدينة التي تراقصت معهما، مبرهنةً على مقدار حبها لهما. وكمثل مليون آخرين، لم يكونا قادرين على الانتظار حتى يصلا إلى هناك ويردّا لها الحبّ.

أبطأ البعض بشأن ذلك، وقد سافروا من «چورچيا» إلى «ألينوا»، إلى المدينة، عائدين إلى «چورچيا»، خارجين إلى «سان دييجو»، وأخيراً، يهزّون رؤوسهم، مسلمين أنفسهم للمدينة. علم آخرون يقيناً بأنها كانت لهم، هذه المدينة وليس غيرها. أتوا إليها في نزوة لأنها كانت هناك، ولِمَ لا؟ لقد أتوا بعد طول تخطيط، خطابات عدّة أرسلت واستلمت، للتأكد ولمعرفة كيف وكم تكلّف وأين. أتوا في زيارة ونسوا أن يعودوا إلى قَطنٍ طويلٍ أو قصير. يتعلّقون بها لوهلة، بشرفٍ أو بدون، طردتهم بالفصل أو بدون، أخرجتهم بإنذارٍ أو بدون؛ ثم لا يتمكّنون من تصوّر أنفسهم في أي مكان غيرها. أتى آخرون لأن قريباً أو زميلاً مقيماً قال، يارجل، من الأفضل أن ترى هذا المكان قبل أن تموت؛ أو، لدينا غرفة هنا، فاحزم حقائبك ولاتحضر حذاءً كعبه عالٍ.

كيفما أتوا، متى ولماذا، فإن لحظة ارتطام جلد نعالهم بالرصيف– تعني أنه لاعودة. حتى لو كانت الغرفة التي استأجروها أصغر من حظيرة لعجلة وأظلم من مرحاض الصباح، فهم يقيمون ناظرين على رقمهم، يسمعون أنفسهم ما بين جمهور، يشعرون بأنهم يسيرون في الشارع ما بين مئات آخرين على نفس ما يفعلون. ومتى يتحدثون، بغضّ النظر عن اللكنة، فهم يتعاملون مع اللغة كأنها لعبة عويصة، وطيّعة، قد صمّمت ليلعبوها. جزء من سبب عشقهم لها هو ذلك الشبح الذي تركوه من خلفها. الأعمدة الفقّارية المترهّلة لمحاربي الكتيبة ٢٧ والتي ضلّلها القائد لأنهم حاربوا كمخبولين. عيون الآلاف، كانت مشدوهة باحتقار من جلبهم السيد «آرمور» ،السيد «سويفت» ، والسيد «مونتجمري ويرد» لإشعال الإضرابات والطرد لمن فعل ذلك. الأحذية البالية لمفرغي مراكب «جلفستون» الذين لايدفع لهم أبداً السيد «مالوري» كمثل ما للبيض، خمسين سنتاً في الساعة. النخل المتمايل، التنفّس الخشن، الأطفال الهادئون لأولئك الفارّين من «سبرنجفيلد أوهايو» ، «سبرنجفيلد إنديانا» ، «جرينسبرج إنديانا» ، «ولمنجتون ديلاوار» ، «نيو أورليانز لويزيانا» ، ما بعد هجوم البيض الذي أرغى على مدار الدروب والأفنية بسكناهم.

موجة السود الفارّين من التوقيف والعنف كانت اندلعت في عقود ١٨٧٠ ، ١٨٨٠ ، ١٨٩٠ ، ولكنها صارت كنهر حامد ١٩٠٦ حين انضمّ إليها «چو» و«ڤيولت». كانا من الريف، مثل الآخرين، لكن أنّى لساكني الريف أن ينسوا على الفور. حين يقعون في غرام مدينة، يكون هذا للأبد. أو أنه مثل الأبد. رغم أنه لم يمرّ زمان لم يعشقوها فيه. لحظة وصولهم في محطة

القطار أو نزولهم من مركب ويلمحون الشوارع الفسيحة والمصابيح الضائعة تنيرها، يعلمون بأنهم قد ولدوا من أجلها. هناك، في المدينة، مامن جديد كثير مثلهم هم: بأنفسهم الأشدّ صلابة، والأكثر مغامرة. وفي البداية، بمجرد وصولهم، وبعد عشرين عاماً، عندما يكبرون مع المدينة، فهم يحبون للغاية ذلك الجزء الذي صار في أنفسهم حتى كاد أن ينسيهم حبهم للآخرين– لو عرفوا هذا مرة، فلأنه حق. لا أقصد أنهم يكرهونهم، لا، مجرد أن مابدأوا يحبونه هو الطريقة التي يسير بها شخص في المدينة؛ طريقة طالبة بمدرسة في سيرها بالشارع فهي لاتتوقف عند الإشارة بل تنظر أماماً وخلفاً ثم تخطو على خطوط العبور؛ كيف يقيم الناس في مبانٍ مرتفعة بمداخل صغيرة، وما تبدو عليه امرأة في سيرها وسط حشد، وكم أن جانب وجهها صادم في مقابل خلفية النهر الشرقيّ. الراحة في روتين المطبخ حينَ تعرف بأن زيت اللمبة أو الفتيلة هو حول الزاوية وليس على بعد سبعة أميال؛ والتعجّب من دفع النافذة لفتحها وتظلّ لساعات كالمنوّمة مغناطيسياً تنظر على البشر في الشارع.

قليل من ذلك يؤدّي إلى الحبّ، بل يضخّ الرغبة. المرأة التي تنحني كلاً بمفردها إلى سور في طريق ريفيّ، تخرط دم رجل ربما لا تتوقع أن تلفت عينه حتى في المدينة. لكنها لوتضرب في خطوها مسرعة وبعنف على شارع المدينة الكبير بكعبيها، مطوّحة بشنطتها، أو جالسةً عند منحنى مع بيرة مثلّجة في يدها، تدلّى حذاءها من طرف أصابع قدمها، ينفعل الرجل بجلستها، بالجلد الطريّ على الحجر، ثقل البنيان ضاغط على الحذاء المتدلّي اللطيف، مقبوضاً عليه. ولربما يظنّ بأنها هي المرأة التي يترغّبها، وليس ذلك الاتحاد بالحجر المنحني، وبحذاء مطوّح عالي الكعب يتحرك جيئة وذهاباً بنور الشمس. سيعرف الخديعة فعلاً، خدعة الأشكال والنور والحركة، لكن ذلك غير مهم على الإطلاق، لأن الخديعة جزء منه كذلك. على أية حال، سيحسّ برئتيه تندفعان أعلى وأسفل. لاهواء هنالك في المدينة بل عبير، وكل صباح يتسارع مندفعاً إليه كغازٍ ضاحكٍ ينير عينيه، وكلامه، وتوقّعاته. في لازمان على الإطلاق ينسى الجداول المحصبة الصغيرة، وشجر التفاح العتيق الذي يلقي بأغصانه على الأرض وما عليك إلا أن تمدّ إليه يدك أو تنحني لقطف الثمار. ينسى شمساً اعتادت أن تنزلق لأعلى بمثل صفار بيضة ريفية جيدة، الأحمر البرتقاليّ الكثيف في قعر السماء، لن يفوته ذلك، لايرفع بصره ليرى ما يحدث فيه أو في النجوم التي ماعادت تتعلّق بالنور من الارتجاف، كمصابيح شارع ضائعة.

نوع من الفتنة، مستمر وخارج عن السيطرة، يستولي على الأطفال، والفتيات الصغار، والرجال من كل صنف، والأمهات، والعرائس، والنسوة السكّيرات، ولو أنهم اتّخذوا طريقهم للوصول إلى المدينة، يحسّون بذواتهم أكثر مما كانوا يظنون على الدوام بأنهم بشر. لاشيء بإمكانه خلعهم بعيداً عنها؛ فالمدينة هي مايريدون منها أن تكون عليه: معدومة القيمة، دافئة، جبانة، وملأى بغرباء لطيفين. لاعجب إذن أن ينسوا الجداول المحصبة، وحين لا يعيرون السماء بالاً يحسبونها مجرد معلومة دقيقة عن الزمن أو النهار أو الليل.

لكني رأيت المدينة بسمائها التي لاتُعقَل. الحمّالون ونُظّار ديوان الطعام لايفكّرون في مغادرة المدينة على الأكثر ويواصلون تحت السماوات الريفية بامتدادها الكبير التي يرونها من نوافذ القطارات. لكن لاشيء غالب على ما يمكن أن تهبه المدينة من سماء الليل. يمكنها أن تفرغ نفسها من سطحها، لتبدو أكثر شبهاً بالمحيط من ذاته، تنزل عميقاً، بدون نجوم. تطبق على أعالي المباني، قريباً، وأقرب من الكاب الذي ترتديه، سماء مدينة كهذه تضغط وتنبسط، وتضغط وتنبسط، تجعلني أفكّر في حبّ غير شرعيّ لكنه حرّ يتخلّق من العشاق قبل أن ينكشف. أنظر عليها، سماء هذا الليل التي تدوّي في مدينة مبهرة، ومن الممكن لي أن أتجنّب الحلم بما أعلم أنه في المحيط، والخلجان، والروافد التي تغذّيه: طائرات بمقعدين، مقدمها في الرغام، الطيّار والمسافر يجدّفان في مدارس سمكات القِنبر العابرة؛ مال منقوع وممّلح في أكياس من القماش، تلوح أطرافها بشرائطهاالمعدنية التي صنعت لتحكم عليه إلى الأبد. يهبطان هناك، أزهار صفر تأكل خنافس الماء والبيض الطافي إلى بعيد عن متناول الزعانف الضاربة؛ مع أطفال أخطأوا في حقّ الآباء الذين تخيّروهم؛ وألواح رخام «الكارارا» المنتزعة من مبان غير عصرية. زجاجات هناك أيضاً، صنعت من زجاج بديع يمكنه أن يضارع النجوم التي لا أتمكّن من رؤيتها فوقي لأن سماء المدينة قد حجبتها. رغم ذلك، لو أنها أرادت، فبإمكانها أن تريني نجوماً قطعتها من أثواب بنات راقصات بخيوطها اللامعة، أو تنعكس في عيون عشّاق ماكرين وسعداء تحت ضغط سماء عميقة، يمكن جسّها.

لكن هذا ليس كل ما يمكن أن تؤدّيه سماء المدينة، فبإمكانها أن تروح في الأرجوان وتظلّ بقلبها البرتقالي الذي يلمّع أثواب الناس في الشوارع وكأنها أزياء صالة رقص. رأيت النساء يقلّبن قمصانهن في نشأ مغليّ أو يخطن ألبستهن بينما تفرد فتاة شعر أختها عند الموقد، وبأثناء ذلك تجرف السماء -بديعة للغاية- نوافذهن. مثلها نوافذ العشّاق، بالهم خالٍ، وخلسة يحكون لبعضهم البعض عن أشيائهم.

بعد عشرين عاماً من رقصة القطار لـ «جو» و«فيولت» في الطريق إلى المدينة، كانا لا يزالان زوجين، لكنها لايحادثان بعضهما إلا نادراً، دع جانباً الضحك سوياً أو التصرّف وكأن الأرض صالة رقص. اقتنع أنه بمفرده يتذكّر الأيام الخوالي، ويرغب بعودتها، واعياً بما هي تشبهه لابما كان يحسّه هو، لقد زوّج نفسه في مكان آخر. استأجر غرفة من جارة يعرف بالضبط ثمن كتمان سرّها. ست ساعات أسبوعياً هي ما كانً يؤجّره. وقت أن تنتقل سماء المدينة من الأزرق الثلجي الشاحب إلى الأرجوان بقلب من ذهب. والوقت كافٍ، حتى تغطس الشمس، كي يحكي لحبه الجديد أشياء لم يحكها قطّ لزوجته.

أشياء مهمة مثل كم تفوح رائحة الهيبسكوس (★) على ضفة نهير في الغسق؛ وكم يرى ركبتيه بمشقة وهما تبرزان من فتحتي بنطلونه في ذلك النور، وأن ما يدعوه للتفكير إمكان أن يرى يدها حتى لو قرّرت أن تختبىء بين الشجيرات، ويتأكد، لمرة واحدة وإلى الأبد، أنها في

(★) الهيبسكوس: نبات من الفصيلة الخبازية، يستخدم للزينة. (المترجم)

الواقع كانت أُمه(★)؟ ورغم أن تصديق ذلك أخجله، فقد جعله هذا أسعد ولد في «فرجينيا» .و أنها تقرّر، فذلك حق، أن تريه ذلك، وأن تنصت ولمرّة إلى ماكان يقوله لها ثم تلبيه، تقول نعم بطريقة ما، حتى لو كانت لا، فلابد أنه يفهم. وكيف كان يعزم على اغتنام تلك الفرصة من كونه خزياناً وممتناً بذات الوقت، لأن التصديق بذلك يعني كليهما. يدها، أصابعها المقحمة خلال الأزهار، تلمسه؛ ربما تدعه يلمسها. ولن يغتصب ذلك، وينتزعها ويجرها للخارج من وراء الشجيرات. ربما أن ذلك ما تخافه، لكنه لن يفعله، وقد أخبرها به. مجرد إشارة، قال فقط أريني يدك، قال، ولسوف أعرف، ألا تعرفين بأنني لابد أن أعرف؟ لم يكن ضرورياً حينها أن تقول أي شيء، بل إنه لا أحد قد سمعها ذات يوم تقول أي شيء؛ ليس من الضروري وجود الكلمات؛ إنه لم يحتج لكلمات أو حتى يريدها لأنه عرف بأن الكلمات يمكنها أن تكذب، يمكنها أن تحمّي دمك وتختفي. ماكان ضرورياً لها أن تقول كلمة «أُمّ». ولاشيء كذلك. كل ماعليها أن تفعله هو أن تهبه الإشارة، تدفع يدها من خلال الأوراق، الأوراق البيض، سيكون كافياً أن تقول بأنها عرفته لأنه الوحيد، الابن الذي كان لها منذ أربعة عشر عاماً مضت، وهربت منه، ولكن ليس إلى بعيد تماماً، مجرد أنها بعيدة لدرجة تكفي أن تضايق أي واحد لأنها لم ترحل فعلاً، وقريبة لدرجة تكفي أن تخيف أي واحد لأنها تزحف حول المكان وتختفي وتتلمّس وتضحك كفتاة صغيرة منبطحة وتضحك ما بين القصب.

ربما فعلت ذلك. ربما أن أصابعها تحركت على مثل ذلك، خلل الشجيرة، لا ما بين الغصينات، لكنه النور كان شحيحاً فلم يتمكن أن يرى ركبتيه بارزتين من فتحتي بنطلونه، ربما افتقد الأشارة التي كانت تأكيداً للعار والمتعة، على الأقلّ، وليس أنه كان راحلاً في باطن الخواء منذ ذاك الحين، حتى خريف ١٩٢٥ حين كان له شخص يحكي معه. شخص يدعى «دوركا» بكعبين يهزهزان عظام خديها في السير، والتي عرفت أفضل ممن كانوا في سنه ما الذي كان يعنيه باطن الخواء. شغلته له، مثلما هو شغله لها، نظراً للخواء بها أيضاً.

ربما كان خواؤها أسوأ منذ أن عرفت أمها، صفعتها على وجهها من وقاحة ردّها الذي لم تتمكّن من تذكّره. لكنها تذكرته، وحكت له عنه، وعن الصفعة عبر وجهها، عن الدويّ والوخز الذي كان بها وكم أنها التهبت. كم التهبت، حكت له. عن كل الصفعات التي تلقّتها، تلك الصفعة كانت الوحيدة التي تذكّرتها على نحو أفضل لأنها كانت الأخيرة. كانت تنحني على نافذة منزل أقرب صديقاتها، فالصرخات لم تكن شيئاً مما تحلم به. كانت الصرخات خارج رأسها، عبر الشارع. كأنها عدو. كل امرىء يعدو. طلباً لماء؟ دلاء؟ عربة الإطفاء الملمّعة المتزنة في مكان آخر من البلدة؟ لم يكن هناك مدخل للمنزل حيث عرائسها التي من مشابك الغسيل ترقد في صفّ. في صندوق سيجار. لكنها حاولت بأي طريقة الوصول إليها، عارية القدمين في الفستان الذي كانت تنام فيه، جرت لتلحق بها، وصرخت لأمها أن صندوق العرائس، صندوق العرائس هناك أعلى المرآة، ألا يمكن الوصول إليها؟ ماما؟

(★) الكلام هنا عن ذكرى امرأة وحشية تدعى «وايلد» يأتي ذكرها لاحقاً.(المترجم)

بكت مرة أخرى و«چو» يحضنها بشدّة. تعبر السماء النوافذ، ولو رأياها، فإن شمع الكريون يلوّن حبهما. وبعد صمت لطيف، يرفع شنطة عينته –كليوباترا– عن الكرسي ويمزّقها قبل فتحها، يعرض بالغطاء حتى لاتتمكّن من رؤية مايخفيه تحته من برطمانات وعلب العطور الفاغمة، الهدية التي جلبها إليها. كانت حلقة مفتاح صغيرة ربطت نهارهما في ذات الوقت الذي غيّرت فيه سماء المدينة قلبها البرتقالي إلى الأسود لتخفي نجومها أطول وقت ممكن قبل أن تطلقها واحدة بعد واحدةبعد واحدة، كالهبات.

في ذلك الوقت كانت تضغط على جلده، تنظّف أظافره وتطليها بطلاء شفاف. بكت قليلاً عند الكلام عن«إيست سانت لويس»، لكنها ابتهجت بما فعلته في أظافر أصابعه. كانت تودّ معرفة أن الأيدي التي ترفعها وتديرها تحت البطانية قد طلتها بنفسها. ملّست عليها بـ «كريم» من برطمان كان في شنطة عيّنته. شبّت على عجيزتها، آخذة وجهه في يديها، وقبّلت جفني عينيه الملونتين. واحدة لي، تقول، وواحدة لك. واحدة لي وواحدة لك. أعطني هذا، أعطك ذاك. أعطني هذا، أعطِ هذا.

يحاولان ألا يطلع صوتهما بالصراخ، لكن لايقدران. أحياناً ماكان يُغطي فمها براحة يده حتى لايسمعها أي عابر بالصالة، ولو استطاع، لو فكّر في ذلك بالوقت المناسب، لكان عضّ المخدّة حتى يوقف من هديره. لو يقدر. أحياناً كان يظن بأنه أوقفه، لأن زاوية المخدّة لاتزال في فمه تماماً، حين يسمع نفسه يتنفّس في شهيق وزفير، شهيق وزفير، بنهاية ذيل صرخة أمكنها أن تجيء فحسب من حلقه المرهق.

تضحك على ذلك، تضحك وتضحك قبل أن تُباعد برجليها على ظهره وتدكّه بقبضاتها. وحين تصبر منهكةً وهو نصف نائم، تتكىء عليه، شفتاها وراء أذنه، وتدبّر خططاً. تهمس، المكسيك. أريدك أن تأخذني إلى المكسيك. يتذمّر، بصوتٍ عال. لا، لا، تقولُ هذا صحيح. كيف عرفت؟ يطالبها. سمعت الناس يقولون، يقول الناسّ بأن الموائد هناك مستديرةيغطّيها قماشَ أبيض وأباچورات ياحبيبي الصغير. وهي لاتفتح إلا قبل موعد نومك، يقول مبتسماً. هذا وقت نومي، تقول، ناس المكسيك ينامون بالنهار، خذني. فهم هناك حتى بوَقت الكنيسة صباح الأحد، ولا بيض يمكنهم الدخول، والأولاد الذين يلعبون يقومون أحياناً ليرقصوا معك. أه أوه، يقول هو. ما أه أوه هذه، تسأله. أنا فقط أودّ أن أرقص معكَ وبعدها أروح لأجلس على المائدة المستديرة باللمبة فوقها. يمكنِ للناس أن يرونا، يقول، إن تلكم اللمبات الصغار التي تتكلمين عنها كبيرة لدرجة أنها توضّح من هناك. أنت دائماً تقول هذا، تقهقه هي، مثل آخر مرة حين لم يكن أحد ينظر علينا، قد كانوا كلهم يقضون وقتاً طيباً، والمكسيك أفضل مكان حيث لا أحد يريد أن يرى ما يدور تحت مفرش المائدة، أليس كذلك؟ صحيح؟ ولو لم ترد الرقص، فيمكننا الجلوس هناك فقط إلى المائدة، ناظرين بثبات على نور اللمبة، ونصغي إلى الموسيقى، ونراقب الخلق. لا أحد يريد أن يرى ما يدور تحت مفرش المائدة.«چو»، «چو»،

خذني، قل بأنك ستأخذني. كيف ستخرجين من البيت؟ يسألها. سوف أتحسّب للأمر، وتدندن، كما على الدوام، نعم قلها فقط. حسناً، يقول، حسناً، لا نفع من قطف تفاحة لو لم تكن تريد أن تعرف ما طعمها. كيف كان طعمها، يا «چو»؟ تسأله. فيفتح عينيه.

الباب مسكوك، ولن تعود «ملفون» من مكاتب الشارع ٤٠ حتى ما بعد منتصف الليل، فتستثيرهما فكرة: ماذا لو يتمكنان من قضاء الليل سوياً. لو تقوم «أليس منفريد» أو «ڤيولت» برحلة، نفرض، فإنه سيؤجّل الهدية التي سوف يهبها إياها إلى ما بعد ذروة الظلام بالليل، يشمّان رائحة الأكسيدول والشمع المنصهر، لقد عادت «ملفون» من مكاتبها. وعليه، كانا خطّطا لرحلة المكسيك. تمسّ «دوركا» الباب خارجة وتنزل السلالم قبل أن تنهي «ڤيولت» حلاقة رؤوس المساء وترجع في حوالي السابعة لتجد «چو» قد غيّر فعلاً الماء للطيور وغطّى أقفاصها. في تلك الليالي لم يكن «چو» يهتم بأن يرقد يقظاناً إلى جنب زوجته الصامتة لأن أفكاره كانت مع الإله الطيّب الفتيّ البنت الصغيرة التي تنعم على حياته كلها وتجعله يتمنى لو لم يولد قطّ.

كانت «ملفون» تعيش بمفردها مع الصحف وحكايا الناس الآخرين المطبوعة في كتب صغيرة. عندها لم تكن تجعل مكتبها يرق، فقد كانت تزاوج الحكايا المطبوعة وملاحظاتها الذكيّة للناس حولها. كانت هذه المرأة تتجنّب ركوب الترولّلي وقت ازدحام المرور الساعة السادسة مساء، تتفحّص نفايات البيض ذوى النفوذ، ناظرة على صور النسوة وأطفالهن فوق المقاعد. تتسمّع لحوارات الأروقة، وضحكات الحمام التي تثقب المكان كأنها أبخرة زجاجة نشادرها. كانت تتفحّص زجاجاتهم وتعيد وضع القنينات المندسة تحت الوسائد وخلف الكتب التي طبعت كلماتها على عمودين. عرفت من يهيم بالعدل جنب هيامه بملابس النساء التحتية، من يحبّ زوجته ومن يرافق واحدة. من حارب جنب ولده بينما لم يكن يكلّم والده. لأنهم لم يكونوا يغطّون أفواههم عند كلامهم في التليفون حتى يطلبوا منها أن تمشي أثناء ما كانت تهبط السلم مبطئة إلى الصالة، وإلى مكاتبهم، ولا كانوا يخفضون أصواتهم لتصير همسات سرية عند تأخّرهم في العمل يؤدّون ماكانوا يسمونه العمل «الحقيقي».

لكن «ملفون» لم تكن تهتم بذلك؛ كانت تلحظ ذلك ببساطة. وكان اهتمامها منصباً فحسب على جيرانها.

قبل أن يغيّر «سويتنس» اسمه من «وليم ينجر» إلى «ليتل سيزر»، كان قد نهب صندوق بريد الشارع ١٣٠. نظرت «ملفون» على بطاقات البريد، وحوالات النقد، وغيرها، ولم تتخيل كل ذلك. لقد ربّته منذ أن كان في السابعة، ولم يكن أي واحد متمنّياً أن يصير ابن أخيها هذا حسن السير والسلوك. في النهار، عموماً. لكن بعض الأشياء كان يدخلها في أثناء فترة عمل

«ملفون» بمكتبها من السادسة وحتى الثانية والنصف ظهراً. كان يمكن ألا تعرف؛ لكن آخرين أخبروها بعد رحليه إلى «شيكاغو»، أو أنها كانت «سان دييجو»، أو ربما مدينة تنتهي بحرف الواو.

أحد الأشياء التي عرفتها فسّرت أين راحت شنطة بقالتها – الكيس المملّح ذو العشرين رطلاً الذي كانت تحمله إلى السوق، المغسول والمطوي بشكل لطيف في شبكتها. حين وجدته، وراء الدفاية في حجرة «سويتنس»، كان مليئاً بخطابات غير مرسلة. عندما تفحّصتها، كان دافعها الأول محاولة وضع الأختام وإعادة طيّ محتوياتها وردّها بسرعة إلى صندوق بريد. عموماً، انتهت بقراءة كل الخطابات حتى تلكم اللاتي لم يمزّقها «سويتنس» بفتحها وهو متضايق. لولا لذة التعرّف على التوقيعات، لكانت القراءة بدت فاترة وغير شيّقة.

عزيزتي«هيلين مور» : أسئلة عن صحة«هيلين» ؛ ردود عن صحة المرسل. الطقس. مخادعات. وعود. مع حبي، بعدها اسم الموقّع. ورغم أن«هيلين» قد تسلّمت خطابات عدة – لها أقارب وأصحاب كثيرون جداً حتى أنها لم تتذكّرهم جميعاً– فقد كانوا يعرّفون أنفسهم أو أنفسهن بإطالة، وبحروف مائلة، أختك المخلصة، السيدة كذا كذا؛ أو أبوك المحبّ في نيويورك، «ل. هندرسون ودوارد».

بعض من هؤلاء تطّلب من «ملفون» أن تفعل له شيئاً. طالبة بمدرسة عالية أرسلت طلب التحاق بسيط إلى مدرسة حقوق بالمراسلة مع المطلوب، لكنه يفتقد الآن إيصالاً بدولار. لم يكن مع «ملفون» دولاراً مدّخراً لرسم التحاق «ليلي سبنسر»، بل إنها قلقت بالفعل من كون الفتاة لن تصير محامية ولربما تنتهي إلى وظيفة بمريلة. ولذا أضافت رسالة بذات يدها، قائلة «أنا لا أملك دولاراً حقيقةً هذه اللحظة، لكن بمجرد أن أعرف بتسلّمكم هذا الطلب وموافقتكم لابد أن آتي، وأجلبه عندئذ لو أخبرتموني بأني لم أضعه وتحتاجونه فعلاً».

جاءت لحظة حزن حين قرأت الخطاب المرسل إلى «بناما» من«ونسام كلارك» تشتكي أوه، فكّرت «ملفون»، هل تحلم بشجرات كبار في«بربادوس» ؟ أكبر من اللاتي في الحديقة العامة؟ لابد أن ذلك سيكون دغلاً.

قالت «ونسام» بأن «ترحّم على صديقك العزيز الذي مات في الحريق الكبير وصلّ من أجله وأجلك، كيف أتى كل هؤلاء الخلق الملّونين ليموتوا حيث فعل البيض هراءً كثيرا. أخمّن بأنك تظنّ هي ليست مسألة الكبار. أرسل أي حاجة أخرى تحصل عليها إلى«ويندهام رود» حيث أنني أنا والصغار سيكون لنا مظروفان للدفع من الآن.«سوني» يقول بأن لديه حذاء لامعا من مال يخصه هو ولذا لايريدك أن تقلق سوى بالبقاء ما بين الأحياء. زوجتك العاشقة «ونسام كلارك».

لم تكن «ملڤون» تعرف لا«ونسام» ولا أي آخرين في ثلاثمائة مسكن بطريق«إدچيكومب» ، رغم أن أحد هذه المساكن يمتلىء بهنود الغرب الأثرياء الذين يحتفظون بالكثير لأنفسهم، وتهلّ من نوافذهم رائحة التوابل التي لاتتعرف أياً منها. المشكلة الآن تبليغ رسالة«ونسام» عن رحيلها، رغم خطابي الدفع المرسلين من قبل، إلى «بناما» قبل أن يذهب أي مال آخر إلى«إدچيكومب»، حيث يمكن للعمة أن تأخذه، ومن يدري، لو أنها كانت كارهة كما أخبرت بذلك «ونسام» (تكبّ لبن الصغار خلسةً وتجلد ذا الأعوام الخمسة لإساءته استعمال مكواة الحديد الثقيلة الساخنة) فربما تحتفظ بالمال لنفسها. أعادت «ملڤون» إغلاق الخطاب بحذرٍ وفكّرت في إضافة طابع بريد من ذوي البنس ليساعد في الوصول إلى«بناما» أسرع.

كان هناك خطاب آخر عرقت منه وتساءلت عن كُنه المرأة التي تكتب مثل هذي الكلمات، تركت جانباً ما كانت تفعله ووعدها بالمزيد. كانت الكاتبة تحيا في نفس المسكن مع حبيبها. لم تعرف «ملڤون» ما الذي يجعلها تتلف طابعاً بثلاثة بنسات فضلاً عن لذة معرفة أن الحكومة عليها توصيل هذا الهياج من أجل خاطرها. كانت «مَلڤون» ترشح عرقاً وتتنفّس بخفّة، حين أجبرت نفسها على قراءة الخطاب مرات عديدة. كانت المسألة إما أن ترسله إلى السيد«م. ساج» (ذلك ماكان يدعى اسمه على المظروف؛ وفي ورق الكتابة يدعى«دادي») الذي تلقّى خطاباً من المخلصة لك على الدوام «هوت ستيم» . كان قد مرّ شهر على كتابته، ربما«ستيم» تتعجّب من أنها قد ذهبت لبعيد فيه. أو أن«دادي ساج» و«ستيم» قد أتما فعل المزيد من تلكم الأشياء الوضيعة الدنيئة خلال هذه الفترة؟ وفي النهاية قررت أن ترسله مع ورقة من لدنّها تتعلق – بالاحتراس الواجب، ولفتت انتباه «دادي» إلى قصاصة من مجلة (أوبورتيونتي) . وبينما كانت تجهّز النصيحة دونما توقيع اسم، طرق «چوتريس» بابها.

«كيف حالك، ملڤون؟»

«بخير. وأنت؟»

«ممكن أدخل؟ لديّ عرْض لك» . وابتسم بسمته الريفية البسيطة.

«ليس عندي ولا نيكل، ياچو» .

«لا» رفع يده وسار أمامها نحو غرفة المعيشة. «أنا لا أبيع. ترين؟ ولا حتى معي شنطتي» .

«أوه، حسناً، إذن» . تبعته«ملڤون» حتى الكنبة.«اقعد» .

«لكن لو كان» قال«مارأيك؟ لو كان النيكل معك، أقصد» .

«تلك الصابونة الأرجوانية نوع لطيف» .

«التي أخذتها!»

«لقد ذابت في ومضة عين» ، قالت«ملڤون» .

«الصابونة الممتازة ممتازة. ليس مقصوداً أن تدوم» .

«لا أقصد» .

«لدي اثنتان باقيتان. سأجلبهما لك هدية» .

«ما الذي يحدث؟ أنت لاتبيع بل تَهب مجاناً فلأي سبب؟» نظرت«ملڤون» إلى المنبه

على رفّ المدفأة، تتخيّل كم من الوقت مرّ عليها وهي تكلّم«چو»، لأن عليها أن ترسل خطاباتها قبل الخروج للعمل.

«يمكن أن تقولي خدمة».

«أو ربما لا أقول؟»

«ستفعلينها. هي خدمة لي، ولكن بمبلغ بسيط إليك». ضحكت «ملڤون». «هاتها، ياچو. وأظن هو شيء لاتعلم به ڤيولت، هه؟»

«فعلاً. هي. هذا هو. إن ڤيو. لا أودّ إزعاجها بهذا، تعرفين؟»

«لا. أخبرني».

«حسناً. أودّ تأجير مكانك».

«ماذا؟»

«مجرد ظهيرة أو اثنتين، بين الحين والآخر. حين تكونين في العمل. لكني سأدفع الشهر كاملاً».

«ما الذي تقصده، «چو»؟ أنت تعرف أني أشتغل بالليل». ربما كان هذا الاسم خدعة والعنوان خدعة، وأن «چو» هو«دادي» الذي يتسلّم البريد من مكانٍ آخر ويعلم «ستيم» بأنه اسمه

«لن يكون هذا كل يوم، ياملڤون».

«لن يكون هذا في أي يوم. لا أعتقد بأني راغبة فيما تقترحه».

«بدولارين وكل شهر».

«أتظنّ أني في حاجة لمالك أو صابونتك الذائبة؟»

«لا، لا، ياملڤون. انظري. دعيني أوضّح. إن نسوة كثيرات مثلك يتفهّمن مشاكل الرجال مع زوجاتهم».

«مانوع المشكل؟»

«حسناً. ڤيولت. أنت تعرفين كم هي غريبة منذ أن تغيرت».

«إن ڤيولت كانت غريبة من قبل ذلك. غريبة من ١٩٢٠ على ما أذكر».

«ييه، حسناً. لكن الآن—»

«چو، أنتَ تريد أن تؤجّر حجرة سويتنس لتُحضر امرأة أخرى هنا بينما أكون في الخارج لمجرد أن ڤيولت لم يعد بها نفع لديك. مانوع المرأة التي تظنني أكونها؟ حسناً. ليس هناك ودّ مفقود بيني وبين ڤيولت، لكني سألزم جانبها، لاجانبك، أيها الكلب العجوز».

«اسمعي هنا، ياملڤون—»

«هي من؟»

«لا أحد. أعني، لا أعرف بعد. فكّرت فقط—»

«لو صادف حظك إحدى الحمقاوات لابدّ أن تجد مكاناً؟ ذلك مافكّرتَ فيه؟»

«إلى حد ما. وربما لا أستخدمه قط. لكني أريده في حالة ما إن. سأدفع المبلغ لو استخدمته أو لم».

«إن خمسين سنتاً في منازل معينة يمكنها أن تؤجّر المرأة، والأرضية، والحوائط، والسرير.أما دولاران فيجعلانك تجلب امرأة بمحل بيع دراجات لو تريد».

«آو، لا، ياملفون. لا. تفهمينني خطأ تماماً. لا أبغي أي واحدة من الشارع. ياإلهي».

«لا؟ من تفكّر فيها غير مومس تخرج متسكّعة معك؟»

«ملفون، آمل فقط في سيدة رفيقة. شخص ما أتكلّم معه».

«من وراء ظهر «ڤيولت»؟ لماذا سألتني أنا، كامرأة، طلباً لفراشٍ ساخن. ربما كان الأوفق أن تسأل رجلاً بذيئاً مثلك من أجل هذا».

«لقد فكّرت في هذا، لكنني لا أعرف رجلاً يعيش بمفرده، كما أن هذا ليس بذاءة. تعالي، عزيزتي. هل تدفعينني للشارع. إن ما أطلبه أفضل، أليس كذلك؟ بين الحين والآخر سآتي بسيدة محترمة».

«محترمة؟»

«نعم صحيح، محترمة. ربما تكون وحيدة أيضاً، أو لها أطفال، أو—».

«أو زوج بشاكوش».

«لا أحد هكذا».

«ولو كشفت ذلك ڤيولت، ماذا يفترض بأن أقول؟»

«لن تكتشف».

«افرض أني حكيت لها».

«لن تفعلي. لماذا تفعلين هذا؟ أنا لا أزال آخذ حذري منها. لا أحد يريد الأذية. وأنت تحصّلين ربعي دولار أيضاً من شخصٍ يراعي مكانك أثناءِ خروجك، وفي حالة عودة سويتنس أو أي شخص يأتي هنا باحثاً عنه، فلا تبالي بما سأخترعه، عذرك معك كامرأة».

«ڤيولت لابد تقتلني».

«لاشيء تفعلينه من أجل ذلك. لن تعرفي متى آتي ولن تري أي شيء. كل شيء كالمعتاد بعد خروجك، عدا أن هناك شيئاً صغيراً تريدينه ثابتاً مني أؤدّيه. لن تري هناك إلا بعض الفكّة على المنضدة، وهذا يعني أني خرجت لسبب لاتعرفين عنه أي شيء، ترين؟»

«أه هوه».

«جربيني، ياملفون. أسبوع واحد. لا، اثنان. لو غيّرت رأيك في أي وقت، أي وقت، اتركي فقط فلوسي على المنضدة، وسأعلم بأنك تريدينني أن أكفّ، وتأكّدي بأنك ستجدين مفتاح بابك لدى العودة موضوعاً في مكانه».

«أه هوه».

«هو منزلك. تقولين لي ماتريدين أن أفعله، ما الذي تريدينه ثابتاً، وتقولين لي ماالذي لا تحبّينه. لكن صدّقيني، عزيزتي، لن تعرفي متى أو ما أني جئت أو رحت. إلا، ربما، أن حنفيتك لن تنقّط بعد ذلك».

«أه هوه».

«شيء وحيد تعرفينه أني كل سبت، يبدأ من الآن، تحصّلين رُبعي دولار موضوعين بوعاء السكّر عندك».

«ربما يكون سعراً عالياً لأجل محادثة قليلة».

«ستندهشين مما تدّخرينه لو أعجبتكِ، فقط لو لم تشربي، أو تدخّني، أو تقامري، أو تزكّي».

«ربما هو واجبٌ عليك».

«لا أرغب في أي شيء خسيس، ولستُ أودّ التردّد على الملاهي أو نحو ذلك. أريد فقط صُحبة نسائية لطيفة».

«تبدو واثقاً من أنك ستُلاقي هذا».

ابتسم«چو» .«لو لم أجده، لاضيّر. لاضيْر على الإطلاق».

«لا رسائل».

«ماذا؟»

«لاأوراق صغيرة للتوصيل. لاخطابات. لا أُسلّم أي رسائل».

«قطعاً لا. لاأُريد مرسالاً. نتكلّم هنا أو لاكلام على الإطلاق».

«افرض قد نشأ شيء،وتريد أنت أو هي أن توقفاه؟»

«لا تقلقي من شأن ذلك».

«افرض أنها مرضت ولم تتمكّن من الحضور، وتحتاج أن تُعلمكَ».

«أنتظر، ثم أرحل».

«افرض أن أحد الأولاد مرض ولم يعثر أي واحد على الماما بسبب خُلوتها معك في مكان ما؟»

«من قال بأن لها أولاداً؟»

«ألن تعاشر أي امرأة، ياچو، لو لها أولاد صغار؟»

«أبداً».

«أهذا طلبٌ مبالَغ فيه مني».

«لاعليك أن تفكّري في شيء من هذا. لن يكون لك دَخلٌ فيه. هل رأيتني مرةً أعبث مع واحدة؟ لقد عشت في هذا المبنى مدةً أطول منك. هل سَمعت مرةً كلمةً ضدّي من أي امرأة؟ فأنا أبيع مستحضرات التجميل في كل البلدة، هل سمعت مَرةً حكايةً عني أُطارد امرأة؟ لا. لم تسمعي بذلك قط، لأن ذلك لم يحدث أبداً. أحاول الآنَ أن أُخفّف عن حياتي قليلاً بسيدة طيبة، كأي رجل مهذّب، وهذا كل شيء. أخبريني أي خطأ في هذا؟»

«فيولت هي الخطأ في هذا».

«إن ڤيولت تُعنى ببغائها أكثر مني. باقي الوقت، تطبخ لحم خنزير لايمكن أن آكله، أو تُمشّط شعراً لا أتحمّل رائحته. ربما تلك هي الطريقة التي يسير عليها من تزوجوا منذ زمان مثلنا. لكن المهدىء. لا أستطيع أخذ مهدىء. هي لا تتكلّم إلا بمشقّة، وغير مسموح لي الاقتراب منها. أي رجل آخر كان يدور على حاله، يخطو خارج البيت كل ليلة، تعرفين ذلك. ولست كذلك. ليس أنا».

لم يكن طبعاً كذلك، لكنه فعلها على أي حال. تسلّل، وتآمر، وخطا خارج البيت كل ليلة طلبتها الفتاة. ذهبا إلى المكسيك، ملهى «سوك» وملاه تتغير أسماؤها كل أسبوع – ولم يكن بمفرده. أصبح من رجال الخميس، ورجال الخميس شبعانون. يمكن أن أحكي عن نظرتهم حباً محرّماً يوشك أن يكون، أو بالفعل كائن، شبعانون. إن نهايات الأسبوع والأيام الأخرى هي مجرد احتمالات، لكن الخميس هو اليوم الذي يعوّل عليه. اعتدت على الظنّ بذلك، لأن العمال الأهليين يأخذون الخميس إجازة، ويمكنهم الرقاد بالفراش للصباح كما هو معلوم عن نهايات الأسبوع، لأنهم إما أن يناموا في المنازل التي يخدمون فيها، أو ينهضوا مبكّرين للوصول، فليس من وقت لديهم للإفطار أو أي نوع من اللعب. لكنني لاحظت صحة ذلك أيضاً على الرجال المتزوجين بغير الخادمات أو عاملات اليومية، زوجاتهم نادلات بار أو طباخات مطاعم بإجازة أحد واثنين، أو مدرسات، أو مطربات مقاه، أو كاتبات آلة في مكاتب، أو نسوة أكشاك بالسوق، كلهم يتطلّعون لإجازة السبت. إن المدينة تراعي وترتّب نفسها لنهاية الأسبوع: اليوم السابق ليوم قبض الأجر، واليوم التالي للقبض، نشاط ما قبل الراحة، المحلّ مغلَق وردهة المدرسة هادئة؛ قناطر أعمدة البنوك مقفلة، والمكاتب مسكوكة في العتمة.

إذن لماذا يبدو على الرجال يوم الخميس بأنهم شبعانون؟ ربما كان ذلك إيقاع الأسبوع المصطنع – ربما شيء هناك زائف بخصوص دورة الأيام السبعة لايبدي الإنسان اهتماماً إليه، الثلاثيات مفضّلة، أو الثنائيات، أو الرباعيات، أو أي شيء إلا دورة السبعة التي ينبغي تحطيمها في الأجساد البشرية، وبعدها استراحة الخميس. لاتقاوم. التوقّعات غير المكبوحة مع الحاجات اللدنة لنهاية الأسبوع، تصبح باطلة يوم الخميس. يتطلّع الناس إلى نهايات الأسبوع لأجل الارتباطات، المراجعات، والانفصالات، رغم أن كثيراً من تلكم الأنشطة يصاحبها رضوض وربما بقعة دم، لأن الهياج يدور بأعلاه يوم الجمعة أو السبت.

ولو لم يكن الشبع صافياً وعميقاً، لأجل التوازن في اللذة والراحة، فلا يمكن للخميس أن ينهزم – كماهو واضح من تعبير القدرة على وجوه الرجال وهرولتهم الغازية في الشارع. يبدو أنهم ينجزون نوعاً من الاكتمال في ذلك اليوم يجعلهم صامدين على أقدامهم بدرجة كافية، لكي يبدوا ماجدين حتى لو لم يكونوا هكذا. يطلبون منتصف الرصيف؛ ويصفّرون بهدوء في أبواب غير مضاءة.

لايدوم ذلك طبعاً، وفيما بعد أربع وعشرين ساعة يرجعون خائفين ويستعيدون لأنفسهم أي عجز في المتناول. ولذا فإن نهايات الأسبوع، مقدّر لها أن تخيب، فهي حادة النغمة، ونكدة، ومرشوشة بالرضوض ونقط الدم. الأشياء المؤسفة، التعليقات الجلفة والشرسة، الكلمات التي تصير مراجل نشطة في القلب - لاشيء من ذلك يحدث يوم الخميس. وأنا أفترض بأن الرجل الذي نسميه بها سيكره هذا، ولكن الحقيقة، أن نهاره يوم عشق في المدينة مع صحبة رجال شبعانين. يجعلون النساء يتبسمن. وتستعاد الألحان المهموسة ما بين الأسنان الكاملة، تلتقط فيما بعد وتكرّر عند مواقد المطبخ. أمام المرأة، قرب الباب، واحدة منهن سوف تدير رأسها جانباً، وتتمايل، مفتونةً بخطٍّ خصرها وشكل عجيزتها.

عالياً، في ذلك الجزء من المدينة هناك -والذي أتوا من أجله- تكون النغمة الصحيحة المهموسة في مدخل، أو الصاعدة من دورات وأخاديد اسطوانة، التي يمكنها أن تغيّر الطقس. من الجليد إلى الحرارة إلى الرطوبة.

❖ ❖ ❖

في مثل ذلك اليوم من يوليو، من تسع سنين مضت تقريباً، كان الرجال البديعون مبتردين. وقفت «أليس منفريد»، في طقس صيفيّ معتاد، رطب ومشرق، ثلاث ساعات بالطريق الخامس، تندهش للوجوه السود في البرد وتنصت للطبول التي تحكي مالاتقدر عليه النساء الماجدات والرجال الزاحفون. إن ما يمكن قوله كان مطبوعاً على راية رددت بضع وعود عن «إعلان الاستقلال»، وكانت الراية تلوّح على رأس حاملها. لكن ما كان مقصوداً عبّرت عنه الطبول. كان ذلك في يوليو ١٩١٧ حين كانت الوجوه البديعة هادئة وفي البرد؛ تتحرّك بطيئاً للمكان الطبول التي شيدت من أجلهم.

أثناء الزحف، بدا لـ «أليس» -بين ما انقضى النهار، والليل أيضاً- أنها لم تزل تقف هناك، يد الفتاة الصغيرة في يدها، تحدّق في كل وجه مبترد قد عبر. الطبول والوجوه المتجمدة تؤذيها، لكن الأذى كان أفضل من الخوف، وكانت«أليس» تخاف من زمان طويل - بداية الخوف كان في«ألينوا»، ثم«سبرنجفيلد»،، ف«مازاشوتس»، فالطريق الحادي عشر، فالطريق الثالث، فطريق«بارك». وأخيرا، بدأت تستشعر الأمان في أي مكان جنوب الشارع ١١٠، بينما كان الطريق الخامس بالنسبة لها هو أكثر شيء مخيف. ذلك، لأن الرجال البيض يميلون من سياراتهم بأوراق الدولار الملفوفة وهي تلوّح من راحات أيديهم. وهناك كان يلمسها بائعو المحلات، يلمسونها هي فقط كما لو أنها جزء من البضائع التي يلاطفون في ابتياعها؛ مثل ذلك النسيج المطلوب لو سمحت لك الإدارة في أن تجرّبي بلوزة (ولكن لا للقبّعة) في متجر. تلك كانت هي، امرأة في الخمسينَ، بموارد مستقلة، اسمها بدون لقب. حيث يقول النسوة المتحدثات بالانجليزية «لاتجلسي هناك، ياعزيزتي، فأنت لاتدرين ماذا يخبئن» أما اللواتي لايعرفن الانجليزية وليس بمقدورهن تملّك زوج من جوارب الحرير فيتزحزحن بعيداً عنها لوجلست قربهن في الترولّلي.

والآن، من منحنى إلى آخر، في الطريق الخامس، جاء مدّ من وجوه سوداء مُبتردة، صامتة، وعيونهم مطفأة، لأن ماكانوا يقصدون قوله ولا تسعفهم أنفسهم عليه تقوله الطبول نيابة عنهم، وما يرونه بعيونهم ومن خلال عيون الآخرين تكون قد وصفته الطبول إلى حدّ الكمال. لقد آذاها الأذى، لكن الخوف زال أخيراً. وكان الطريق الخامس عندئذ هو محطّ الأنظار، ولهذا

كانت تحمي منه الفتاة اليتيمة حديثاً والتي صارت تحت مسئوليتها. من حينها وهي تُخفي شَعر الفتاة بعقصات تنثني لأسفل، خشية أن يراه الرجال البيض منسالاً على كتفيها فيدفعون بأصابعهم المطوية على الدولار نحوها. علّمتها الصمم والعمى — كم يكون ذلك نافعاً وضرورياً لها في صحبة الرجال البيض المتحدثين بالإنجليزية وبغيرها، كما هو نافع في وجود أطفالهم. علّمتها أن تسير باحتذاءَ حوائط المباني، وتختفي في المداخل، وتدور إلى الأركان وقت ازدحام المرور— كيف تفعل أي شيء، وتنتقل لأي مكان حتى تتجنّب ولداً أبيض لايزيد عمره عن الحادية عشرة. أكثر من ذلك، أمكنها التأثير على ملبسها، وحينما كانت تكبر الفتاة، فلا بد من وضع بنود خاصة مدروسة في الحسبان. الأحذية ذات الكعب العالي بأشرطة رشيقة على بوزها، القبّعات المغوية المحبوكة على الرأس بحوافٍ أنيقة تؤطّر الوجه، الماكياج من أي نوع — كل ذلك كان مجرّماً في بيت «أليس منفريد». خصوصاً المعاطف المقوّرة لأسفل على الظهر وبدون أزرار، لكنها معشّقة، كروب حمّام أو فوطة حول البدن، تجبر النسوة اللواتي يرتدينها على الظهور وكأنهن يخطين خارجات من البانيو وجاهزات للسرير على الفور.

وبشكل خاص، كانت هذه المعاطف والنسوة اللواتي يرتدينها تُعجب«أليس» كثيراً. فقد كانت تخيط بطانات هذه المعاطف، حين تحسّ بالحنين للعمل، وكان عليها أن تتطلع مرتين من فوق كتفها عليها، وذلك عندما كانت تتجول في الطريق السابع بمحلات« جاي نورثسترز» و«سيتي بيلز»، فقد كانت بديعة. لكن «أليس» كانت تنطوي على هذه المتعة الحسود المضطربة، ولم تدع الفتاة ترى كيف أنها تعجبها ملابس تلك الجاهزات للسرير في الشارع. أخبرت أخوات «ميللر»، اللواتي كن يلاحظن الأطفال الصغار بأثناء النهار بديلاً عن أمهاتهم العاملات خارج المنازل، كيف كانت مشاعرها. لم يكنّ بحاجة لاقتناع، فقد كنّ يتطلعن إلى «يوم الحساب» لمدة اثنتي عشرة عاماً، ويتوقعن الراحة الجميلة في أي لحظة من الآن. كان لديهن قوائم لكل مطعم أو نادٍ يبيع الكحول، ولم يكنّ يبلغن عن مالكيها والزبائن إلى الشرطة حتى تكتشف مثل هذه الأشياء، ففي «راكيت سكود»، كان ذلك لايثير الضيق فحسب، بل يزيد عن المحتمل.

عندما كانت «أليس منفريد» تجلب الفتاة الصغيرة من عند «أخوات ميللر»، في تلك الأمسيات التي تلي أيام طلبية التطريز، كانت تجلس النسوة الثلاث في المطبخ للهمهمة والندب على أكواب «البوسطم» عند بدايات أغنية «الموت الوشيك» : (*)كانت ركبهن لامكاحلهن فقط هي التي تملأ المنظر، روج الشفة الأحمر كنار الجحيم؛ أعواد الكبريت المحترقة تحكُّ بأجفانهن؛ أظافر الأصابع المسحوبة بطلاء دمويّ — فلا تستطيعين تمييز العواهر عن الأمهات. والرجال، كما تعرفين، فإن ما يفكّرون به لا يقال لأي امرأة عابرة قربهم ولا يمكن تكراره أمام الأطفال. لايعرفون بالتأكيد، لأنهم يتشككون في أن الرقص شيء أكثر من كريه، حيث تصير الموسيقى أسوأ وأسوأ في كل آنٍ عابر ينتظره الربّ ليجعل ذاته معروفة للخلق. الأغاني التي كانوا معتادين

(*) أغنية زنجية مشهورة في تلك الفترة.(المترجم)

أن تهلّ على رؤوسهم وتملأ القلب تهبط، تهبط لأماكن تحت الوشاح والأحزمة المربوطة. أسفل وأسفل، حتى تصير الموسيقى كحقيقة مجرّدة، فعليك أن تغلقي نوافذك وتعاني من عرَق الصيف فقط، حين يسند الرجال أنفسهم بأكمام قمصانهم على حلق النوافذ، أو يتحلّقون أعالي الأسطح، وفي الأزقّة، وعلى المنحنيات، وفي شقق الأقارب، يعزفون الهراء الحقيقي، أغنية «الموت الوشيك». حينها تغني امرأة بوليد على كتفها والمقلاة في يدها«تعال على وسادتي حيث اعتاد حبيبي أن يكون... من زمان، من زمان، من زمان». ويمكنك سماع ذلك في أي مكان. حتى لو كنت تعيش، مثل «أليس منفريد» و«أخوات ميللر»، في «كليفتون بليس»، حيث كل مائة ياردة هناك شجرة مورقة بارتفاع ستين قدماً، شارع هادىء بما لا يقلّ عن خمس عربات يركنّ على الناصية، ولا يزال بإمكانك سماعها، وليس من بأس في أن يسمعها الأطفال الذين تحت رعايتهن — يكوّمون رؤوسهم ويرنّحون عجيزاتهم المضحكة كالصرر.

فكّرت «أليس» بأن الموسيقى الحقيقية (كان الوضع في «ألينوا» أسوأ منه عن هنا) لها فعلٌ ما في النسوة السود الصامتات ورجالهن الزاحفين على الطريق الخامس للإعلان عن غضبهم على الموتى المئتين في«إيست سانت لويس»، اثنان منهم كانا أختها وزوج أختها، الذين قتلوا في الشغب. ولذا أتلف كثير من البيض الصحف التي لم تطبع رقم القتلى. قال البعض بأن المشاغبين ماهم إلا محاربين ساخطين قاتلوا في كل الوحدات الملوّنة، وقد رفضوا خدمات«يو إم سي إيه»، (*)هناك وهنا، وعادوا للعنف مع البيض بحدّة أكثر مما كانوا عندما تطوّعوا، وعلى غير عادة المعارك التي حاربوا فيها بأوربا، كان هذا قتال أمريكيّ دونما رحمة وإجمالاً بدون شرف. وقال آخرون بأن البيض كانوا خائفين من موجة زنوج الجنوب التي تجتاح المدن، باحثين عن عمل وأماكن للمعيشة. ظن البعض ذلك، وقالوا كم كان متقناً تنظيم العمال، (كانوا مثل تفاح معطوب في براميل بدون غطاء، بدون المادة المسكرة، ولاحتى مراقبة رشيدة) لكن لا أحد منهم سيمكنه الخروج من البرميل. على أية حال، ظنت «أليس» بأنها عرفت الحقيقة أكثر من الآخرين. فزوج أختها لم يكن محارباً، وكان يعيش في «إيست سانت لويس» من قبل الحرب. ولم يكن محتاجاً لوظيفة رجل أبيض — فقد كان يملك صالة مراهنات. والحق يقال، لم يكن حتى بالشغب؛ ولاعنده سلاح، ولم يواجه أي واحد في الشارع. لقد اجتذب من ترام ودقّ حتى الموت، أما أخت«أليس» التي جاءتها الأنباء فقد عادت للبيت تحاول أن تنسى لون أحشائه، بعد ذلك أشعلوا في بيتها فاحترقت كالهشيم بشعلته. وكانت طفلتها الوحيدة، بنت صغيرة باسم «دوركا»، تنام عبر الطريق مع أعزّ صواحبها، ولم تسمع عربة الإطفاء وهي تلعلع بالرنين هادرة على الشارع، فهي لم تأت أصلاً حين استدعيت. لكنه لابد وأن رأت الشعل، ضروري، لأن الشارع بأجمعه كان يصرخ. لم تقل شيئاً. لم تفه بأي شيء عن ذلك. لقد مشت وراء جنازتين خلال خمسة أيام، ولم تقل كلمة.

(*) UMCA: جمعية الشبان المسيحيين. (المترجم)

فكّرت «أليس» ، لا. لم تكن الحرب ولا المحاربين الساخطين، لم تكن قطعان وقطعان من الملوّنين في أرتالٍ إلى الاستيداع وتمتلىء الشوارع بهم. لقد كانت الموسيقى. الموسيقى القذرة، التي تتخافت حين تغنيها النساء ويعزفها الرجال وكلاً قد رقص عليها، متقاربين بدون خزي أو متباعدين ووحشيين. كانت «أليس» مقتنعة وكذا «أخوات ميللر» ، أثناء ماكنّ ينفخن بأكواب «البوسطم» في المطبخ. وهذا يجعلكِ تؤدّين أشياء مشوّشة حمقاء. كان مجرد سماع هذه الموسيقى يعتبر خرقاً للقانون.

لم يكن أياً من ذلك في زحف الطريق الخامس. فقط الطبول والشرطة الملوّنون يوّزعون نشرات تفسيرية للبيض في قبعات قشّ والذين كانوا يودّون معرفة ماقد عرفته الوجوه المبتردة فعلاً. التقطت «أليس» نشرة كانت تطير إلى الرصيف، قرأت الكلمات وترنّحت بثقلها عند المنحنى. قرأت الكلمات ونظرت على «دوركا». نظرت على «دوركا» وقرأت الكلمات ثانية. ما قرأته بدا مجنوناً، وبعيداً عن المنطق: إن فجوة كبيرة قد اندفعت ما بين المطبوع والطفلة. نظرت ما بينهما تجاهد لإيجاد صلة، شيء لتغلق به المسافة ما بين الطفلة الصامتة المحدّقة والكلمات المجنونة المنزلقة. ثم على حين غرّة، وكحبل يلقى للنجاة، أقامت الطبول جسراً على المسافة، جمّعتهم سوياً، وأوجدت الصلة ما بينهم: «أليس» ، «دوركا» ، أختها وزوج أختها، شرطة الملوّنين والوجوه السود المبتردة، المراقبون على الرصيف والذين في أعلى النوافذ.

حملت «أليس» ذلك الحبل الموصل معها دواماً بعد ذلك اليوم في الطريق الخامس، ووجدت أنه أمان يوثق به ومشدود – في معظم الوقت. إلا عندما جلس الرجال على عتبات النوافذ يعزفون نفيرهم، والنسوة يتعجبن «من زمان» ، انقطع الحبل عندها، مزعجاً سكينتها، داعياً لها أن تراعي «لحمها» وشيئاً تحّرر حتى أنه بإمكانها أن تشمّ رائحة دمه، داعياً لها حياة الشيء تحت الوشاح وروج الشفة الحمراء. وقد عرفت من المواعظ وافتتاحيات الصحف أنها ليست موسيقى حقيقية – مجرد هراء الجماهير الملونة: تؤذي بالتأكيد، تربك بالطبع، لكنها لاحقيقية ولاجادة.

فوق ذلك، أقسمت «أليس منفريد» بأنها سمعت غضباً متراكباً في الموسيقى؛ شيئاً معادياً ينكر نفسه كإغواءٍ هادرٍ ومزدهر. لكن ماكرهته فيها هو جشعها، توقها للسحق، للشقّ طولاً؛ نوعاً من الجوع المهمَل لمعركة، أو دبوساً من ياقوت أحمر لكرافتة – أيّها ستؤديه. فهي تزيّف السعادة، وتزيف الترحيب، لكنها لاتجعلها تحسّ بالكرم، هذا الملهى الرخيص، منقوع براميل، منزل متقوض، موسيقى. جعلتها تضع يدها في جيب مريلتها لتحفظها من التهشيم خلال لوح الزجاج لأنها كانت تريد أن تخطف العالم في قبضتها لتعصر منه الحياة أداءً لأي شيء تفعله وتفعله وتفعله من أجلها ومن أجل أي شيء آخر قد عرفته أو سمعت به. أفضل لها أن تغلق النوافذ والمصاريع، وتعرق في حرّ الصيف بشقة «كليفتون بليس» الصامتة عن أن تغامر بنافذة محطمة أو عواء ربما لاتدري أين أو كيف توقفه.

لقد رأيتها، تعبر مقهىً أو نافذة بدون ستارة حينما جرَفتها عبارة أو أخرى –«اضربني لكن لاتهجرني»– وراقبتها وهي تمدّ يداً لحبل الوصل الآمن الملقى إليها منذ ثمانية أعوام مضت في الطريق الخامس، وقد كوّرت يدها الأخرى كقبضة في جيب معطفها. لست أدري كيف فعلت هذا – توازن نفسها بإيماءتين من يدين مختلفتين. لكنها لم تكن وحدها في المحاولة، ولم تكن وحدها في الخسران. كان من المستحيل الإبقاء على طبول الطريق الخامس منفصلة عن نغمات أطواق الأحزمة المهتزة من وقع البيانوات والمنسوجة من حاكي «الفكترولا».
مستحيل. بعض الليالي كانت رازحة، مامن سيارة تدور على مدى السمع؛ لاسكارى أو مواليد متقلقين يكون طلباً لأمهاتهم، وتفتح «أليس» أي نافذة تريدها فلا تسمع أي شيء على الإطلاق.

تتعجب من هذه الليلة الرازحة بطولها، يمكنها أن تعود للنوم، لكن بمجرد أن تُدير المخدة على جانبها الأشد ليونة، والأكثر رطوبة، فإن خطّ لحنٍ يكون في رأسها، وهي لاتدري من أين ينبع بذاته صاخباً ومنسلاً. «حين كنت صغيرة، وفي ريعاني، كان يمكن أن أجلب الثور من ذيله». كانت الكلمات طمّاعة، متهورة، سائبة وحانقة، لكن من الصعب طردها لأنها في العمق، تقبض على الانسيال كراحة يد، هي الطبول التي تضع الطريق الخامس في الاعتبار.

بنت أختها، طبعاً، لم تدر بالمسألة. كانت «أليس» تُعيد ترتيبها، وتقوّمها، منذ ذلك الصيف في ١٩١٧. ورغم أن أقرب ذكرياتها كان الاستعراض الذي أخذتها خالتها إليه عند وصولها من «إيست سانت لويس»، كان نوعاً من الاستعراضات الجنائزية لأبيها وأمها، فإن «دوركا» تتذكّره بطريقة مختلفة. بينما كانت خالتها تقلق كيف تجعل القلب جاهلاً بالعجيزة والرأس مسئولة عن كليهما، كانت «دوركا» تضطجع على مفرش سرير مغزول، ناعمة وسعيدة تعرف أنه لامكان تكون فيه لصيقة بشخص ما لايلعق عصاه المنخورة، أو يمصمص بأنيابه، أو يقرع طبوله، نافخاً بنفيره في حين أن امرأة عارفة كانت تغني أما من أحدٍ سيبقيني معك، جلبتَ المفتاح الصحيح حبيبي، لكن الثقب الخاطىء للمفتاح الذي جلبته لتدخله فيه أحضره، وضعه تماماً هنا أو هناك. كانت تقاوم حماية خالتها ويديها الكابحتين، فكّرت «دوركا» في الحياة تلك تحت الوشاح كمثل كل الحياة هناك. الطبول التي سمعتها في الاستعراض كانت الجزء الأول، أو الكلمة الأولى، لدعوة. بالنسبة لها لم تكن الطبول حبل عناقٍ كاملٍ لزمالةٍ، لنظامٍ، أو تسامٍ. فقد كانت تتذكّرها كبدايةٍ، بدءٍ لشيءٍ ما تودّ له أن يكتمل.

بينما كانت تعود إلى «إيست سانت لويس»، سقطت الشرفة الصغيرة، برقائقها الخشبية– مشتعلة وتدخّن– وانفجرت في الهواء. لابد أن إحدى الرقائق هذه دخلت فمها الأبكم الممطوط وسافرت في باطن حلقها لأنه دخّن ولازال يتوهّج هناك. لم تدعها «دوركا» تخرج أبداً، ولم تطفئها قط. في البدء ظنت أنها لو تكلمت، فستغادرها، أو تخسرها من خلال الفم. وحين أخذتها خالتها في قطار إلى المدينة، وكانت تسحق يدها بينما تشاهدان الاستعراض

الطويل، فقد كانت رقيقة الخشب المضيئة تغطس أبعد وأبعد حتى آوت بارتياح في مكان ما تحت سرّتها. شاهدت الرجال السود غير الهيّابين، وأكّدت الطبول لها أن التوهّج لن يغادرها أبداً، ذلك أنه سينتظر ويكون معها حيثما تودّ أن تكون ممسوسة به. وحين تدعه لينساب كي ينطّ في النار ثانية، فإن ما يحدث سيكون سريعاً. مثلما العرائس.

لابدّ أنها راحت سريعاً. عرائسها الخشبية، على أي حال، التي كانت في صندوق سيجار خشبي. أولا جونلة «روشيل» بنسيجها الأحمر الورقيّ. ثم «سست» كأنها عود كبريت، ثم حرير «برنادين» الأزرق، وفستان «فاي» القطنيّ الأبيض من غير كمين. لابد أن النار أتت تماماً على أرجلها، فحمّتها بدايةً بلفحها الحارّ ومن ثمّ عيونها المستديرة، بالحواجب والجفون الدقيقة التي خطّطتها لها بعناية تامة، لابدّ أنها شهدت بعضها البعض وهي تختفي. تجنّبت «دوركا» التفكير في ذلك الكفن الضخم الراقد أمامها هناك، على بعد بضعة أقدام إلى يسارها، تجلس قربه خالتها «أليس» برائحة كالدواء، بأن ركّزت تفكيرها في «روشيل» و«سست» و«فاي»، اللاتي لم يكن لهن أي جنازة على الإطلاق. جعلها هذا جريئة. حتى عندما كانت بعمر التسع سنوات في المدرسة الابتدائية، كانت جريئة. على أي نحو كانت نحيفة وخصلاتها معقوصة، على أي نحو كان حذاؤها عالي الكعب رديء الصناعة قد غطّى كاحليها في حين كانت أحذية البنات الأخريات خفيفة ومخفوضة الحواف كاشفة كواحلهن، على أي نحو كانت جواربها سوداء وسميكة، فلا شيء يمكنه إخفاء الجرأة المائسة من تحت جونلتها التي كانت بلون الحديد الزهر. ولا نظارتها أخفت ذلك، ولا البثور على جلدها والتي أتتها من الصابون البنيّ الخشن والوجبات الدنيئة.

حينما كانت صغيرة، اتّفقت «أليس منفريد» على الحياكة لمدة شهر أو اثنين، فكانت «أخوات ميللر» يراعينها بعد المدرسة، كان هناك أربعة أطفال آخرين في الغالب، وأحياناً واحد آخر. كان لعبهم هادئاً ومقصوراً على مساحة صغيرة بغرفة الطعام. الأخت «فرنسيس ميللر»— كانت بذراعين— تعطيهم سندوتشات زبدة التفاح ليأكلوها ؛ أما «نيولا» —والتي بذراع واحدة— فقد كانت تقرأ عليهم الترانيم. وكان هذا النظام الصارم يتلطّف أحياناً حين تقيّل «فرنسيس» عند مائدة المطبخ. وربما تتعب «نيولا» من حبسة الأبيات الرتيبة في صوتها، فتختار طفلاً لإشعال عود لسيجارتها. كانت تأخذ أقلّ من ثلاث نفثات، ويقلب شيء ما بملامحها شيئاً آخر بداخلها، فتحكي لمن هم في رعايتها قصصاً للوعيد. كانت حواديتها، عموماً، عن فضيلة السلوك القويم التي تنهار أمام رعشة الخطيئة فيرثون لها.

والحقيقة أن رسالة تعاليمها قد فشلت، لأنه وبعد أسبوع من وضع خاتم الخطوبة في إصبع «نيولا»، رحل عن الولاية العريس المفترَض قريباً أن تزفّ إليه. وكان ألم رفضه مرئياً، فوق قلبها، زاحفاً كقوقعة، في اليد التي أحكم عليها الخاتم. رغم ذلك، لأمت أجزاء قلبها الحطيم معاً بانعقاف ذراعها الجامدة. لم يلمسها الشلل في أي جزء آخر. يدها اليمين، والتي تقلب بها

صفحات العهد القديم رقيقة النسج، أو تمسك بسيجارة «أولد جولد» إلى شفتيها، كانت مستقيمة وثابتة. لكن قصصها التي تحكيها لهم عن فساد الأخلاق، وعن الأشرار الذين يحتالون على الخيّرين، كانت مثيرة للمشاعر أكثر من هذه الذراع المعلقة على الصدر. لقد حكت لهم كيف أنها شخصياً نصحت صديقة كي تحترم نفسها وتهجر الرجل الذي لانفع منه لها (أو لحالها). وافقت الصديقة أخيراً، ولكن في خلال يومين اثنين! رجعت فوراً إليه، فليرحمنا الله جميعاً، ولم تعد «نيولا» تحادثها قطّ بعد ذلك. وحكت لهم كيف أن فتاة صغيرة جدا، لاتزيد عن الرابعة عشرة، هجرت العائلة وصواحبها كي تتسكّع أربعمائة ميلا وراء ولد التحق بالجيش فقط ليهجرها خلفه، فاستدارت لحياة فاسقة في معسكر بالمدينة. وبذا أمكنهم أن يروا، أليس كذلك، قوة الخطيئة في صحبة العقل المريض؟ هرش الأطفال في ركبهم وأومأوا، لكن «دوركا» على الأقل، قد فتنت بالميل الذائب سهل الانقياد لخطيئة اللحم والجنة التي تجعل امرأة تعود فوراً بعد يومين اثنين!، أو تجعل فتاة تسافر أربعمائة ميلا نحو معسكر بمدينة، أو تطوي ذراع «نيولا»، حسن أنها لأمت أجزاء قلبها في يدها. جنّة. الكّل لأجل الجنّة.

في وقت أن كان عمرها سبعة عشر عاماً، كانت حياتها لا تُحتَمل كلها. حين أفكّر في هذا، أتصوّر ما كانت تحسّ به. شيء مفزع أن لا يكون هناك أي شيء لتفعله على الإطلاق أو يستحق بأن تفعله، عدا أن ترقد وتتمنّى، حين تكونين عاريةً فهي لن تضحك عليك. أو يكون هذا هو، قابضاً على ثدييك، أفلا تودّين أن يتحوّلا على شكلٍ آخر. شيء مفزع لكنّه يستحقّ المخاطرة، لأنه لاشيء آخر كي تفعليه، رغم ذلك، عند بلوغك السابعة عشرة، فلتفعليه. ادرسي، اعملي، تذكّري. اقضمي طعاماً ولوكي سمعة صاحباتك. اسخري من الأشياء سليمة السلوك وتلك خاطئة العاقبة– لايهم، لأنك لن تفعلي الشيء الذي يستحق بأن تفعليه والذي هو راقد بمكان ما شحيح الضوء، مغلّفاً بذراعين، ومدعوماً بقلب العالم.

فكّري كيف يصير هذا، لو تتدبّرينه، فتدبريه. الطبيعة تستعرض عليكِ، إذن. تُحوّل ذاتها للمأوى، بالصدفة. مخدات لاثنين. تفرش أغصان شجيرات السوسن حتى أنها تُخفيك. والمدينة، على طريقتها الخاصة، تهبط إليك، تتعاون، تليّن من مفارق طرقها، تصحّح وضع أحَجار منحنياتها، تعرض تفاحات خضراً وبطيخاً على الزاوية. سحابات من عصائب رأس صفراء، خيوط سبح مصرية. «كانَسس فرايد تشيكن» وشيء بالزبيب يستدعي انتباهاً لنافذة مفتوحة حيث الشذا بادياً يترصّد، ولو أن ذلك غير كاف، تقف أبواب حانات سرية مفتوحّة جزئياً، وفي ذلك المكان المعتم الرطب يسعل كلارنت مصفّياً حلقه ينتظر المرأة التي تصمّم على المفتاح. تتخذ قرارها وأثناء ما تمرّ تبلّغك بأنها كانت الملاك الصغير لبابا. المدينة متأنقة عند هذا: فوّاحة وطيبة لكن تبدو قذرة ؛ تبعث برسائل سرية متنكّرة كإشارات عمومية: هذا هو الطريق، افتح هنا، خطر أن تسمع للملون، فقط للرجال العزّاب، أوكازيون، امرأة تريد غرفة خاصة، قف ياكلب على، مقدمات بشكل مجردّ، لا مال، أسفل دجاج طازج، توصيل مجاني سريع. والخير بأقفال

مفتوحة، درج معتم.غطّ على عويلكِ بعويلكِ.

كانت ليلة في عام «دوركا» السادس عشر، حين كانت تنتصب بجسمها لتقدمه يرقص مع أيٍّ من الأخوين. كلا الولدين كان أقصر منها، لكنهما جذابان بدرجة متكافئة. أكثر من هذه المسألة، فقد منعا تخطّي أي واحد وحين احتاجا لمنافسة حادة رقصا جبراً سويا. راحت إلى الحفلة مع أقرب صواحبها «فيليس»، وكان من الصعب ترتيب ذلك، لكن حدث أن كان لدى «أليس منفريد» عمل ليليّ إضافيّ في «سبرنجفيلد» فتيسّر ذلك للغاية. وكانت الصعوبة الوحيدة أن تعثر على شيء ثعلبيّ اللون ترتديه.

صعدت الفتاتان السلّم، وانقادتا مباشرة للمكان الصحيح بسماع البيانو من دعامة الباب أكثر من تذكّرهما لرقم الشقة. وقفتا لتبادل النظرات قبل طرق الباب. وحتى في مدخل الصالة المعتم، قد أبرزت الصديقة ذات الجلد الأسود علبة الكريم للأخرى. وكان شعر «فيليس» الزيتيّ يعزّز جمال مويجات شعر «دوركا» الجاف الخفيف. فُتح الباب ودخلتا.

قبل إطفاء الأنوار، وقبل اختفاء السندوتشات والصودا المسكرة، تعامل أحدهم مع الحاكي مختاراً موسيقى سريعة تلائم الغرفة المضاءة اللامعة، في حين دفع الأثاث الذي كان عائقاً باتجاه الحوائط، وجر إلى مدخل الصالة، وتكوّمت المعاطف عالياً بغرف النوم. تحت نور السقف تحرّك كل زوج كتوءم مولود معاً ولو لم يكونا كذلك، فإن الآخر يشارك اندفاعة الرفيق وكأنه وريد ثان. يظنان بأنهما يعرفان ما تفعله الموسيقى بأيديهما وأرجلهما، لكن الوهم كان في الانجذاب الباطنيّ للموسيقى: التحكّم في أنها تخدعهما بتصوّر أنها لهما ؛ بالحدس الذي تحدسه. وما بين تغيير اسطوانتين، تخنق بلوزة الفتاة الهفهافة هواء الترقوة الرطب أو تربّت عليها أيد منفعلة،فالرطوبة تتلف شعرهن، ويضغط الأولاد بمناديلهم المطوية على جباههم. يغطّي الضّحك على النظرات الطائشة بالترحيب والوعد، فيخلع عن ملامحهم قشرة التضليل والتهتّك.

لم تكن «دوركا» ولا «فيليس» غريبة عن الحفلة — ولا أي واحد. وكان الناس الذين لم ير أحدهم الآخر من قبل، ينضمون للمرح بسهولة من تربّوا معاً في مبنى واحد. ولكن كلاً من الفتاتين لها توقعات زادها اضطراباً ذلك التجهيز المخطّط للمغامرة. كانت «دوركا» في السادسة عشرة، ليس بعد لكي ترتدي شورتاً حريرياً، وكان حذاؤها إما لشخص أصغر أو أكبر كثيراً. وقد ساعدتها «فيليس» في تفكيك خصلتين وراء أذنيها بينما تلطّخ إصبعها بالروج الذي دلكته على شفتيها. كان فستانها بمظهر البالغة، بياقته المقلوبة لأسفل، لكن يد امرأة أخرى كبيرة كانت تحذّرها اتّضحت بكل مكان آخر: في الخصر، والحزام المطوّق لحقويها، والأكمام القصيرة المنتفخة. حاولت هي و «فيليس» إعادة زحزحة الحزام كلّياً، ثم ثبتتاه عند سرّتها. برهن الأمران على أن كلاً كريه. فقد عرفتا أن جسماً بجلد رديء هو لا جسم على الإطلاق، وكان على «فيليس» أن تلغو بالمجاملات طيلة الطريق السابع لتجعل «دوركا» تنسى ملابسها وتركّز في الحفلة.

كانت الموسيقى تحلّق إلى السقف والنوافذ المفتّحة على اتساعها بالصخب حين دخلنا. على الفور تخاطفت الفتاتين أيدي الذكور، ودوّموا بالرقص في وسط الغرفة. تعرّفت «دوركا» على شريكها «مارتن» والذي تذكّرت له لحظة حرجٍ حدثت في حصة المطالعة – طالت بمقدار ما أدرك المعلّم أنه خلّى «سقل» محل «سأل». كانت «دوركا» ترقص جيداً – ليس بسرعة مثل الآخرين، لكنها كانت رشيقة، رغم ذلك الحذاء المخزي، فقد جعلها مستنفرة.

بعد رقصتين أخريين، كانت تلحظ أن الأخوين قد لفتا انتباه الجميع في غرفة الطعام. فقد كانا مثيرين للإعجاب في الشارع، وفي الدهاليز بحفلات المنازل، يتحركان كحريرٍ مشدود أو معدن محلول. وكان هزّ البطن الذي وافقت فيه «دوركا» مع «فيليس» هو علامة الاهتمام الحقيقي والحبّ المحتَمل بأن يظهر ويتغلغل، بينما كانت «دوركا» تراقب الأخوين. راحت كل السندوتشات الآن، وسلطة البطاطس أيضاً، وعرف الكلّ بأن وقت إطفاء الأنوار قد حان، وتقترب الموسيقى. كان الأخوان، بالرشاقة التي لا تصدّق، وفي توقيت الثانية الفاصلة، يؤديان عرضاً يعلن ذروة الرقص السريع بالتفريق ما بينهم في الحفلة.

وتنتقل «دوركا» إلى الصالة المتوازية مع حجرتي الطعام والمعيشة. من ظلالها، وخلال المدخل المقنطر، ألقت نظرة غير مكبوحة على الأخوين حين كانا يؤديان خاتمة مذهلة. قبلا المديح، الذى كان من حقّهما، ضاحكَين: نظرات هيام من الفتيات، وباقات تهنئة وتربيت على الخدين من الأولاد. كان هذان الأخوان بوجهين رائعين. وكانت بسماتهما، المفترّة عن أسنان دون عيب، داعيتين ومبهجتين. وكان شخص يتخانق مع حاكي «الفكترولا» حينذاك ؛ يضع الذراع، فتخرخش الاسطوانة، فيحاول ثانية، ثم يغيّر الاسطوانة بأخرى. بأثناء السكوت، راقب الأخوان «دوركا». كانت أطول مما يجب، وتحدّق فيهما من فوق رأس صديقتها السوداء. عيون الأخوين تبدو وسيعة ومرحّبة لها. وهي تحركت من الظلّ للأمام وانزلقت خلال المجموعة. رفع الأخوان من ڤولت ابتسامهما. تدار الاسطوانة الصحيحة من قرص الحاكي الآن ؛ يمكن سماع هسهسة التجهيز بينما كانت الإبرة تنزاح تجاه التجويف الأول. ابتسم الأخوان بإشراق ؛ وانحنى أحدهما أقلّ من بوصة تجاه الآخر، غير خاسرٍ وصال عينه مع «دوركا»، هامساً بشيء ما. نظر الآخر على «دوركا» من فوق لتحت حين تحركت نحوهما. من ثم، وبينما الموسيقى بطيئة وتدخّن، تحمل الهواء لأعلى، فقد كانت بسمته لامعة كما هو دائماً، لكنه جعّد أنفه وانصرف.

عرفت «دوركا»، خمنّت وانطردت في ذات الوقت الذي أخذته الإبرة كي تجد تجويفها الافتتاحي. ولم يكن هزّ البطن كحبّ محتَمل يقارَن أبداً بطوفان الجليد الذي سدّ أوردتها تماماً الآن. الجسم الذي تسكنه لايستحقّ. رغم أنها شابة ورغم كل ما تملكه، فقد كان ذلك وكأنها تتحلل على كرمةٍ وقت التبرعم. لاعجب إذن أن «نيولا» أغلقت ذراعها ولأمت أجزاء قلبها في

يدها.

ولذلك، فحين همس لها «جو تريس» من خلال طقطقة الباب الذي ينغلق، كانت حياتها على التقريب لاتحتمل. إن لحمها، ازدراه الأخوان على نحوٍ ثقيل،وقد حمل سراً شهية الحب التي تحوّم من باطنه. رأيت سمكة منتفخة، عمياء في سكينة، طافية على السماء. وكانت هذه السفينة الهوائية دونما عيون، ولكنها موجّهة نوعاً لتسبح تحت رغوة الغمام، وليس لأحدٍ أن يتخلّى عن منظرها لأن ذلك يبدو كمراقبة لحلمٍ سريّ. ذلك كان يشبه جوعها: مسمّراً، موجّهاً، طافياً، وكأنه سر عام تحت غطاء الغمام. كانت «أليس منفريد» تعمل بجدٍ لتلبيّ ما تحتاجه بنت أختها، لكنها لم تكن كفؤاً لمدينة ذات موسيقى سائبة ترجو وتتحدّى الجميع وفي كل يوم. «تعال»، تقول. «تعال واقترف خطأ». حتى الجدّات كانسات السلالم، فقد كن يغلقن أعينهن ويلقين رؤوسهن للوراء بينما يحتفلن بأساهن الأثير. «لا أحد يلبي حاجتي مثلك، اكفني». في العام الذي مرّ بين طردة الأخوين الراقصين واجتماع «أليس منفريد» مع النادي، كان نير «أليس» يحكم وثاقه حول عنق «دوركا» الذي رثّ حتى انشطر.

كان آخرون غير نساء النوادي، قليل جداً، يعرف أين قابلها «جو تريس». لاعند قسم الحلويات بالصيدلية المتجر «دچي» حيث قابلها لأول مرة، وتساءل إن كان ذلك النعناع الذي اشترته هو ما أهان جلدها، المنير والقشديّ بكل مكان عدا خدّيها. وقد قابل «چو» «دوركا» هناك في بيت «أليسَ منفريد» تحت أنفها وأمام عينيها مباشرة.

لقد ذهب هناك لتسليم طلبية «شيلا»، ابنة عم «ملڤون إدوارد»، قالت بأن لو جاء «چو» إلى ٢٣٧ «كليفتون بليس» قبل الظهر، فيمكنه تسليمها الطلبية، الشامبو والكريم سريع الامتصاص، هناك مباشرة، فربما لا تنتظر حتى السبت التالي وتجيء كل ذلك الطريق إلى «لينوكس» ليلاً لتأخذها، إن لم يكن بالطبع يريد المجيء لشغلتها هذه...

قررّ «چو» أن عليه الانتظار حتى السبت التالي، لأن تحصيل دولار وخمسة وثلاثين سنتاً لن يسوطه. لكنه، وبعد أن غادر منزل «مس رانسام»، ووقف لمدة ربع ساعة يشاهد «بد» و «سي. ت.» يسبّان بعضهما على رقعة الشطرنج، صمم على أن يرجع إلى «شيلا» مباشرة وسريعاً لينفضّ من هذا النهار. كانت معدته حامضة قليلاً وقدماه تؤلمانه بالفعل. لم يكن يريد تسليم أو حجز طلبيات في المطر أيضاً، المطر الذي يهدّد دائماً صباحات أكتوبر الدافئة. ولأن عودته مبكراً كانت تعني مرافقة ممتدة مع «ڤيولت» الصموت، في حين كان يهتاج أيضاً من محبس الروائح المنخفض أو البكرة التي أمالت حبل الغسيل على جانبهما من المبنى، وكذلك وجبة السبت المشبعة تجيء مبكراً: خضار أواخر الصيف المطبوخ على عظمة فخذ الخنزير المتخلّفة عن الأحد السابق. كان «چو» يتطلّع لوجبات نهاية الأسبوع الهزيلة والمجمّعة من البقايا، ولكن كان يكره وجبة الأحد: لحم فخذة خنزير مطبوخ، وفطيرة ثقيلة الحلاوة بعدها. وكان تصميم «ڤيولت» على تربية حمارٍ تسبّ اليوم الذي اقتنته فيه؛ كاد أن يقتله.

كان ياما كان، أنه يتباهي بطبيخها. أنه لايقدر على الانتظار حتى يعود إلى البيت ويلتهمه. لكنه في الخمسين الآن، وفيها تتغيّر الشهيّة، كما نعلم. كان لازال يحبّ الملبّس، الناشف– لاحلوى الربّ أو الكراميل– وهو كريّات حمضية كان يفضّلها. ولو قيّدت «ڤيولت» نفسها بالشوربة والخضار المسلوق فقط (مع قطعة خبز تماشيها)، فسيكون راضياً تماماً.

ذلك ما كان يفكّر فيه حين وجد ٢٣٧ وصعد السلّم. كان الجدال ما بين «سي. ت.»و «بد» حول مصير الطابية معقولا، ومضحكاً للغاية: فقد أنصت لهما أطول مما لابد، لأن الوقت صار بعيد الظهر عند وصوله هناك. سمع ضوضاء امرأة من خلال الباب. ورنّ «چو» الجرس على أي حال. ردّت على الباب فتاة النعناع ذات الجلد الرديء، وبينما كان يخبرها من هو وما الذي جاء به، كانت «شيلا» تنتأ برأسها للردهة وتصرخ «عفواً! چو تريس، تدهشني هذه المرة». ابتسم وخطا داخلاً من الباب. وقف هناك مبتسماً، ولم يضع شنطة عيّنته على الأرض حتى جاءت مضيفة المكان، «أليس منفريد» ، وأخبرته أن تعال إلى القاعة.

سرى طَرَبٌ بينهن حين قاطع اجتماع أُنسهن. كان لقاء مأدبة غذاء لبنات الحي كي يخططن لصندوق النذور المقام على شرف نادى عمال الزنوج المحليين. كن أقررن مافي وسعهن، وجدولن ما كان ضرورياً، وساعتها كن يبدأن على دجاجة الغذاء الملكيّ والذي تحمّلت منه «أليس» أكبر الغرم. كن مبتهجات وسعيدات، بعملهن معا وبصحبة كل منهن للأخرى، ولم يكن يعرفن ما ينقصهن حتى بعثت «أليس» بـ «دوركا» لتردّ علي رنين الباب، وتذكّرت «شيلا» ما كانت قالته لـ «چو»، وقفزت حين سماعها صوت الذكر. جعلنه يحسّ كأنه مثل الرجال المنشدين في المشاجرات، الشباب المتحلّقين على النواصي مرتدين كرافتات بلون المناديل الملتصقة بجيوب صدورهم وخارجة منها، الديوك المغرورين الصغار الواقفين بدون انتظار للدجاجات اللواتي ينتظرن – من أجلهم. وتحت عيون النسوة المثمّنة والمغازلة، شعر «چو» بلذة بسمته رغم غبار المشاجرات الذي غطّى على بوز حذائه.

ضحكن، وكن يطرقن على مفرش المائدة بأطراف أصابعهن، وبدأن يثرنه ويعنّفنه ويهمن به، كل ذلك معاً وفوراً. أخبرنه كيف أن الرجال الطوال من نوعيته يجعلهن يتذمّرن من بلادته وعجرفته. وسألنه ماذا يحمل أيضا في شنطته، بالإضافة لما جعل «شيلا» منفعلة تماماً. وتساءلن لِمَ لَمْ يرنّ أجراس أبوابهن قطّ، أو يصعد مثل هذه المجموعات الأربع من السلالم المزدوجة ليسلّم لهن أي شيء. وتغنّين بإطرائهن، بشتائمهن، بينما قيّدت «أليس» نفسها بابتسامة شاحبة، ونظرةمحكومة، فلم تنضمّ لتعليقات من كنّ حولها.

مكث بالطبع لحدّ الغذاء. بالطبع. رغم أنه لم يحاول التزوّد من أي طعام كثيراً، وأفسد شهيته لخضار أواخر الصيف الذي كان متأكداً أن «ڤيولت» سلقته له في الوعاء. لكن النسوة كن يلمسن شعره وينظرن مباشرة إليه، متأملات عينيه الاثنتين بلونيهما المختلفين، وكن يأمرنه:

«تعال هنا دوماً، يارجُل، وأرحْ نفسك. هل نُثبّت لك طبقاً معنا؟ دعنا نُثبّت لك طبقاً» . احتجّ ؛ فأصررن. فتح شنطته ؛ وعرضن شراء ما فيها جميعه. «كِل، ياحبيبي، كل» ، قلن له. «لن تخرج في هذا الطقس البارد كالسلّ من دون أي شيء تلصقه بعظامك، ألم تحسّ بأي شيء من كوننا كلنا معك هنا، «دوركا» ، يابنت، هاتي طبقاً فارغاً للرجل حتى أملأه له، سمعتِ؟ هش، شيلا» .

كن نساء عمره غالباً، لهن أزواج وأطفال، وحُفداء أيضاً. يعملن بجدّ من أجل أنفسهن ومن أجل أي واحد آخر يحتاجهنّ. وكن يعتقدن بأن الرجال سخيفون لذيذون ومفزعون، فهم ينتهزون كل فرصة تسنح لهم ليجعلوهن يعرفنهم على ماهم عليه. وفي مجموعة مثل هذه، فيمكنهن الاكتفاء بالحصانة مما يحذرن منه، أن يختلين بأي رجل، غريب أو حبيب، أو من يرنّ جرس الباب بشنطة العينة في يده، لايهّم مقدار طوله، وكم أن بسمته ريفية ومقدار الحزن الكبير في عينيه. زيادة على هذا، فقد أعجبهن صوته. فيه بحّة، رسالة كن سمعنها فقط حين قمن بزيارة العجائز العنيدين الذين لم يتزحزحوا عن أفنيتهم وحقولهم المشقية ليأتوا المدينة. وذكّرهن هذا برجالٍ لهم قبعات يرتدونها في الحرث ويأكلون فيها بالعشاء ؛ وينفخون في فناجين قهوتهم، ويمسكونَ بسكاكين في قبضاتهم حين يأكلون. ولذا نظرن عليه وأخبرنه بطريقة ما كم أنه سخيف ومفزع ولذيذ. كما لولم يكن يعرف.

عوّل «جو تريس» على النسوة المربَحّات بالضحك في أن يشترين بضاعته، لأنه كان يعرفهن أكثر ممن كانوا يعاشرونهن. حتى لو لم يكن قادراً على الانحناء على مائدة رهانٍ برمية معرّضاً ظهره لأزواج زبوناته. لكنه في ذلك اليوم، في بيت «أليس منفريد» ، بينما هو منصت ومسترجع لمزاحهن، فقد قرّر قراراً حاسماً باتخاذهن زبونات جدداً. تعجبت من ذلك. ما فكّر فيه عندئذ وبعدها، وما قاله لها. همس بشيء إلى «دوركا» حين ودّعته خارجاً من الباب، ولم يبد على أحدٍ أنه كان أكثر سعادة أو دهشة مما كان عليه هو.

لو تذكّرت بشكل صحيح، غداء أكتوبر ذلك في بيت «أليس منفريد» ، فإن هناك شيء غريب. كانت «أليس» غامضة، ولم يعرف أيٍ واحد كان معها لمدة الثلاثين دقيقة أن ذلك ليس من طابعها. كانت من نوع اللواتي لهن نظرة تحيل أي إشاعة إلى ضحك مكبوت حين تخرج عن الكتمان وربما لأن لها أفكار خيّاطة تجعلك تعتقدين بأن ذلك فستان جميل فتثرثرين جنبها. ولكن يمكنها أن تعدّ مائدة، بطعام ربما كأنه نصيب ولد هزيل، وأظن بأنها تتحامل على الزبدة، فتصنع القليل منها في كعكها. لكن بسكوتها خفيف، أمّا أطباقها وأدوات المائدة فهي مرتبة كما يجب، وتلمع. افتح مناديل سفرتها على وسعها كما تهوى، لا تشوّه في أي مكان. كانت مهذبة عند الغداء بالطبع، ولم تكن متغطرسة أيضاً، بل لا تعير كبير اهتمام لأي شيء. كانت مخبولة. بخصوص «دوركا» ، محتمل.

فقد كنتُ أظن بأن هذه الفتاة ماهي إلا صُرّة أكاذيب. يمكن أن أحكي عن مشيتها، عن ملابسها الداخلية التي كانت لما فوق عمرها، حتى لو لم يكن فستانها كذلك. وبالعودة إلى أكتوبر، فربما بدأت «أليس» تظن ذلك. وقت أن جاء يناير، لم يكن أحد يتأمل. فكل الناس قد عرفت. وإني أتساءل ما إن كانت قد حدست شيئاً بخصوص «جو تريس» الطارق على بابها؟ أو ربما قرأت شيئاً هنالك في الصحف المكدسة على طول «السفل» في حجرة نومها.

كل الناس تحتاج كومة جرائد: لتقشير البطاطس عليها، وخدمة احتاجات الحَمام، ولفّ الزبالة. لكن ليس مثل «أليس منفريد». فهي تعيد قراءتها مرات ومرات، وإلا فلماذا تحتفظ بها؟ ولو قرأتْ شيئاً في صحيفة مرتين، فهي حتماً سوف تعرف القليل جداً من ضمن الكثير جداً. لو لديك أسرار وتودّين حفظها أو ترغبين في تخيّل ما يكون عليه الآخرون، فيمكن للصحيفة أن تغيّر رأيك. أفضل شيء لاكتشاف ما يجري هو مراقبة كيفية مناورة الناس لأنفسهم في الشوارع. عن أي شَيء يوقفهم وعَاظ المفارق في دوربهم؟ هل يمشون من بين أولاد يشوطون العلب على طول المفرق أو يزجرونهم ليفسحوا؟ يتجاهلون الرجال القاعدين على رفارف سيارة أو يقفون لتبادل كلمة؟ لو نشبت خناقة بين رجل وامرأة، هل يعبرون وسط الحشد ليشاهدوا أو يجرون إلى ركن في حالة استحكام الفوضى؟

أحد الأشياء بالتأكيد، أن تربكك الشوارع، تُعلّمك أو تحطّم رأسك. لكن «أليس منفريد» لم تكن من تلك النوعية التي تهب ذاتها أسباباً كي تكونَ في الشوارع. فهي تخترقها بسرعة قدر الممكن لتعود لبيتها. ولو كانت تخرج كثيراً، تجلس على شرفة أو تنهمك في النميمة أمام صالون تجميل، لكانت عرفت أكثر مما تقوله الصحيفة. وربما عرفت ماكان يحصل تحت أنفها. حين كشفت ماحدث، بين ذلك اليوم في أكتوبر ويوم يناير الفظيع الذي أنهى كل شيء، فإن آخر الخلق على البسيطة كانت تودّ رؤيته هو «جو تريس»، أو أي شخص ينتمي إليه. حدث ذلك، رغماً، فالمرأة التي تجنّبت الشوارع سمحت لغرفة معيشتها بدخول المرأة التي جلست يوماً في وسط إحداها.(★)

تجاه نهاية مارس، وضعت «أليس منفريد» إبرها جانباً لتفكر ثانية فيما أسمته إفلات الرجل الذي قتل بنت أختها لمجرد استطاعته ذلك. لم يكن صعباً أن يتم، فهذا لم يجعله يفكّر مرتين بشأن الخطر الذي كان يقحم نفسه فيه. فعلها فحسب. رجل واحد. فتاة معدومة المقاومة. موت. رجل بشنطة عيّنة. كل امرىء يعرفه إنساناً، جاراً لطيفاً. من النوعية التي تسمحين له بدخول منزلكِ لأنه ليس خطيراً، لأنك قد رأيته مع أطفال، ويشتري حاجته، ولا يسمع عنه نأمة إشاعة

(★) إشارة إلى حادثة خطف الوليد التي قامت بها «ڤيولت» وجلوسها في وسط الشارع. (المترجم)

في أنه يرتكب خطأً. لا تحسيّن فقط بالأمان بل الودّ من صُحبته، لأنه من النوعية التي تُهرَع إليها النساء عند تفكيرهن بأن أحداً يتبعهن، أو أنهن يراقبن، أو يحتجن لشخص يناولهن المفتاح الإضافي في حالة مالو كن نسينه بالداخل. كان الرجل الذي يأخذ امرأة إلى دارها لو فاتها الترولي وعليها أن تسير في شوارع مظلمة ليلاً. من يحذّر البنات الصغيرات للابتعاد عن ملاهي الخمرة المغشوشة والرجال المتردّدين عليها هناك. تثيره النساء لأنهن يثقن فيه. وكان واحداً من الرجال الذين ساروا في الطريق الخامس– مبترداً صامتاً وجليلاً– نحو المساحة التي صنعتها الطبول. عرف الخطأ بأنه ليس الصواب، ومع ذلك فعله.

لقد رأت «أليس منفريد» وتحملت الكثير، كانت مرتعبة على مدار البلاد، من كل شارع فيها. وهل تشعر الآن حقاً بانعدام الأمان فحسب، لأن الرجال الوحشيين ونسوتهم الوحشيات ليسوا هناك في الخارج فقط، بل هم في مسكنها، في بيتها. جاء رجل لحجرة معيشتها ودمّر بنت أختها. جاءت زوجته في الجنازة لتفحّش وتهين كرامتها. كان يمكن أن تستدعي الشرطة خلف كل منهما، لو لم يكن ماتعرفه عن حياة الزنوج يجعل كل ذلك محتملاً ويوضع في الحسبان. أن تتطوع فعلياً للكلام مع أحد أسود أو أبيض، تدعه ليدخل منزلها، تشاهده وهو يضبط عجيزته في كرسيّ مرآتها الأزرق كي يأوي إليه، وهذا ما يجعله رجلاً.

كانت مهملَة وتنسحب في حزنها والعار، تضوّي الأيام بالهمّ، تُضيف شراباً إلى القهوة من أجل لاشيء، تقرأ في صحفها، تقذفها على الأرضية، تلقطها ثانية. تقرأها بشكل مختلف الآن، كل أسبوع منذ وفاة «دوركا» أثناء يناير كله، وفبراير كله، غطّت صحيفة عظام امرأة مهشمة. رجل يقتل زوجة. ثمانية متّهمون بالاغتصاب يطردون. امرأة وفتاة ضحايا لـ. امرأة تنتحر. أبيض يهاجم هندياً. نساء محتجزات. تصيح امرأة فليهزم الرجل. في الغيرة رجل هائج.

كانت تفكّر، دون مقاومة كالبطّ. هل كنّ كذلك؟ قرأت بعناية تفسيرات الأنباء التي كشفت أن معظم هاته النسوة كن مكبوتات ومنكسرات، لم يكن معدومات المقاومة. أو، مثل «دوركا». فريسة سهلة على مدار البلاد، تسلّحت النساء السود. هذا، فكّرت «أليس»، هذا– على الأقل– لأنهن أخذن درساً. أليس كل ماعلى أرض الله يكتسب مقاومة، أو هي له؟ السرعة، بعض السمّ في ورقة شجر، اللسان، الذيل؟ القناع، الطيران، أرقام بالملايين تتناسل أرقاماً بالملايين؟ شوكة هنا، وخزة هناك. فريسة طبيعية؟ لقيطات بسيطات؟ «لا أظنّ ذلك» قالتها بصوت عال، «لا أظن ذلك». بقع رثّة في البياضات تدعمها بخيوط من وزن ٦٠. تغسلها وتطويها وتضعها في سبت أمها الذي تستعمله. رفعت «أليس» رقعة الكيّ وفرشت صحيفة تحتها لتحفظ الحواشي نظيفة. لم تكن تنتظر المكاوي فقط لتسخن، بل امرأة أيضاً سوداء وحشية كالسخام معروفة بحملها السكّين. كانت تنتظر بتردّد أقلّ عن ذي قبل ودون أدنى مشاعر غضب خائفة كانت لديها في يناير، حين قالت امرأة أن «ڤيولت تريس» هي التي تحاول أن تراها، لتتكلم أو أي شيء. طرقت مبكراً على بابها في الصباح الذي ظنّت «أليس» بأنه القضاء أيضاً.

- «ليس عندي ما أقوله لك. ولا حاجة واحدة» قالت ذلك بهمس عال من خلال الفتحة المسلسلة بالباب ثم صفقته مغلقة إياه. لم تكن بحاجة للاسم كي تخاف، أو تعرف من هي: نجم جنازة بنت أختها. المرأة التي أفسدت الصلاة الأخيرة، غيّرت موضوعها والمعنى كليهما بذلك، وكانت عملياً التي تكلّم عنها الكلّ عند حديثهم عن وفاة «دوركا»، وقد غيّر هذا اسم المرأة أيضاً. فهم يسمّونها الآن «ڤيولنت». (*) لافرق. كانت «أليس» جالسة في المقعد الأول بممشى الكنيسة الأول، حين شهدت فوضى الكنيسة الصاعقة. فيما بعد، وقليلاً قليلاً -كمثل نفاية البحر التي لفظت على الشاطيء - عادت مشاعر كهذه إليها، غريبة ويمكن التعرف عليها، صارمة وكئيبة.

كان الأساس فيما بينهما هو الخوف و-شيء جديد- الغضب. إن «جو تريس» هو الوحيد الذي فعلها: أغوى بنت أختها تحت أنفها مباشرة في ذات منزلها اللطيف. الرجل الذي كان يبيع بضائع السيدات على الناصية ؛ شبح أليف تقريباً في كل عمارة بالبلدة. رجل يحبه أصحاب المتاجر وأصحاب البيوت لأنه كان يضع لعب الأطفال في صفّ منظّم حين يتركونها مبعثرةً على الرصيف. ويحبّه الأطفال لأنه لم يترصّدهم أبداً. ويحبه الرجال لأنه لم يكن يغشّ في لعبة، ولم يشجّع على قتال غبيّ، أو يحمل حكايات، ويدع النساء في حالها. كانت تحبّه النساء لأنه يشعرهن بأنهن بنات ؛ وتحبّه البنات لأنه يشعرهن بأنهن نساء - إنه، فكّرت هي، الذي كانت تفتّش عنه «دوركا». القاتل.

لكن «أليس» لم تكن تخاف منه، ولا -الآن- من زوجته. بخصوص «جو»، فقد كانت تشعر بضراوة ثعبانه الراعشة -في العشب- وهو يسرق الفتاة المسئولة عنها ؛ وبالعار من أن العشب الذي تشعبن من خلاله كان يخصّها - البيئة المراقبة والحارسة، حيث كان بها حمل غير المتزوجة وغير القادرة على الزواج هو النهاية المحتومة لحياتها المعيشة. بعد ذلك - زرب. مجرّد كمين حتى يكبر الوليد بدرجة تكفي لتبرير وجوده في البيئة المراقبة الحارسة.

كانت تنتظر «ڤيولت» بتردّد أقلّ عن ذي قبل، تساءلت «أليس» لماذا هي هكذا. في الثامنة والخمسين دون أي أطفال لديها، أما الوحيدة التي كانت ترعاها ومسئولة عنها فقد ماتت، وتعجّبت من شأن الهستيريا، العنف، ولعنة الحمل دون مقدرة على الزواج. لقد شغل ذلك بال أبويها طوال ما كانت تتذكّرهما. كانا يتحدثان معها عن جسمها بحسم لكن بحذر: (الرجلان مفتوحتان) جلسة بذيئة ؛ (الرجلان منقاطعتان) جلسة نسوانية ؛ التنفس من فمها ؛ اليدان على العجيزة ؛ الارتخاء على المائدة ؛ التقصيع حين تسيرين. لحظة أن كبر ثدياها كانا مقيّدين ومغتاظين، الغيظ الذي زاد إلى كره صريح من احتمالات حملها، ولم يكفّا حتى تزوّجت «لويس منفريد»، عندها فجأة انقلبا إلى العكس. وحتى قبيل الزفاف فقد كانا يغمغمان بشأن الأحفاد الذين يمكن لهما أن يروهم ويحتضنوهم، بينما في ذات الوقت وبدورهما فقد كانا

(*) بمعنى القاسية أو العنيفة. (المترجم)

يقيّدان البروزات الظاهرة والنامية خلف القمصان التحتانية لأخوات «أليس» الصُغريات. تقييد بقع الدم، والعجيزة المستجدّة، والشعر. وبالضرورة لذلك، ملابس جديدة. «آه، ياربي، فتاة!». العبوس حين لايتمكنان من إنزال النتوء أكثر ؛ حزام الخصر يرفض تثقيباً آخر. النموّ الكامل تحت تلك السيطرة الراعية، أقسمت «أليس» ألا تفعل هذا، ولكنها فعلته، لأنها مرّت به. فمررته إلى وليدة أختها، الطفلة الوحيدة. وتساءلت هل كان بإمكانها فعل هذا لو كان زوجها حياً أو باقياً أو لها منه أطفال. فلو كان هناك، جنبها، يساعدها في اتخاذ القرار، لربما لم تكن تجلس هناك ترتقب امرأةً تدعى «ڤيولنت»، وتفكّر أفكار حربٍ. رغم أن الحرب كانت على ما كانت. ذلك كان السبب في اختيارها الاستسلام وأن جعلت «دوركا» سجين حربٍ لها.

النساء الأخريات، على أية حال، لم يستسلمن.على مدار البلاد تسلّحن. لقد عملت «أليس» ذات مرة مع حائك سويديّ له ندبة تمتد من شحمة أذنه وحتى زاوية فمه. «زنجية»، شرح لها. «شرطتني لحدّ الأسنان، لحدّ الأسنان». مصمص شفتيه متعجبا وهزّ رأسه. «لحد الأسنان». في «سبر نجفليد» كانت هناك أربع فتحات بالتساوي في جانب رقبة رجل الثلج، من أربع وخزات ثاقبة بالتساوي من شيء حادّ، مدبّب، ومستدير. جرى الرجال خلال الشوارع في «سبر نجفيلد» و«إيست سانت لويس» والمدينة، قابضين على يدٍ مبلّلة حمراء في يدها الأخرى، وشلوٍ من الجلد في الوجه. وكانوا أحياناً يصلون إلى المستشفى سالمين أحياءً فقط لأنهم تركوا الموسى حيث كان مرشوقاً.

النسوة السود تسلّحن ؛ النسوة السود خطرات، والمال القليل لديهن كان أكثر هلاكاً من السلاح الذي اخترنه. ومن كنّ غير مسلّحات؟ أولئك اللائي وجدن حمايةً في الكنيسة أو في القضاء، أما الربّ الغضوب الذي كان عقابه الإلهي في صفهنّ، فقد أفزعه عزمهنّ. لم يكن تماماً على دربه، آتياً، آتياً ليقوّم الخطايا التي يرتكبنها، كان هنا. انظري؟ انظري؟ إن ما فعلته الدنيا بهنّ يفعل الآن فيها. ألا تنقلب الدنيا لفوضى عليهن؟ بلى، لكن انظري حيثما تبتكر الفوضى. هل يتم تعنيفهن ولعنهن؟ أوه، بلى، لكن انظري، كيف تلعن الدنيا وتعنّف نفسها. هل كانت النسوة مدللات في المطابخ وفي ظهر المتاجر؟ أه هوه. هل سلّطت الشرطة قبضتها في وجوه النساء حتى أن أرواح أزواجهن تحطّمت مع أفواههن؟ هل الرجال (الذين يعرفونهن كغربيات يجلسن في سيارات أجرة) يدعونهن بأسمائهن كل يوم مفردٍ جديد من حيواتهن؟ أه هوه. بل إن كل كلمة كريهة وكل لمحة كريهة، في عيون الربّ وفي عيونهن، ماهي إلا رغبة الحيوان من أجل فحشه. لم يؤدّ الحيوان ماقد أُودّي له، لكن ما تمنّى أن يؤدّيه لنفسه: اغتصب لأنه أراد أن يكون بذاته مغتصباً. ذبح الأولاد لأنه أراد أن يكون ذبيح أولاد. بنى سجوناً لكي يقطن فيها، وتقدّم نحو فساده الخاص. فكان عقاب الربّ بديعاً، وبسيطاً للغاية. أعداؤهنّ نالوا ما أرادوا، فأصبحوا على ما ابتلوا به الآخرين.

ومَن كُنّ غير مُسلّحات، أيضاً؟ اللائي اعتقدن بأنهن لايحتجن لشفرات مطوية، لعُلَب

المسحوق السائل، لشظايا الزجاج المرشوقة بأيديهن. اللائي ابتعن منازل واختزن أموالاً من قبيل الحماية وكوسيلة للشراء. أولئك تعلّقن برجالٍ مسلّحين. أولئك لم يحملن مسدسات، لأنهن تحوّلن إلى مسدسات ؛ لم يحملن مطاوي بالزنبرك، لأنهن تحوّلن إلى مطاوي بالزنبرك، تنغرز خلال الجموع، تصيب التشريعات بمقتلٍ، وتلمّح للدم واللحم الفاسد. أولئك كن ينفخن في قواهن المتبقية غير المسلّحة ليكنّ مستعدات لتحالفات، لنواد، لجمعيات، لجماعات نسوية صمّمت لكي تقبض أو تكبح، تتحرك أو تتلبّث، تفتح طريقاً، مغوياً، سهلاً ومريحا. تطلق السراح، تكفّن الموتى، تدفع الإيجار، توجد غرفاً جديدة، تفتح مدرسة، تدشن مكتباً، تتولى تبرعات، تقلب حال العمارة وترعى بعيونها كل الأطفال. وأي نوعٍ آخر من النسوة السود لم يتسلّح في ١٩٢٦، كان صامتاً أو مجنوناً أو ميتاً.

انتظرت «أليس» هذه المرة، في شهر مارس، المرأة ذات السكّين. المرأة التي يُسمّيها الناس الآن «ڤيولنت»، لأنها حاولت قتل ما يرقد في كفن. كانت تترك رسائل تحت باب «أليس» وكل يومٍ ابتداءً من يناير –بعد أسبوع من الجنازة– فعرفت «أليس منفريد» نوع هاتيك الزوجين الزنجيين: النوع الذي درّبت «دوركا» على خشيته، النوع المربك. بالإضافة إلى أنهما غير محكومين، فقد كانا خطرين. الزوج أطلق النار، الزوجة مقتحمة. لاشيء. لاشيء قد فعلته بنت أختها أوحاولت فعله يمكن أن يساوي العنف الذي عوملت به. وأينما كان هناك عنف، أما من وجود للرذيلة؟ مغامرة. بلوى. كتمان مفزع وكربه. فساتين حمراء. أحذية صفر. وطبعاً، موسيقى تتسارع لحثّهما.

لكن «أليس» لم تكن مرعوبة منها الآن كما كانت في يناير، وكما كانت في فبراير، أول مرة سمحت لها بالدخول. ظنّت أن المرأة لابدّ أن يؤول بها الحال للسجن يوماً – كلهن حدث لهن ذلك في النهاية. لكن لقيطة بسيطة؟ فريسة طبيعية؟ «لا أظن. لا أظن».

في السهرة حول الجثمان، بيّنت لها «ملفون» التفاصيل. حاولت ذلك، عموماً. فكانت «أليس» تميل بعيداً عن المرأة، وتنقبض أنفاسها كمن تحفظ الكلمات في وضعٍ حرج.

«إني أُقدّر اهتمامك» أخبرتها «أليس». «قومي بخدمة نفسك» ولَمّحت باتجاه موائد قد ازدحمت بطعامٍ والمتمنيّات بالبقاء يتحلّقن من حوله. «خير ربنا كثيرٌ».

«أشعر بالأسى البالغ» قالت «ملفون». «كما لو كانت ابنتي».

«شكر الله سعيك».

«أنت تربّين أولادَ الآخرين، وهذا مؤلم بنفس القدر كأنهم أولادكِ. تعرفين سو يتنس، ابن أختي...؟»

«عفواً».

«فعلتُ كل شيء من أجله. كل شيء كأُمّ».

«رجاءً. قومي بخدمة نفسك. هنا خير كثير. كثير للغاية»
«هذان الها لكان العجوزان، يعيشان في عمارتي، تعرفين...».
«أهلاً، فيليس. مبسوطة أنك جئت...».

لم تكن تريد سماع أو معرفة الكثير حينذاك. ولم تكن ترغب في أن ترى تلك المرأة التي بدأوا يدعونها «ڤيولنت» كذلك. الرسالة التي زلقتها من تحت باب «أليس» ضايقتها، ومن ثم أرعبتها. ولكن بعد فترة، عند سماعها تمزّق الرجل وهو يقرأ عناوين صحف «الآدج»، «النيوز»، و«المسنجر»، مع فبراير شحذت همّتها وسمحت للمرأة بالدخول.
«ماذا تريدين مني؟»
«أوه، أرغب الآن فقط في الجلوس على كرسيك» قالت «ڤيولت».
«آسفة. لست أخمّن ماجدوى هذا».
«لديّ اضطراب برأسي» قالت «ڤيولت»، وهي تتلمّس بأصابعها تاج قُبّعها.
«لم لا تستشيرين الطبيب؟»
سارت «ڤيولت» أمامها، منجذبة كمغناطيس لمائدة ركن صغيرة. «هل هذه تخصها؟».
لم تكن «أليس» تحتاج أن تنظر لتعرف على ماذا تحدّق.
«نعم».

تلى ذلك سكوت طويل، بينما كانت «ڤيولت» تتفحّص الوجه الذي لاح من خلال البرواز، فتوترت «أليس». قبل أن تتملكها الشجاعة في أن تقول للمرأة ارحلي، ابتعدت هي عن الصورة قائلة «لست ممن يمكنك أن تخافي منهم».

«لست؟ من أنت إذن؟»
«لا أدري. ذلك ما يؤلم رأسي».
«إنك لم تأتي هنا للإعراب عن أسفك. ظننتُ بأنك قد تفعلينها. ولكنك جئت إلى هنا لتوزّعي بعضاً من شرورك».
«ليس عندي شرور».
«أظن من الأحسن أن تذهبي».
«دعيني أسترح هنا لدقيقة. ألا أجد مكاناً لأجلس فيه فقط. أذلك كان يخصّها؟».
«أجبتك أنه فعلاً هو».
«جلبتَ لك كثيراً من المتاعب؟»
«لا. أبداً. حسناً. القليل».
«كنت فتاة طيبة سنّها. لم أُسبب ذرّة متاعب. كنتُ أفعل كل شيء يخبرني به أي واحد. حتى وصلت هنا. تجعلك المدينة ضائقة النفس». تصرّف غريب، فكّرت «أليس»، لكنها ليست بمزاج دمويّ. وقبل أن تفكّر ألا تدع ذلك يحدث، خرج السؤال. «لماذا فعل مثل هذا الشيء؟».

«لماذا فعلته هي؟»
«لماذا فعلته أنت؟»
«لا أعرف».

في المرة الثانية جاءت، وكانت «أليس» لا تزال تتأمل تلكم النسوة الوحشيات بعُلَب المسحوق السائل، بأمواسهن المشحوذة، بالندوب هنا، هنا وهناك. كانت تشدّ الستارة لعزل النور الذي يتشظّى بعيني الزائرة، وحينها قالت «زوجكِ. يؤذيكِ؟»

«يؤذيني؟» نظرت «ڤيولت» متحيرة.

«أعني أنه يبدو لطيفاً، وهادئاً للغاية. فهل يضربكِ؟»

«چو؟ لا. أبداً، لم يؤذِ أحداً».

«عدا دوركا»

«والسناجب»

«ماذا؟»

«الأرانب أيضاً. الغزلان. الحِجال. الأبوسوم.(*) أكلنا بملء منزل».

«لماذا رحلت؟»

«صاحب البَيت لا يريد أرانب. يريد أموالاً سائلة».

«هم يريدون أموالاً هنا، أيضاً».

«لكن هناك طريقة للحصول عليها هنا. حين جئتُ هنا أولِ مرة، كنت أشتغل عملاً بالنهار. ثلاثة منازل يومياً. جَلَبت لي مالاً طيباً. أما «چو» فقد كان ينظّف سمكاً بالليل. أخذ فترة قبل حصوله على عمل بفندق. وانتهيت إلى قصّ الشعر، چو...»

«لا أريد سماع كل ذلك».

خرست «ڤيولت» وهي تُحملق في الصورة. أعطتها لها «أليس» لتخرج من المنزل. عادت في اليوم التالي، بدت على حالٍ أسوأ مما أوشك ب «أليس» أن تصفعها. بدلاً من ذلك قالت لها «اخلعي الفستان، وسوف أخيط لك الإسورة». كانتِ «ڤيولت» ترتدي نفس الفستان كل مرة، وكانت «أليس» تتوتر من ذلك الخيطَ السائب من كمها، كما أن سراجة المعطف كانت مشقوقة على الأقل من ثلاثة مواضع أمكنها أن تراها.

جلست «ڤيولت» بلِباسها ومعطفها عليها، بينما كانت «أليس» تُصلح الكُمّ بغرزٍ دقيقة. ولم تخلع «ڤيولت» قبّعتها في أي وقت.

«في البدءِ ظننت بأنك جئتِ هنا لتؤذيني. بعدها ظننتُ بأنك تريدين تقديم التعازي. ثم

(*) من حيوانات أميركا، ذوجراب، يتظاهر بالموت عند الخطر. شبيه بالقنفذ. (المترجم)

ظننتُ بأنكِ أردتِ تشكرينني لعدم استدعاء القانون. لكن أياً من ذلك لم يكن، أليس كذا؟»

«كان ينبغي أن أجلس في مكان ما. ظننتُ بإمكاني فعل هذا هنا. أنك يمكن أن تسمحِي لي، وقد فعلت. أعرّفكِ بأني لم أُعط «چو» أسباباً كثيرة للبقاء في الشارع. ولكني أردت رؤية نوعية الفتاة التي كانَ يفضلها عليّ».

«حمقاء. كان يفضّلكِ أنتِ لو كنتِ في الثامنة عشرة، وهذا كل شيء».

«لا. شيء ما أكثر».

«أنت لاتعرفين أي شيء عن زوجك، وليس من المتوقّع أن أقوم بنجدتك»

«أنتَ لاتعرفين أنهما كانا يريان بعضَهما أكثر مني، وأنتِ كنتِ ترينها كل يومٍ كما كنتُ أرى «چو». أعرف أين راح عقلي. فأين كان عقلكِ؟»

«لاتؤدّبيني. لن أسمح لك بهذا».

❖ ❖ ❖

أنهتْ «أليس» الملاءات وبدأتْ في أول مريلة للخصر حين كانت «ڤيولت» تطرق على بابها. من سنين وسنين وسنين كانت تدلّ طرف المكواة إلى لفقة قميصٍ أبيضٍ لرجل. ترطّبها لينعم النسيج ويتدبّب بالنشا. تلك القمصان نفاية الآن. قطع قماشٍ لصدّ التراب، قطع للدورة الشهرية، أسمال تربطَ حول وصلات الماسورة لتصدّ البرودة ؛ ماسكات أوعية، وقطع قماش لاختبار المكاوي الساخنة وللفّ حول مقابضها. وربما فتائل لمصابيح الزيت ؛ وأكياس ملح لفرك الأسنان. والآن تأخذ مرايل الخصر عنايتها الواعية المتأنقة يومياً.

زوجان من ألبسة المخدات، لايزالان ناعمين على الملمس، مرتّبين على المائدة. وكذا ملاءتا السرير. الأسبوع القادم، ربما الستائر. بمرور الوقت، تعرّفت على الطرقة، لكنها لم تعرف أبداً إن كانت شغوفة أو غاضبة حين تسمعها. ولم تهتم. عند مجيء «ڤيولت» لتزورها (لم تعرف «أليس» أبداً متى تجيء) كان شيء ما ينفتح. ربما تجعل القبعة السوداء وجهها أغمق. كانت عيناها مدوّرتين كدولارين من الفضة بل وفي إمكانهما الانزلاق على حين فجأة أيضاً.

المهمّ ما كانت تحسّ به «أليس» وتتكلم في صحبتها بمثله. ليس كما كانت تفعل مع الأخريات. مع «ڤيولنت»، كانت وقحة. مفاجئة. مترخّصة. لا اعتذار ولا مجاملة يمكن اكتسابها أو تكون حتى ضرورية بينهما. لكنه كان شيئاً آخر – ربما، الوضوح. نوعية الوضوح التي يتطلبها المجانين من غير المجانين.

كانت تعيد الآن إصلاح سراجة معطف «ڤيولت» مرة ثانية، أساورها كانت متينة، وهي تحتاج فقط أن تراعي جوربها وقبّعتها لتبدو عادية. أصدرت «أليس» تنهّدة قصيرة، متعجبة من

نفسها وهي تفتح الباب للزائرة الوحيدة التي كانت تتطلّع لزيارتها.
«تبدين متجمدة».
«بقرب نوبة برد» قالت «ڤيولت».
«السير يمكنه أن يرقدك في فراش المرض».
«ولا يهمّك» ردّت «ڤيولت». «كل متاعبي تنتهي لو مرض جسمي بدلاً من رأسي».
«من عندئذ يقص للنساء قصّات الشعر تلك الخيالية؟».
ضحكت «ڤيولت». «لا أحد يمكنه فعل ذلك، ولن يميّز أحد الفرق».
«إن الفرق أكثر من مجردّ قصّة شعر».
«هن نساء فقط، كما تعرفين. مثلنا».
«لا» قالت «أليس». «لا، ليس هكذا. ليس مثلي».
«لا أقصد المهنة. أقصد النساء».
«أوه، رجاءً» قالت «أليس». «فلندع هذا الأمر. أعمل لك بعض الشاي».
«كن نافعات لي حيث لم ينفعني أحد. أنا وجو نأكل من خيرهن».
«لا تحكي لي ذلك».
«أي يوم أقترب فيه من الاقتراض أو أحتاج أكثر، يمكن أن أشتغل طول اليوم أي يوم، على رؤوسهن».
«لا تحكي لي، قلتُ. لا أريد أن أسمع ذلك أو أعرف من أين يأتيهن المال. تريدين شاياً أم لا ؟»
«ييه. ماشي. لم لا؟ لماذا لا تقدرين على سماع هذا؟»
«أوه. الرجال. حياة بغيضة. ألا يخانقن طوب الأرض؟ حين تقصين لهن الشعر، ألا تخافين أن يبدأن الخناق؟»
«حين يفقن فحسب» تبتسم «ڤيولت».
«أوه، حسناً».
«هن يشاركن الرجال، يخانقنهم ويتخانقن عليهم، أيضاً».
«لا ينبغي لامرأة أن تحيا على هذه الوتيرة».
«لا. أي امرأة ينبغي لها ذلك».
«قتل الناس» مصمصت «أليس» بشفتيها. «يجعلني أمرض بمعدتي». صبّت الشاي، ثم رفعت فنجاناً وطبقه، وأعادته بأثناء ما كانت تنظر على «ڤيولت».
«لو كشفت معدنهم قبل أن يقتلها هو، أتفعلين مافعلت ؟»
«قد». ناولتها «أليس» الشاي. «أنا لا أفهم النساء على شاكلتك. النساء أصحاب السكاكين». وخطفت بلوزة بكمّ طويل وفردتها على رقعة الكيّ.
«لم أولد بسكّين».

«لا، لكنك التقطت واحدة».

«ألم تفعليهَا ذات مرة؟» نفخت «ڤيولت» في الشاي فترقرق.

«لا، لم أفعلها قط. حتى حينما هرب زوجي لم أفعلها قط. وأنتِ. لم يكن لديكِ عدوٌّ يستحق. شخص يستحق القتل. فالتقطت سكيناً لتنتهكي فتاة ميتة».

«لكن هذا كان أفضل، أليس كَذلك؟ فالضرر قد تمّ فعلاً».

«هي لم تكن العدوّ».

«أوه، بلى كانت. هي عدوّي. حينذاك، عندما لم أعرف ذلك، ولا الآن أيضاً».

«لماذا؟ ألأنها كانت شابة وجميلة وأخذت منكِ زوجكِ؟»

رشفت «ڤيولت» من شايها ولم ترد. بعد صمت طويل، وبعد انقلاب حديثهما إلى التوافه ومن ثمّ إلى ضائقة العيش، قالت «ڤيولت» لـ «أليس منفريد»: «ألم تفعليها؟ ألم تحاربي من أجل رجلك؟» كان الخوف مبذوراً في طفولتها، مروياً كل يوم من حينها، خوف تبرعم من خلال أوردتها طَول عمرها. فكّرت أفكار حربٍ كانت مجمّعة لديها، ولكنها ازدهرت إلى شيء آخر. والآن، بينما كانت تنظر على هذه المرأة، سمعت «أليس» سؤالها، وكأنه فرقعة مسدّس لعبة.

بمكان ما في «سبرنجفليد»، أسنان فقط هي التي بقت. ربما الجمجمة، ربما لا. لو حفرتْ عميقاً هناك بدرجة كافية ومزّقت الغطاء، فلا بدّ أنها ستتأكد أن الأسنان هناك بالطبع. لاشفاه تشارك بها المرأة التي شاركتها. لا أصابع كي ترفع عجيزتها في حين كان هو يرفع الأخرى. فقط الأسنان مكشوفة الآن، لا شيء مثل البسمة التي جعلتها تقول «اختر». وهو فعل.

ما أخبرته لـ «ڤيولت» كان حقيقة. فهي أبداً لم تلتقط سكّيناً. وما أهملت قوله –والذي طفا عائداً إليها الآن– كان أيضاً حقيقة: كل نهارٍ وكل ليلة ولمدة سبعة أشهر، كانت هي، «أليس منفريد»، متعطّشة للدماء. ليس هو. أوه، لا. بالنسبة له، فقد خطّطت لوضع السكّر في موتوره، مقصّ إلى كرافتته، حرق بذلاته، تمزيق أحذيته، شقّ جواربه. أفعال عنف شريرة، بل طفولية، لتربكه، وتذكّره. لكن لا دماء. استقرّت حاجتها الماسّة على سائلٍ أحمر يتجمّع في أوردة المرأة الأخرى. إلصاق قطعة ثلج ونزعها لابد يفعل هذا. هل حبل من غسيلٍ يلتف حول عنقها ثم يشدّ بكل عنفوان «أليس» فيجعلها تبقبق؟ على أي حالٍ، كان حلمها المفضّل، والذي يغطس مخدّتها ليلاً، أن ترى نفسها على صهوة جواد، تعتليه، ثم تجد المرأة وحدها في الطريق، فتَعدو بالجواد حتى تهرسها من تحت أربعة حوافر حديدية؛ ثم ترجع ثانية، وثانية، حتى لا يتبقّىّ منها شيء سوى قذرٍ معذّب على الطريق، يشير إلى حيثما كانت الفاجرة.

لقد اختار؛ وكذلك هي. وربما بعد هرولة سبعة أشهر بلياليها على جوادٍ لم تكن

تتملكه أو تعرف كيف تعتليه، على جسد مهصور، ومنتفض، لامرأة تلبس حذاءً أبيض في الشتاء، وتضحك عالياً كالطفلة، ولم ترَ أبداً قسيمة زواج - ربما كان لابد أن تفعل شيئاً وحشياً. ولكنها بعد سبعة أشهر، كان عليها اختيار شيء آخر. البذلة، الكرافتة، القميص الذي كان يحبه أكثر. ظنوا أنها هي لم تتلف الحذاء. فلا أحد رآه. لكن الجوارب؟ بالتأكيد لابد أن كان عنده جوارب؟ طبعاً، قال الحانوتي. جوارب، بالطبع. لكن ما الفرق، فقد وضعت إحدى المولولات، كانت عدوّها اللدود وقسمتها، على الكفن وروداً بيضاء، وأخذت منها واحدة بلون فستانها. ولمدة ثلاثين عاماً تحوّل إلى مجرّد أسنان في «سبر تجفيلد»، ولم تتمكن لاهي ولا المولولة في فستانها غير الملائم، أن تفعلا شيئاً نحو ذلك.

ضغطت «أليس» على المكواة. «لاتعرفين قدر هذه الخسارة» قالت، بينما كانت تنصت بإحكام سمع لما تحكيه، مع المرأة التي تجلس جنب رقعة كيّها بقبّعة في الصباح.

❖ ❖ ❖

القبّعة، مدفوعة لوراء جبهتها، كانت تمنح «ڤيولت» نظرة مشتتة. ولم يدم طويلاً التأثير المهدىء لشاي «أليس منفريد» الذي أعطتها إياه. بعدها جلست في الصيدلية المتجر ترشف الشعير من خلال شفّاطة، تتساءل من على ظهر البسيطة غير «ڤيولت» الأخرى التي تسير عبر المدينة لم يمسّ بأذىً ؛ فهي تختلس النظر بعينيها وترى أشياء أخرى. أين رأت كرسياً أعزل متروكاً كاليتيم على سور حديقة بموازاة النهر، وقد رأت ڤيولت» الأخرى كيف أن طبقة الجليد به عكست على سواري سكة الحديد السوداء ومض سلاح. أين هي، أخيراً في طابور عند موقف سيارات، تلحظ رسغ طفل بارداً ينتأ من «التي شيرت»، تدعوه ليناولها طرف المعطف، والذي طوته «ڤيولت» الأخرى بحدّة أمام امرأة بيضاء في مقعد الترولّلي الذي تأخّر أربع دقائق. ولو انصرفت عن الوجوه المتطلّعة إليها من خلال نوافذ المطعم، لسمعت «ڤيولت» الأخرى قرقعة الأطباق وسط رياح مارس. لقد نسيت بأي الطرق تدير المفتاح في القفل ؛ ولم تعرف «ڤيولت» الأخرى أن السكّين كانت في قفص الببغاء لا في درج المطبخ، تتذكر «ڤيولت» الأخرى مالم تتذكّره هي: تخليص المقبض من مخالب الببغاء ومنقاره منذ أسابيع. وقد كانت لمدة شهر تفتش عن تلك السكّين. ومن طول ما فكّرت، لم تتذكر ماذا فعلت به. لكن «ڤيولت» الأخرى عرفت، وذهبت مباشرة لفعلتها. عرفت أيضاً مكان سير الجنازة، فهي لايمكن أن تسير إلا بمكان من اثنين، هداها تفكيرها لهذا. فواصلت، وعرفت «ڤيولت» الأخرى أي المكانين وفي أي وقت سليم تصير هناك. تماماً قبل إغلاق التابوت، حين يكون الذين على وشك الشحوب قد شحبوا، وقد هيّجتهم ذوات الأردية البيضاء. ويكون الأدلاّء - شباب من نفس عمر الفقيدة، بفصلها في المدرسة العالية، رؤوسهم حليقة للتوّ، بقفازات شبحية بيضاء - قد تجمّعوا. أولاً، في عقدة محكمة من ستة، ثم ينفصلون إلى خطّين من ثلاثة ؛ يتحركون على ممشى الكنيسة من الخلف حيث يحتشدون محيطين بالنعش. كانوا هم الذين على «ڤيولت» الأخرى أن تدفعهم جانباً، وتشقّ طريقها من بينهم. وقد فعلوا. خطوا جانباً، معتقدين بأنه ربما كان حبّ اللحظة الأخيرة، اليائس من إعلان نفسه قبل أن يرى الوجه النائم وينسى ما كان يكنزه له من حبّ. رأى الأدلاّء السكين قبل أن تفعلها هي. قبل أن تعرف ما سيحدث، توصّلت الأيدي الخشنة للأولاد الأدلاّء - مفاصلها خشنة من رخام وفولاذ، من قذف كرات الثلج بقوة الرصاصة، وكأنها مضارب منذ

سنين، ترمي بهذه الكرات الصلبة على أغطية السيارات، وإلى أراضٍ بأسوارٍ عالية، وحتى إلى النوافذ المفتّحة حيث يسكن المنطورن بالطابق الرابع، هذه الأيدي تقيّد ثقل أجساد هؤلاء الأولاد على الدرابزينات الحديد في «إلبريدجز» — توصّلت هذه الأيدي إلى الشفرة التي لم ترها لمدة شهر على الأقل، وكانت في دهشة أن تراها الآن مصوّبة على وجه الفتاة المتغطرس المحجوب.

ارتدّت عن اللكم، وانبعجت قليلاً، ذراعها كان تحت شحمة أذنها، مثل طيّة الجلد التي لم تكن تحسب تشويهاً على الإطلاق. كان يمكن. أن تدعها على تلك الشاكلة، ؛كطيّة الجلد تحت شحمة الأذن، لكن «ڤيولت» الأخرى لم ترض بذلك، فقد حاربت الأولاد الأدلاّء بأيديهم الخشنة، وكفاهم الوقت، تقريباً. كان عليهم تماماً أن ينسوا أنها عجوز في الخمسين بمعطف ياقته من الفراء وتنسدل قبعتها كلاً على عينها اليمنى، حتى لقد كان غريباً أن رأت الباب إلى الكنيسة، ومن دون أن تتكلّم صوّبت سكّينها على المكان الصحيح. وكان عليهم أن يتخلّوا عن التعاليم التي تلقّوها طوال حياتهم بشأن الاحترام الواجب لكبار السن. لقد تعلّموا هذه الدروس من قوم عجائز بعيون بيضاء لبنيّة تراقب كل ما يفعلونه، وتعلّق عليه، وتخبر بعضهم عن مغزاه. ودروس من عجائز أقلّ عمراً (مثلها هي) يمكن أن يكنّ عماتهم، جداتهم، أمهاتهم، أو صديقات مقربات لأمهاتهم ؛ لايقمن بالوشاية عنهم، بل يقلن لهم ؛ ويمكن أن يوقفوهم عن عمدٍ بكلمة، من مثل «أفسحوا هذه الفوضى للخروج!» صارخة من أي نافذة، أو مدخل، أو منحنى شارع، في نصفي القطر هذين المنغلقين. يمكنهم إفساح الطريق، أو النزول للأدوار التحتية خلف خزانات الثياب، أو الخروج إلى حديقة مهملة، أما الأفضل فأن يظلّوا، في ظِلّ «إلبريدجز»، حيث لانور يهديهم إلى مالا تسمح به هاتيك النسوة، اللاتي لا يعنيهن ابن من ذلك الصغير، مثلاً. وعلى أي حال، فعل الأدلاّء ذلك. نسوا دروس عمرهم، ركّزوا في الشفرة اللامعة العريضة، لأنه من يدري؟ ربما كان في بالها أن تشرطها أكثر من مرة. أو ربما رأوا أنفسهم وهم مرتاعون على مائدة العشاء يحاولون تعليل ذلك لنفس هذه النسوة، أو حتى ليسوع!، للرجال، للآباء، للأعمام، لأولاد العمومة الكبار، للأصحاب، وللجيران ؛ لماذا وقفوا هكذا كمصابيح الشوارع تاركين هذه المرأة ذات المعطف بياقته الفرو تجعلهم يبدون كحمقى لتدمّر مهمة التكريم التي كانوا ارتدوا لها القفازات البيضاء. كان عليهم أن يصرعوها أرضاً قبل تركها تذهب. أما الصوت الذي صدر عن فمها فلم يكن ينتمي لشيء يرتدي معطفاً بل جلداً غير مدبوغ.

حينذاك انضمّ الأولاد الأدلاّء إلى جنب أولئك الرجال العابسين، حاملين «ڤيولت» الأخرى النابحة وهي تركل، ناظرة في ذهول. لم تعد تلك القوية منذ أيام «فرچينيا»، حيث كانت تحمل القشّ وتتعامل مع عربة البغل كرجل في تمام النضوج. لكن عشرين عاماً تقصّ فيها الشعر فى المدينة قد ألانت ذراعيها، وأذابت قشرة الوقاء التي كانت تغطي راحتيها وأصابعها ذات يوم. كان ذلك مثل الحذاء الذي أزال الجلدة الخشنة التي نمت بقدمها العارية، وكذا فقد أزالت المدينة قوة الظهر والذراع التي كانت تفتخر بها. هذه القوة لم تفقدها «ڤيولت» الأخرى،

لأنها سببت للأولاد الأدلاء مع الرجال الناضجين وقتاً عصيباً.

ماكان لـ «فيولت» الأخرى أن تدع الببغاء يذهب. لقد نسي كيف يطير وكان يرتجف فحسب على عتبة النافذة، لكنها حين جرت عائدة من الجنازة، واقعياً رمتها للخارج أيدي الأولاد الخشنة مع الرجال العابسين، فإن كلمة «باحبك» كانت بالضبط مالا تتمكن هي ولا «فيوليت» الأخرى من تحمّل سماعه. حاولت أن تتجنب النظر إليه بينما كانت تسرع ما بين الحجرات، لكن رآها الببغاء وصرخ «احبك» بوهن وهو على قائم النافذة.

لم يرجع «چو»، والذي ضاع منذ ليلة رأس السنة، لا تلك الليلة ولا ما تلاها ليأكل لوبياها أم عين سوداء. جاء «چيستان» و«ستوك» للسؤال عنه، ولإبلاغه بأنهما لن يلعبا الورق الجمعة، وقد تلبّثا بارتباك في الصالة بينما كانت «فيولت» تحدّق فيهما. إذن عرفت بأن الببغاء كان هناك، لأنها ظلت تروح وتجيء على السلالم من باب شقتها إلى الباب الأمامي، لترى إن كان «چو» قادماً في الشارع. قامت بهذه الرحلة في الثانية صباحاً، وأخرى في الرابعة، وكانت تحدّق في الشارع المظلم، كان خالياً سوى من شرطيين اثنين وقطتين تبدوان في الجليد. وكان الببغاء يرتجف، مديراً رأسه الأشقر والأخضر، يقول لها كل مرة «احبك».

«اخرج» أبلغته. «اطلع فِرّ لأي داهية!».

فعلها في الصباح التالي. وكان كل ما رأته، أسفل في السرداب تماماً تحت شرفة المدخل، ريشٌ أصفر خفيف ببقعة خضراء. لم تكن نادته باسم أبداً. كانت تدلّله «ببغائي» كل تلكم السنين. «ببغائي». «احبك». «احبك». هل أكلته الكلاب؟. هل خطفه سائر بالليل وأخذه إلى منزل ليس فيه مرايا كي يرى ملامحه أو رمى إليه ببعض الكعك البنيّ الأملس؟. أو أنه قد تلقيّ الرسالة– قالت «ببغائي» وقال لها «احبك» ولم تردّدها بعدها أبداً ولا كانت نادته باسمٍ – وتوّصل بمحاولة ما أن يطير لبعيد على أجنحة لم تعتد التحليق لست سنوات. أجنحة نمت متصلّبة من عدم الاستعمال، كما كان نور اللمبة في الشقة كئيباً لايدع مجالاً للحديث عن الطيران.

انتهى شراب الشعير، ورغم أنه بدا على معدتها أنها فقدت تقلصاتها، فقد أمرت بآخر واضطلعت به خلف حامل المجلات المستعملة على أحد الموائد القليلة، والتي كان «دچي» قد وضعها هناك بالمخالفة مع القانون، الذي يقول بأنه لو فعل هذا فهو يجعل المكان مطعماً. يمكِنها الجلوس هناك ومراقبة الرغوة تختفي، فتفقد كتل الآيس كريم أضلاعها لتستحيل سائلة، كراتِ ملأْلأة وكأنها قِطَع الصابون المتروك في وعاءٍ ممتلىء بالماء.

كانت تقصد أن تجلب علبة من «د. دي زنيرف آند فليش بيلدر» لكي تخلطه مع مخفوق اللبن المجفّف، لأن مخفوق اللبن بمفرده يبدو عديم الجدوى. كانت العجيزة التي تأتي

بها إلى هنا قد راحت أيضاً، مثلما القوة التي كانت في ظهرها وذراعيها تماماً. ربما كانت «ڤيولت» الأخرى، تلك التي عرفت أين سكّين الجزارة وكانت قوية بدرجة تكفي لاستخدامها، قد كان لها هذه العجيزة التي فقدتها هي. ولكن لو أن «ڤيولت» الأخرى كانت قوية ولها عجيزة، فلماذا كانت تفخر بمحاولتها قتل فتاة ميتة، والذي كانت تفتخر به هي أيضاً. حينما كانت تفكّر في «ڤيولت» الأخرى، وما قد رأته «ڤيولت» الأخرى من خلال عينيها هي، كانت تعرف أن ليس ثمة عار هناك، ولا اشمئزاز. ذلك كان يخصها هي وحدها، ولذلك فقد اختفت خلف الحامل عند واحدة من موائد «دچي» غير القانونية، بينما كانت تلعب بالشفّاط في شعير الشكولاتة. كان يمكنها أن تكون في الثامنة عشرة هي نفسها، مثل تلك الفتاة التي عند حامل المجلات، تقضي فترة في الصيدلية االمتجر تقرأ في «كوليبرز». هل كانت «دوركا»، وهي حيّة، تحب قراءة «كوليبرز» ؟ «ليبرتي مجازين» ؟ وهل كانت النساء الشقراوات ذوات الشعور القصيرة يأسرنها ؟ أم هم الرجال بأحذيتهم الجولف وچاكتاتهم برقبة السبعة ؟ كيف يكون ذلك وقد وجدت نفسها تتعلق برجل عجوز في مثل عمر أبيها ؟ رجل لايحمل مضرب جولف بل شنطة عيّنة لمستحضرات كليوباترا. رجل لم تكن مناديله قطنية رقيقة ناتئة من جيب چاكتته، بل حمراء عريضة ومنقّطة بنقاط بيض. هل كان يطلب منها أن تدفىء بجسدها حفرته في الفراش ليالي الشتاء القارسة قبل أن ينسلّ إليها ؟ أم أنه كان الذي يفعل ذلك من أجلها ؟ ربما كان يسمح لها بأن تضع ملعقتها في وعاء قشدته لتغرف الجزء الذائب، وحينما يكونان جالسين في الظلام بمسرح لنكولن، ألم يكن يبالي ولو قليلاً أن تلصق يدها بأسفل علبة الفشار عنده لتخرج بقبضة منه، ابن القحبة. حين تهلّ أغنية (أجنحة على الأردن) فلربما كان يدير الصوت خافتاً ليتمكّن من سماعها وهي تغنّي مع الجوقة، بدلاً من ذلك الصوت العالي، حتى ليجذبه أداؤها في «أرقد جسدي». ويدير مخلبه أيضاً نور اللمبة حتى يمكنها أن تقبض —ما بين ظفري إبهاميها— جذر الشعر المشتبك في الثقب، الكلبة. وشيء لعين آخر. (صار الشعير حساءً الآن، بارداً وأملس). كان قد فاز بجائزة إضافية بخمسة وعشرين دولاراً: أباچورة مخدع امرأة زرقاء المظلّة أو روب حريمي بلون الأرجوان شبيه بالساتان، وذلك لأنه باع كل مالديه من سلع في شهر واحد – هل وهبها لها، هذه العجلة ؟ كان يأخذها إلى «إنديجو» يوم السبت، يستريحان على الطريق فيمكنهما سماع الموسيقى في الخلاء والظلام بنفس الوقت، على أحد تلكم الموائد المستديرة ذات القرص الأسود الأملس بمفرشه الأبيض تماماً عليه، ويشربان «الچن» القوي بالهراء الأحمر اللذيذ فيه الذي يبدو كفقّاعة الصودا، حيث كان من المفروض على فتاة مثلها أن تطلبه بدلاً من ذلك الكحول المقطّر والذي ترشفه من حافة كوب فمه أوسع من قاعدته، وتكون سويقة الزهرة ما بين أصابع يدها، التي لاتمسك بالكوب الذي كان على شكل زهرة، يدها التي هناك تحت المائدة تنقّر إيقاع طبل على باطن فخذه، فخذه، فخذه، فخذ، فخذ، وكان قد اشترى لها لباساً تحتياً مخيطاً يبدو كأنه براعم ورد وبنفسج، بنفسجات (*)، ألا

(*) VIOLETS تتذكّر اسمها وهي تشرح شكل ذلك الشيء. (المترجم)

تعرفين، وكانت تلبسه له رقيقاً وبارداً تماماً في غرفة لاتعوّل على تدفئة تعمل خلال الظهيرة، بينما كنت أين؟ أنزلق على الجليد أحاول الوصول لمطبخ واحدة كي أقصّ لها شعرها؟ أو أركض إلى مدخل بعيداً عن الريح أنتظر الترولّلي؟ أينما حلّ ذلك، كان لباسها بارداً وكنت أنا بردانة فلا أحد قد دخل قبلي في ملاءات السرير ليدفيء البقعة لي أويمدّ يديه من حول أكتافي ليجذب اللحاف لأعلى ما تحت رقبتي أو حتى إلى أذنيّ لأن ذلك مانع للبرد أحياناً، وربما كان ذلك السبب في أن سكّين الجزارة ارتطمت بحدّ الرقبة جنب شحمة الأذن تماماً. ذلك كان السبب. السبب في أنّهم أخذوا وقتاً طويلاً بسحبي لتمريغي أرضاً، وإبقائي هناك بعيداً عن الكفن الذي كانت به العجلة التي أخذت ما كان لي، ما اخترته، التقطته، وصممت على أن أناله وأواصل معه، لا، إنّ «ڤيولت» الأخرى ليست شخصاً يتجوّل عبر البلدة، يروح ويغدو في الشوارع مرتدياً جلدي ومستخدماً عيوني، خراء، لا، إن «ڤيولت» الأخرى هي أنا! الأنا التي جرجرت القشّ في «فرجينيا» وقادت بغالاً أربعة باللجام. لقد وقفت في حقول القصب بمنتصف الليل حين خشخش صوته مخفياً سعي الحيّات فسكنت أرتقبه ولا أتحرّك قيد أنملة لربما كان قريباً وقد أفقده، واللعنة على الحيّات، رجلي كان قادماً لي ومن هو أو ماذا سيمسكني عنه؟ مرات كثيرة، مرات كثيرة كنت أتحمّل لكمات جنوبيّ أبيض ريفيّ بوزن طنّين لأني كنت أتأخّر على طابور الحقل في الصباح التالي. مرات كثيرة، كثيرة كنت أقطع الخشب المطلوب مرتين إلى كتل صغيرة ومواد إضرام ليتأكّد المتبجّحون بأن عندهم ما يكفي ولن يتذمّروا مني. حينما أرتبط بلقاء حبيبي «چو» فلا شيء يهمّ، وأفعل ما تهمّين به أو ربما يهمّ به حبيبي «چو تريس». حبيبي. الذي اخترته من بين كل الآخرين فلم يكن أحد شبيهاً بـ «چو» يمكنه أن يجعل واحداً ينتظره بمنتصف الليل في حقل القصب؛ يجعل أي امرأة تحلم به مستوحشة في عزّ النهار حتى ليفوتها الأخدود ويكون عليها أن تعمل جاهدة لإرجاع البغال على المدقّ. أي امرأة، ليس فقط أنا. ربما كان ذلك ما ارتأته هي. ليس رجل الخمسين الحامل شنطة العيّنة، بل حبيبي «چو تريس»،حبيبي الفرجيني «چو تريس» والذي كان يشعّ نوراً من داخله، والذي كتفاه نحيلان في رقّةالموسى، كان ينظر لي بعينين ذاتي لونين مختلفين ولا يرى أي أخرى. هل نظرت إليه هي ورأت ذلك منه؟ تحت المائدة في «إنديجو»، هل كانت تنقّر على فخذه الناعم كنعومة الطفل وحتى تحسّ بالطريقة التي عبّدته بها كل تلك الهنيهة أنه انشدّ بجلده تماماً ليكاد ينشق فتدفع العضلة الحديد من خلاله؟ هل شعرت بذلك،عرفت به؟ ذلك وأشياء أخرى، أشياء لابد أني عرفتها ولم أعرفها؟ أشياء سرية ظلت مخفية عني، أو أشياء لم ألحظها؟هل ذلك كان السبب أنه تركها تغرف الجزء الذائب من حول حوافّ وعائه بالآيس كريم، وتلصق يدها تحت كيس فشاره بالملح والزبدة. ما الذي رأته، فتاة صغيرة كهذي، لم تكد تتخرج في المدرسة العالية، روج الشفة لأول مرة والحذاء بكعب عالٍ؟ وماذا فعل هو؟ شابةً كنت بجلد أصفر للغاية بدلاً من الأسود؟ شابةً كنت بشعر مموّج طويل بدلاً من القصير؟ أو أني لم أكنّ أنا على الإطلاق. أنا التي كان يحبها هو في «فرچينيا» لأن تلك البنت «دوركا» لم

تكن هناك بعدُ بأي مكان. هل كان؟ ومَن كان؟ مَن كان يُفكّر فيه وهو يجري في الظلام ليقابلني في حقل القصب؟ شخص ما ذهبيّ، كأنه ولدي الذهبيّ، والذي ما رأيته بتاتاً، لكنه مزّق بنوتتي وكما لو كنا أفضل العاشقين؟ انجدني ياربّ انجدني لو كان الأمر عليّ هكذا، لأني قد عرفته وأحببته أكثر من أي واحد عدا «تروبيليه»، تلك الوحيدة التي جعلتني أجنّ به في المقام الأول. هل كان ذلك ما حدث؟ كان واقفاً في حقل القصب، يحاول الإمساك بفتاة لم يرها بعد،ولكن قلبه عارف بكل شيء عنها، وأنا، كنت تعلّقت به؛ ولكنني تمنّيت مالو أنه الولد الذهبيّ الذي لم أره أيضاً. أيهما كان يعني من أول البداية أني كنت البديل وكذلك كان هو.

صرتُ أهدأ الآن، لأن الأشياء التي لم أتمكّن من قولها خرجت من فمي رغماً عني. صرتُ أهدأ الآن، لأني لا أعرف ما الذي ستضطلع به يداي بعد أن ينتهي عمل النهار. كان الأمر يواصل داخلي حتى ظننت بأنه ليس أمري ولا أمر «جو» أيضاً، لأنه كان عليّ احتضانه بأية وجهة أدركها، أما كوني مجنونة فسيجعلني أخسره.

كان جلوسها –في النور الحادّ الرقيق بالصيدلية المتجر، تلعب بملعقة طويلة في كوب طويل– يجعلها تفكّر في امرأة أخرى تحتلّ نفسها عند مائدة، تتظاهر أنها تشرب من الكاس. أمها. لم ترد لها هذا. أوه، أبداً، مثل هذا. أن تجلس إلى المائدة، لوحدها في ضوء القمر، ترشف قهوة مغليّة من فنجان صينيّ أبيض، ترشفه طويلاً مثلما كان هناك، وتتظاهر بأنها ترشفه عندما خلص؛ تنتظر الصباح حتى يجيء الرجال، يتكلمون بخفوت كأن لا أحد غيرهم هناك، ويتخيّرون من أشيائنا، يأخذون ما يريدون – ما كان لغيرهم، قالوا، رغم أننا طبخنا فيه،، غسلنا ملاءاتنا فيه، جلسنا فيه، أنهينا طعامنا فيه. وكان ذلك بعد أن جرجروا المحراث لبعيد، والمنجل، والبغل، والخنزيرة، وخضّاضة اللبن، وحلأبة الزبد. ثم جاؤوا داخل البيت، وكلّنا أطفال نضع قدماً على أخرى ونرقب. حين وصلوا إلى المائدة، كانت أمّنا تجلس حاضنةً كاساً فارغة، فاستولوا على المائدة من تحتها، وعندها، بينما كانت تجلس وحدها هناك، بكلّ كيانها، وكأنها الكاس في اليد، رجعوا وأمالوا الكرسيّ الذي تجلس فيه. لم تنط منه مباشرة، فهزّوه قليلاً، ولأنها كانت جالسةً لاتزال –تنظر أماماً على لا أحد– فقد أمالوها بعيداً عنه، مثل الطريقة التي تبعدين بها قطة عن المقعد لو لم تكوني تريدين لمسها أو التقاطها بذراعيك. فتميلينها أماماً وهي تهبط إلى الأرض. لا يصير أذىً ما دامت للقطة أرجل أربعة. لكن شخصاً، امرأة، ربما تنكفيء، وتظل هناك لدقيقة تنظر على كاسها، أشدّ بأساً مماهي عليه، غير محطومة على الأقلّ بل ترقد قليلاً على يدها. فقط بعيدة عن التناول.

كان هناك خمسة منهن، ثالثتهن «ڤيولت»، كل منهن جاءت أخيراً مناديةً ماما؛ كلهن جئن وقلنها حتى قالت هي «أه هوه». ولم يسمعنها أبداً تقول أي شيء آخر في الأيام التي تلت ذلك، حيث تكّومن في كوخ منعزل، معتمدات كليةً على الجيران القلائل المتبقّين من ١٨٨٨ – والذين لم ينتقلوا غرباً إلى «كانساس سيتي» أو «أوكلاهوما»؛ ولاشمالاً إلى «شيكاغو» أو

«بلومنجتون إنديانا» . كن إحدى العائلات التي تأخّر بها الرحيل، فمالت إلى «فلادلفيا»، حتى وصلت الرسالة بمحنة «روز دير» إلى «تروبيليه» . أولئك الذين بقوا، أحضروا لها أشياء: حشيّة قشّ، آنية، وعاء للخبز، ودلو للحليب. نصيحة أيضاً: لاتدعي هذا يسوطك، يا «روز» . لقد بعثك الله إلينا، «روز دير» . فكّري في أولئك الصغار، يا «روز» . فهو لن يوهبك شَيئاً لست بقادرة على تحمّله، يا «روز» . ولكن هل فعل؟ ربما فعلها لمرة واحدة. أساء فهم والحكم على عمودها الفقريّ. هذا لمرة واحدة. نتوء العظم هذا هنا.

حين سمعت «تروبيليه» أم «روز» بذلك، جاءت. تركت وظيفتها الهيّنة في «بلتيمور»، وكانت قد خاطت عشرة دولارات منفصلات في جونلاتها لتكون بمأمن، عادت إلى محطة صغيرة تدعى «روما» في مقاطعة «ڤسبر»، لتحمّل المسئولية وتولّي الأمور. وقد كانت الفتيات الصغار يقعن في الغرام مباشرة، ولكن عادت الأشياء لسيرتها الأولى. جعلت «ترو بيليه» الأشياء منتظمة، ببطء ولكن بثبات، ولمدة أربع سنوات قريباً. حينذاك قفزت «روز دير» في البئر، وضاع عليها كل المرح. بعد أسبوعين من دفنها، وصل زوج «روز» محمّلاً بقوالب مذهّبة للأطفال، وقطع الدولارين للنسوة، وزيت الثعبان للرجال. وأحضر وسادة حرير مزخرفة لأجل «روز دير» كي تريح بها ظهرها على كنبة لم يمتلكها أحد قبلها، ولابد ستكون لطيفة تحت رأسها حقاً في صندوق الخشب الصنوبر – فقط لو كان وصل في الوقت المناسب. أكل الأطفال الشكولاتة من قوالبها المذهّبة وتاجروا بالورق السماوي اللون ما بين أنفسهم للحصول على مزامير القصب وصنارات الصيد. عضعضت النسوة قطع الفضّة قبل صرّها بحزم في ملابسهن. عدا «تروبيليه» . مسّت المال، وحين مرّرت بصرها من قطعة العملة إلى زوج الابنة، هزّت رأسها وضحكت.

«اللعنة» قال. «آو، اللعنة» عند سماعه ما قد فعلته «روز» .

بعد إحدى وعشرين يوماً رحل ثانيةً، وتزوّجت «ڤيولت» من «جو»، وكانت تعيش في المدينة حين سمعت من أختٍ لها أنه فعلها مرة أخرى: وصل إلى «روما» بكنوز تثقل جيوبه وملفوفة من تحت كاب رأسه. كانت رحلات عودته جريئة وسرية لأنه كان عضواً بأعلى سلطة في حزب «ريد چستر»، وحين لايجدي الإلحاح اللفظي من قبل ملّاك الأراضي، يقوم بالخدعة أحد الأقوياء بدنياً، ويقتنع هو بأن ينقل نفسه لمكان اخر، أي مكان، آخر. وربما يخطّط لإيجاد طريقة لطردهم جميعاً ؛ وفي نفس الوقت كان يقوم بدورات خطيرة، خرافية وعجيبة، على مدار السنين، رغم أن الفواصل ما بينها صارت أطول وأطول، وبينما أصبح احتمال أنه لازال حياً أكثر وهناً، فلم يعد الأمل مجدياً. ربما يكون هناك، في أي وقت، في أي يوم اثنين هشّ البرودة أو في ليلة أحد بحرّها المنصهر، صفير بومة في الطريق، هزء، شيكات دولارية مقحمة ببروز من كابه، أو مثبّتة بإحكام في ثنية بنطلونه وبوز حذائه. وفي جيب معطفه يكون الملبّس بالكوم مع علبة دهان الشعر المصري «فريدة» . زجاجات عطر الجودار، المياه المطهّرة، وماء تواليت لكل زينة متخيّلة تؤدّي فعالية، كل ذلك كان يصحبه في حقيبته المكسوّة بالقطيفة.

لابدّ أنه الآن في سبعينيات عمره. أبطأ بالتأكيد، ربما فقد الأسنان التي تصنع البسمات فتجعل الأخوات يسامحنه. بالنسبة لـ «ڤيولت» (كما بالنسبة لأخواتها ولمن بقي في المقاطعة) فقد كان دائماً هناك بمكانٍ ما، تشيله وتحطّه المباهج ليوزّعها على ناس بيته. وبالنسبة للذين يعوّقونه، فقد كان «بابا نويل» المتحدّي كل يوم بتوزيعه الهدايا والحكايا التي تسرّهم فينسون للحظة دواليبهم نظيفة العظم أو تربتهم المجهدة؛ أو يحلمون بأن ساق طفلٍ لهم ستقوّم اعوجاجها مع الأيام. ينسون لماذا رحل في المقام الأول وأجبر على الانسلال إلى أرض موطنه. سقط في غفران جماعته مثل حبّ اللّقاح. لكن بالنسبة لـ «ڤيولت»، فإن حبّ اللّقاح ذاك لم يمح «روز». في وسط انبعاث البهجة من وجود هذا الأب الشبحيّ، البهجة من توزيع سخائه الصادق والزائف معاً، لم تنس «ڤيولت» شخص «روز دير» أو المكان الذي رمت بنفسها فيه – المكان الضيق، والمظلم للغاية، حتى أنها تنفّست بالراحة الكاملة حين رأتها ممدّدة بصندوقها الخشبيّ.

(شكراً للربّ على الحياة) قالت «تروبيليه»، (وشكراً للحياة على الموت).

«روز». «روز دير» الغالية.

إني أتساءل، ماذا كان هذا الشيء، الشيء الوحيد والنهائي الذي لم تكن قادرة على تحمّله أو تكرار فعله؟ هل هو آخر غسيل أتلفت فيه البلوزة بحيث لم تعد تتحمّل أي إصلاح فتغير اسمها إلى هلاهيل؟ ربما وصلتها كلمة عن أيام الشنق الأربعة في جبال روكي: الرجال في الثلاثاء، والنساء بعدهم بيومين. أو أنباء المغنيّ الشاب في تلك الفرقة والذي بتروا أعضاءه وربطوه في جذع، وقد رفضت جدته التخلّي عن بنطلونه الذي فرّغوه، غسلته مرات ومرات برغم أن البقعة قد زالت من الشطفة الثالثة. دفن في سروال أخيه بعدها دلقت المرأة العجوز دلواً آخر من الماء النظيف. ربما كان ذلك صباحاً بعد ليلة حاجتهن الماسة (والتي أمّلن فيها) أن يخرجنها باليد؟ بعدها أزف الحنين، حين هززنها قبيل الفرار مؤمّلات في أن تعود ويستردّنها ككرة المطّاط الهندية؟ أم أنه كان ذلك الكرسيّ الذي أمالوها من عليه؟ هل سقطت على الأرض راقدةً هناك وقررت حينذاك أن تفعل هذا فعلاً. يوماً ما. لقد أخّرته أربع سنوات حتى جاءت «تروبيليه» وتولّت الأمور، فكانت تنظر لألواح الأرضية وكأنها باب، مغلق ومسدود. هل رأته كحقيقة متجردة في فنجان صينيّ غير قابل للكسر؟ وقد أرخت العنانَ لوقتها حتى عادت اللحظة– بكل موائها المؤذي وهياجها الزائد عن الحدّ –فأمكنها أن تصرف نفسها عن الباب والفنجان، لتخطو أماماً تجاه اللامحدود الذي يومىء إلى البئر. ما الذي كانته، إني أتساءل؟

كانت «تروبيليه» هناك، تقوقىء، مقتدرةً؛ تخيط على نور المدفأة، وتزرع الحدائق، وتحصدها نهاراً. تصبّ الشاي بالخردل على جروح البنات وكدماتهن، وتتعهّدهن في المهام اللاتي يقمن بها بحكايا ساحرة عن أيامها في «بلتيمور» والطفل الذي كانت تعنى به هناك. ربما كان الأمر على هكذا: هي تعرف أن بناتها ماهرات الأيدي، أيديهن بأفضل من مهارة

يدها، في النهاية، كانت «روز دير» قد خلا بها الزمان الذي ماعاد يندفق، بل إنها كانت هيكلاً ساكناً حين أمالوها عن كرسيّ مطبخها. لذلك، رمت بنفسها في قاع البئر، وضاع عليها كل المرح.

أما الشيء الهام، أكبر شيء خرجت به «ڤيولت» من هذه الحكاية، هو أن لا تنجب أطفالا أبداً، أبداً. مهما حدث، لاقدم سوداء صغيرة لوليد ترتاح على الأخرى فى حين يصيح الفم الجائع، ماما؟

بينما «ڤيولت» تكبر، لم تكن تلبث في مكانها أو ترتحل. فقد كان البئر يلحس نومها، بل وترعبها نزوة الرحيل. أرغمتها «ترويبليه» على ذلك. كان هناك محاصيل القطن المرحة في «فلسطين»، وكل القاطنين على بعد عشرين ميلاً يقومون بقطفها. سرت إشاعة بأن أجر الفتاة عشر سنتات، وربع دولار للرجل. ثلاثة مواسم مزدوجة كانت على التوالي بطقس رديء، وقد فاقت كل التوقّعات، بعدها جاء يوم كانت الأزهار تتقافز فيه مليئة وقشديّة. لهث الكل، بينما صاحب الأرض كان ينظر شزراً ويتشاحن. مشى عاملاه الأسودان على الصفوف، لمسا الأزهار الرقيقة، وضعا أصابعهما في التربة، وحاولا حلّ لغز السماء. بعدها جاء يوم صبوح، بمطرٍ جديد، وفي الرابع جفّ، كان حاراً وصافياً، ونعِمت «فلسطين» بأنظف قطن رأته من قبل. أنعم من حريرٍ، وخالياً تماماً من السوس، فقد تمّ عزل الحقول منذ سنين، فما عاد له من مكانٍ هناك.

ثلاثة أسابيع. كان لابدّ من إتمام ذلك كله في ثلاثة أسابيع أو أقلّ. كل واحد بأصابعه في شكل نصف قطر بمساحة عشرين ميلاً، يؤجرون على البقعة. قال البعض بأن البالة بتسعة دولارات، في حالة ما لو زرعتها بنفسك ؛ وأحد عشر دولاراً لو لديك صديق أبيض يحمل عنك مؤونة التثمين. وبالنسبة للقاطفين، عشر سنتات في اليوم للمرأة وربع دولار للرجل. فأرسلت «ترويبليه» للذهاب مع الترحيلة الرابعة: «ڤيولت» واثنتين من أخواتها. ركبن طوال الليل، وتجمّعن فجراً، أكلن ما قد مدّ إليهن، وشاركن المروج والنجوم مع الأهالي الذين لم يجدوا غضاضة في اتخاذ طريق العودة بكامله من أجل خمس ساعات نوم.

لم يكن لـ «ڤيولت» موهبة في ذلك. كان عمرها سبعة عشر عاماً، ولكن كانوا يحسبونها على أعمار الثانية عشرة – فتكون بآخرة الصفّ أو تتقابل مع الآخرين وهم عائدون على الصفّ. لهذا السبب وضعوها في القطفة الثانية هزيلة الشجيرات والتي تحوي انتفاخات أقلّ قليلاً كانت متبقية على التويجات من أيدٍ أسرع من يديها. كانت حزينة، تمزّقها الدموع، تكاد أن تقرّر التماس طريق العودة إلى «روما»، حين سقط رجل من على الشجرة مافوق رأسها هابطاً جنبها. كانت راقدة في أحد الليالي، عابسة ومرتبكة، تبعد قليلاً عن أختيها، لكن ليست بعيدةً تماماً. ليست بعيدة تماماً حتى ليمكنها الزحف عائدة إليهما بسرعة لو حدث أن امتلأت

الأشجار بالأرواح الهائمة ليلاً. البقعة التي إختارتها لتفرش بطانيتها فيها، كانت تحت شجرة جوز سمراء بديعة، مزروعة على حافة الغابة لتحدّ فدادين القطن.

لابد أن السقطة لم تكن لحيوان الراكون (★)، لأنه قال أوو. تدحرجت «ڤيولت» لبعيد حتى لصعب عليها الكلام، لكنها نهضت على أربعتها لتحطمه.

«لم يحدث أبداً من قبل» قال الرجل. «أنام في الأعالي هناك كل ليلة. وهذه أول مرة أقع فيها». لم تكن «ڤيولت» ترى ملامحه في وضع الجلوس، وكان أن حكّ ذراعه بعدها رأسه بعدها ذراعه مرة أخرى.

«أنت تنام في الشجر؟»

«لو لقيت واحدةً جيدة».

«لا أحد ينام في الشجر».

«أنا أنام فيها».

«يبدو أنك مغفّل. ربما تكون هناك ثعابين بالأعلى».

«الثعابين تزحف حول الأرض هنا ليلاً. فمن الآن المغفّل؟»

«كدت أن تقتلني».

«ربما لازلت أودّ ذلك، لو لم تُكسَر ذراعي».

«أتمنى لو كانت كُسِرت فعلاً. لم تقطف شيئاً في الصباح وتتسلّق أشجار الناس كذلك».

«لا أقطف القطن. أشتغل في المحلج».

«بم أنك لاتخدم هنا،مستر «هاي آند مايتي» (★★)، إذن فلماذا تنام في الشجر كخفّاش؟»

«أما من كلمة لطيفة عندك لرجلٍ جريح؟»

«بيه: فتّش عن شجرة شخص آخر».

«تتصرفين وكأنك تملكينها».

«وأنت تتصرف وكأنها كذلك».

«افرضي أننا نتشارك فيها».

«ليس أنا».

نهض، هزّ رجله قبل أن يُجرّب ثُقله عليها، ثم عرج تجاه الشجرة.

«لن تصعد هناك ثانية على رأسي».

(★) حيوان ثدبي بشمال أميركا – من اللواحم. (المترجم)

(★★) تتهكّم عليه: ياعالياً، ياجبار. (المترجم)

«سآخذ بالي» قال. «الحبل انقطع. ذلك ما أدّى لهذا». قضّى الليلة في أبعد الأغصان عن التناول. «ترين؟ ها أنا إذن أتعلّق مباشرة هناك. هوب». جلس هناك، وظهره مرتاح على الجذع. «عليك الانتظار حتى تنير الدنيا، رغم ذلك» قال، وكانت «ڤيولت» تتذكّر ذلك دواماً، لأنَ أول أحاديثهما بدأ في الظلام (حيث لايرى أحد من الآخر غير الظلال)وانتهى في فجرٍ أخضر وأبيض، وقت ليلٍ لم يكن لديها من قبل. فهي لن تصحو مرة أخرى أبداً تجاهد في اقتلاع صورة بثرضيق. أو تشهد أول نورٍ بأسىً باقٍ لأنها وجدت «روز دير» ترقص في الصباح، صغيرة للغاية، نحو المياه.

كان اسمه «چوزيف»، وقبل أن تُشرق الشمس – حين كانت مخفية لا تزال في الغابة، لكنها تنعش خضرة العالم والفدادين المبهورة بالقطن الأبيض، مقابل جرح بليغ لأفقٍ من الياقوت – كانت اتّهمته «ڤيولت». ألم يسقط عملياً في حجرها؟ ألم يلبث هناك؟ طول الليل كله، نال ردّها الوقح، متذمّراً، برماً، مستوضحاً، لكنه تكلّم، كلّمها من خلال الظلام. مع نور النهار هلّت بقاياه: بسمته وعيناه المراقبتان الوسيعتان. قميص عليه بدون أزرار مفتوح بعقدة عند الخصر معرّضاً صدره، قد تصوّرته مخدتها الناعمة. قصبتا ساقيه، انبساط كتفيه، خطّ الحنك، والأصابع الطوال – تصوّرت كل ذلك. عرفت أنها لابد أن تحدّق فيه، وحاولت أن تبعد النظر، لكن التناقض في لون عينيه الاثنتين كان يردّ على لحتها كل مرة ومرة. صارت تنفعل حين يبدأ العمال حركتهم، يتسابقون لدعوة الفطور، نازلين من الشجر لإراحة أنفسهم، مصدرين أصوات الصباح – لكنه قال حينئذ «سأعود لشجرتنا الليلة. أين تكونين؟»

«تحتها» قالت، ناهضة من البرسيم كامرأة لديها أشياء هامة لتفعلها.

لم تقلق بشأن ما قد يحدث في ثلاثة أسابيع، في حين أنه من المفترض تأخذ دولاريها والسنتات العشر عائدة إلى «تروبيليه». وكما يظهر جلياً، فقد بعثت بها مع أختيها، ومكثت في المنطقة المجاورة تصطاد عملاً. لم يكن لدى الرئيس ذي القبعة القشّ ثقة فيها، كان يرقبها وهي تعرق جاهدة لتملأ جوالها بسرعة كالأطفال، ولكنها قد صارت أغنية ضاجّة وفجائية في تصميمها.

انتقلت مع عائلة بستة أفراد إلى «تيريل»، وكانت تعمل في أي شيء فقط لتكون مع «چو» قدر استطاعتها. وهناك صارت المرأة الشابة القوية في عنفوان، والتي بإمكانها أن تتعامل مع البغال، وبالة القشّ، والخشب المقطوع، بامتياز، كأي رجل. وأصبح لراحتي يديها ونعلي قدميها وقاء فلم يعد يناسبها لاقفازات أو حذاء. كل ذلك كان لأجل خاطر «چو تريس»، صاحب العينين المزدوجتين، ذي التسعة عشر ربيعاً، والذي يعيش مع عائلة بالتبنّي، ويعمل بالمحالج ونشر الخشب وفي القصب والقطن والذرة، ويقوم بالجزارة عند الحاجة، والعزق، والصيد، ويبيع الجلود والطرائد – كان ذا عزيمة. يحبّ الغابات. يحبها. ولذا، فلم يكن صادماً لعائلته وأصحابه حين وافق على الزواج من «ڤيولت»، لكنه بعد ثلاثة عشر عاماً، وافق أن يأخذ الأخرى إلى «بلتيمور»،

حيث قالت بأن كل البيوت بغُرف منفصلة والماء يأتي إليك – لاتذهب إليه أنتَ. حيث يعمل الملوّنون الرجال في الموانىء بدولارين ونصف يومياً، يجرون الحمولة من سفنٍ أكبر من الكنائس، أو يوقف آخرون السيارة عند باب بيتك ليأخذك لما تريد. كانت تصف بلدة «بلتيمور» التي كانت هكذا منذ خمسة وعشرين عاماً، كما أنها لاهي ولا «جو» يمكنهما السكنى بذلك الحيّ، لم تعرف ذلك، لم تعرفه أبداً، فقد ذهبا للمدينة بدلاً منها. استبدلا أحلامهما في «بلتيمور» بأحلام أخرى أكثر عنفواناً. عرف «جو» ناس المدينة وبعض الذين كانوا هناك وعادوا بحكايا تبدو «بلتيمور» معها وكأنها تدمع. المال المفروض أن تكسبه بأداء عمل خفيف –مثل الوقوف أمام باب، حمل الطعام على صينية، وحتى تنظيف أحذية الغرباء– تحصل منه في يوم على أكثر مما قد تكسبه في موسم حصادٍ كامل. يرمي البيض أدبياً إليك المال – فقط لتظل قريباً: تفتح باب تاكسي، أو تلتقط شنطةَ سفرٍ. وأي شيء تناله أو تعمله أو تجده يمكنك بيعه في الشوارع. وفي الحقيقة، كان هناك شوارع يتملّك فيها الملوّنون كل المتاجر ؛ مجموعات كاملة من رجالٍ ونساء ملونين بديعين، يضحكون طول الليل، ويجمعون مالاً طول النهار. عربات من الصلب تتسابق في الشوارع، ولو ادّخرت كما يقولون، فبإمكانك أن تنال واحدة تقودها على طول ما تمتدّ بك السكك.

أنصت «جو»، لمدة أربعة عشر عاماً، لمثل هذه القصص، وكان يضحك منها. ولكنه كان يقاومها كذلك، حتى أنه –على غير توقّع– غيّر رأيه. لا أحد، ولا حتى «ڤيولت»، أتيح له أن يعرف لِمَ هجر الحقول والغابات والوديان العزلاء السرية. لِمَ تخلّى عن صنارة صيده، عن سكّين دباغته – كل قطعة منها لازالت في صندوقه عِدا واحدةً، بل واقترض حقيبة سفر لما كان يخصهما. لم تعرف «ڤيولت» أبداً ما الذي كان يشعله ويجعله يريد –على حين غرة، لكنه كان أكثر من كل شيء أخيراً– الانتقال إلى المدينة. لقد افترضَتْ بأن العشاء الذي يدغدغ حلمه الجميع لعب دوراً في تغيير رأي «جو». لو كان «بوكر تي.» جالساً يأكل سندوتش دجاج في بيت رئيس الجمهورية بمدينة تدعى العاصمة، قرب المكان الذي قضت فيه «تروبيليه» وقتاً طيباً، فإن كل شيء لابد أن يكون على ما يرام، على ما يرام. أخذ عروسه في قطار ركاب كهربي أذهلهما حتى بظّت أعينهما وداوما الرقص إلى المدينة.

ظنّت «ڤيولت» أن ذلك سيُخيّب أملهما ؛ فلا بد أنها أقلّ جمالاً من «بلتيمور». وظن «جو» بأن ذلك أفضل. عند وصولهما، حاملين كل ما يخصهما في حقيبة سفرٍ واحدة، عرف كل منهما مباشرة بأن أفضل ليست هي الكلمة. فهي كانت الأفضل.

لم يكن «جو» يريد صغاراً أيضاً، ولذا كانت الإجهاضات –مرتان في الحقل، ومرة فقط في سريرها– مزعجة بأكثر منها خسارة. ولابدّ أن الحياة بالمدينة ستكون أحسن من دونهم. عند وصولهم لمحطة القطار أواخر ١٩٠٦، فإن البسمات التي ابتسماها كلاهما للنسوة مع أطفالهم الصغار، كانت تدبدب كالخرز على الحقائب، وتتلامس مع الشفقة. فقد كانا يحبان الأطفال.

يحبانهم، رغماً. خصوصاً «چو»، كان له طريقة معهم. لكن كلاً لم يكن يريد متاعب. بعد سنين، على أي حال، عند بلوغ «ڤيولت» الأربعين، كانت تحدّق فعلاً في المواليد، وتتردّد أمام اللعب المعروضة أيام رأس السنة. وكانت سريعة الغضب حين يرمي أحدهم صغيراً بكلمة حادة، أو تبدو مرأة حاملاً لوليد محرجةً أو مهملة. وكان أسوأ جرح حارق نالته أن رأت امرأة تحضن وليداً على ركبتيها وكأنّها في معبد. فقد تاهت «ڤيولت» مع تربيتةِ يد المرأة وهزهزة ركبتيها للولد الصغير، وعندئذ نسيت يدها القابضة على مكواة لفّ الشعر. جفلت الزبونة وتغيّر لون الجلد فوراً. ناحت «ڤيولت» باعتذاراتها ورضيت عنها المرأة حتى اكتشفت أن عقصة الضفيرة قدَ شاطت مزيلة ما تحتها. برأ الجلد، لكن بقعة خالية ظلت هناك في خطّ شعرها... وكان على «ڤيولت» أن تنسى الأجر حتى تخرسها.

وعلى مرّ الأيام صار الحنين أثقل من الغريزة: رغبة لاهثة ما من سبيل للوصول إليها. كانت تترنّح في عبوديتها أو تتصالب في جهدٍ لتطردها. كان ذلك حين ابتاعت لنفسها هدية؛ أخفتها تحت السرير لتخرجها سراً عندما يفيض بها الحال. بدأت تتخيل كم سيكون عمر آخر طفل أجهضته، الآن. بنت، ربما. بالتأكيد بنت. من كانت تفضّل؟ كيف ستكون فتافيت كلامها؟ وبعد وقت الفطام، كانت «ڤيولت» ستنفخ بأنفاسها في طعام البنت الوليدة، ترطّبه من أجل الفم الرقيق. وفيما بعد، يغنيان سوياً، تأخذ «ڤيولت» خطّ الصوت الألتو، والبنت الصوت السبرانو (*) العسليّ. [ألا تتذكّر، من وقت طويل مضى، كان هناك ولدان صغيران لا أعرف لهما اسماً، جرفتهما أحد نهارات الصيف المشرقة، فضاعا في الغابة، وكنت أسمع الناس يقولون بأن الشمس قد غربت ولمعت النجوم بنورها. رقد الوليدان البائسان في الغابة وماتا. بعد موتهما وضع عصفور الحنّ الأحمر أوراق الفراولة على رأسيهما فعلاً]. آو. آو. بعد ذلك كانت «ڤيولت» تصفّف شعرها لنفسها على طريقة بنات هذه الأيام: قصير، ومقصوص بخفة خطّ على الحواجب؟ خصلتا أذن؟ جزء رفيع مقصوص على الجانب؟ شعر ينزلق على هيئة موجات ليّنة مصفوفة تبعاً لحرف «تي»؟

كانت «ڤيولت» تغرق في ذلك وتحلم بعمق. فقط حين تسطّح ثدياها في النهاية حتى لم تعد بحاجة لمشدّات ترتديها النسوة الشابات لجعل الصدر يبدو وكأنه لولد يافع، فقط حينما فقدت حلْمتاها تسنّنهما، كان جوع الأمومة يضربها بمطرقة. يصرعها ويرهقها. وعندما استيقظت، كان زوجها قد أطلق النار على فتاة صغيرة كان يمكن لها أن تكون ابنتهما بشعرها الذي قد صفّفته للقتل. والتي ترقد هناك نائمة في ذلك الكفن؟ من تتكلّف وضعاً واعياً بالصورة؟ القحبة الماكرة التي لم تقدر مشاعر «ڤيولت» ولو بأقلّ القليل، والتي جاءت للدنيا، فأخذت ما أرادته، واللعنة على العواقب؟ أو كانت فتاة زلابية ماما؟ هل هي المرأة التي نالت الرجل، أم الابنة التي هجرت رحمها؟ كانت تغتسل بمدٍّ من الصابون، والملح، وزيت القندس.

(*) alto: الصوت المنخفض للنساء، soprano : الصوت المرتفع للنساء والأولاد. (المترجم)

ربما كانت مفزوعة، من منزل قاسٍ تماماً. لم تكن تعي بذلك، مالو فشل، أو واجهت بشجاعة سموماً من صنع أم وقبضات أمّ عاجلة، لكان شعرها الآن بأفضل تصفيف في المدينة. بدلاً من هذا، كانت تتعلّق بركب الأطفال السمينة حولها. في فترينات المحلات، وفي عربات الأطفال المتروكة لحظة في الشمس. كانت لا تعي هذا، القحبة أو الزلابية، كلاهما، أمّ وابنة، فقد كان بإمكانهما التجوال عبر «برودواي» معاً وأن تنظرا بغرام للملابس. وكان يمكنهما الجلوس سوياً، بدفء عائليّ في المطبخ، بينما «ڤيولت» تسوّي لها شعرها.

«في زمان آخر» قالت لـ «أليس منفريد» : «في زمان آخر، كان يمكن أن أحبها أنا أيضاً. تماماً كما فعلت أنت. وتماماً كما فعل جو». وكانت تمسك بياقة معطفها وهي تطويه، وارتبكت للغاية حين سمحت لمضيفتها بأن تعلقه، خشية أن ترى السراجة.

«ربما» ردّت «أليس». «ربما. لايمكن أن تعرفي الآن، ولو، صحيح ؟»

«كنت أظن بأنها كانت جميلة. جميلة حقاً. لكنها لم تكن».

«جمالها معقول، أودّ أن أقول».

«أنتِ تقصدين الشعر. لون الجلد».

«لاتخبريني عما أقصد».

«إذن ماذا؟ ماذا رأى فيها ؟»

«عار عليك. امرأة كبيرة مثلك تسألني في هذا».

«لابد أن أعرف».

«إذن اسألي الوحيد الذي يعرف. ترينه كل يوم».

«هل أنت مجنونة».

«لو أنني كنت أريد هذا».

«حسناً. لكني لا أريد أن أساله. لا أريد سماع ماهو مفروض أن يقوله عنها. تعرفين عن ماذا أسأل».

«غفرانكِ لو كنتُ أعرف ما تسألين عنه وليس بمقدوري أن أعطيك إياه. ليس هذا في طاقتي».

«لا، ليس هكذا. ذلك ليس هو، غفرانك».

«ماذا، إذن؟ لاتثيري شفقتي. لن أتحمّل منك أن تثيري شفقتي. هل تسمعينني ؟»

«كلانا مولود في نفس الوقت، أنا وأنت»، قالت «ڤيولت». «نساء نحن، أنا وأنت. احكي لي شيئاً حقيقياً. لا تقولي أنا كبيرة فحسب وينبغي أن أعرف. لست هكذا. أنا في الخمسين ولا أعرف شيئاً. ماذا في ذلك؟ هل لأني أمكث معه؟ أريد، أظن. أريد...حسناً، لم أكن دائماً... أعرف ما أريد. أريد شيئاً يستحقّ في هذه الدنيا».

«اصحي. يستحق أو هزيل، فقد نلتِ شيئاً واحداً فقط. وهذا هو».

«أنتِ لاتعرفين أيضاً، صحيح ؟»

«أعرف بدرجة تكفي أن أعرف كيف أتصرّف».
«هل الأمر هكذا؟ هل الأمر كله هكذا؟»
«هل كان الأمر كله على هكذا؟»
«أوه، خلاص! أين هم كبار السنّ؟ هل هم نحن؟»
«أوه، ماما» قالت «أليس منفريد» دون تفكير، وغطّت فمها بعدها.

كان لدى «ڤيولت» نفس الفكرة: ماما. ماما؟ هل هذا ماتوصلت إليه، ولا يمكن أن تفعلي شيئاً بعده؟ مكان ظليل دون أشجار، تعرفين بأنك غير موجودة فيه، ولن تكسبي حبّ أي امرىء مرة أخرى لو اختار أن يفعل لكِ هذا؟ بينما كلّ شيء ينتهي غير الكلام؟

كانتا تنظران متباعدتين عن بعضهما حينذاك. استمرّ الصمت ودام حتى قالت «أليس منفريد»: «اعطني هذا المعطف. لست أقدر أن أرى هذه السراجة دقيقة أخرى». نهضت «ڤيولت» وخلعت معطفها، خلعته بحذرٍ من ذراعيها المشتبكين بالحرير الرثّ. ثم جلست تراقب الخيّاطة وهي تقوم بعملها.
«كل ما بإمكاني أن أفكر فيه هو أن أتخطّاه مثلما تخطّاني».
«حمقاء»، قالت «أليس» وهي تقطع الخيط.
«لا يمكن أن أناديه باسمه لو توقّفت حياتي على هذا».
«أراهن أن يفعلها هو».
«خلّه».
«ما الّذي تظنينه قد يحلّ الأمر؟» لم ترد «ڤيولت».
«هل فِعل هذا منك يلفت انتباه زوجكِ؟»
«لا»
«أتودّين نبش قبر بنت أختي؟»
«لا»
«هل أقولها ثانية؟»
«حمقاء؟ لا. لا، لكن أخبريني، أقصد، أنصتي. إن كل مَن كبُرنا معه، قعيدُ بيته الآن. ولا أطفال لدينا. وهو من نلته. هو من نلته».

«لا تبدين هكذا» قالت «أليس»، وهي تخيط غُرزاً لا تُرى للعين.

في آخر مارس، كانت «ڤيولت» جالسة في الصيدلية المتجر «دجي»، تلعب بملعقة، وتستدعي الزيارة التي قامت بها لـ «أليس» هذا الصباح. جاءتها مبكراً. وقت روتينيّ وليس لدى «ڤيولت» ما تؤدّيه.

«هذا مختلف عما كنتُ أفكّر فيه» قالت «مختلف».

وكانت «فيولت» تقصد عشرين عاماً من الحياة في مدينة هي الأفضل على الإطلاق، لكن «أليس» لم تكن سألتها ما الذي تقصده. لم تكن سألتها إن كانت المدينة -بكل شوارعها الممهّدة- قد أثارت الفضول أخيراً لأي شيء عدا الحماقة. أو أنها كانت المدينة التي جلبت نوعاً ملتوياً من الحداد لشابةٍ خصمها كان يمكن أن يكون ابنتها.

كانتا تتكلمان عن العواهر والنسوة المكافحات - «أليس» مُحنقة؛ «فيولت» حيادية. بعدها حلّ صمت، بينما كانت «فيولت» تشرب الشاي وتنصت لهسيس المكواة. في هذه المرة كانت المرأتان تتباسطان مع بعضهما البعض حتى أن الكلام لم يعد ضرورياً أحياناً. «أليس» تكوي، و«فيولت» تشاهد. من وقتٍ لآخر تدمدم إحداهما بشيء - لنفسها أو للأخرى.

«كنتُ أحبّ هذا الهُراء»، قالت «فيولت».

ابتسمت «أليس»، عرفت دون أن ترفع بصرها أن «فيولت» تقصد النشا. «وأنا أيضاً» قالت. «دفعت زوجي للجنون». «هل هذا للطحن بالأسنان؟ أليس هذا طَعمه». هزّت «أليس» كتفيها بلامبالاة. «يعرفه الواحد فحسب». هسّت المكواة على عتمة القماش. أمالت «فيولت» خدّها على راحة يدها. «تكوين مثل جدتي. أعلى الرقبة في الآخر».

«هذا اختبار الكيّ من الدرجة الأولى».

«يكوي البعض أعلى الرقبة في الأول».

«عليك أن تعيدي عليها مرة أخرى. أكره الكيّ الكسول».

«أين تعلّمت الخياطة؟»

«جعلونا نشغل أنفسنا ونحن أطفال. كنا أيدٍ عاطلة، تعرفين».

«أما نحن فكنا نقطف القطن، نقطع الخشب، ونحرث. لم أعرف أبداً معنى أن أطوي يديّ. وهنا، على التقريب، وبقدر الإمكان، لم أكن أعتاد أن أرى يديّ لاتفعلان شيئاً».

أكل النشا، الاختيار لحظة شدّ الحيوان إلى نيّره، الخياطة، القطف، الطبخ، قطع الخشب. كانتِ «فيولتَ» تفكر في ذلك كله وهي تندب. «كنت أظن «جو» لابد أكبر من فعله ذاك. كنت أعرف أنه لن يدوم، ولكني ظننت بأنه لابد أكبر».

أعادت «أليس» طيّ القماشة حول مقبض المكواة الضاغطة. «سيفعلها مرة ثانية، تعرفين. وأخرى وأخرى وأخرى».

«في هذه الحالة أُفضّل بأن أرميه للخارج الآن».

«ثم ماذا؟» هزّت «فيولت» رأسها. «أراقب عندئذ ألواح الأرضية (*)، كما أُخمّن».

(*) تقصد الانتحار، كما فعلتها أمها «روز دير» في البئر. (المترجم)

«أتريدين شيئاً حقيقياً؟» سألتها «أليس». «سأخبرك به. أما من شيء آخر باقٍ لديك تحبينه، أي شيء على الإطلاق، افعلي ذلك».

رفعت «ڤيولت» رأسها. «وحين يفعلها مرة ثانية؟ ألا أهتمّ بما يفكّر فيه الناس؟»
«اهتمي بما هو باق لديك».
«تقولين أن آخذه؟ أن لا أقاتل؟»

وضعت «أليس» مكواتها أرضاً، بعنف. «تقاتلين ماذا؟ ومَن؟ طفلة عديمة التدبير رأت أبويها يحترقان؟ عرفت أفضل منك أو مني أو أي واحد آخركم أن هذه الحياة القصيرة الضئيلة، سريعة وتافهة؟ كأنكِ تريدين، مثلاً، سحق امرىءٍ لديه ثلاثة أطفال وزوج واحد من الأحذية. شخص في رداء مهلهل، ذيله يتجرجر في الطين. شخص يريد ذراعين مثلك، وتريدين أن تذهبي لهناك وتمسكيها، لكن رداءها في الطين، والناس والواقفون حولها لايفهمون كيف تنطفىء عينا ابن آدم، كيف؟ لا أحد يطلب منك بأن تأخذي ذلك. أقول اصنعيه، اصنعيه!»

أخذ ذلك منها لحظة بينما رأت أن «ڤيولت» كانت تحدّق. تتبّعت «أليس» نظرتها، ورفعت المكواة، فرأت ما كانت تراه «ڤيولت»: سواد هلى هيئة سفينة مدخّنة، كانت أحرقت أعلى الرقبة وأخلت مكانها.

«خراء!» صرخت «أليس». «أوه، خراء!»

كانت «ڤيولت» أول مَن ابتسمت. بعدها «أليس». وبدون وقت تقريباً كان الضحك مجلجلاً من كليهما. «ڤيولت» تتذكّر «تروبيليه»، والتي كانت قد دخلت غرفة كابينتهما المفردة وضحكت بطريقة هزمت فريقهما. كانتا تقعيان بعجيزتيهما مثل جرذان قرب مدفأة، ولا من موقد حتى على الأرض، وكانتا جوعانتين ومتوترتين. نظرت «تروبيليه» عليهما، وكان ينبغي لها أن تستند إلى الحائط لا أن تجعل ضحكها يقلبها على الأرض معهما. لابد أنهما كرهتاها. قامتا عن الأرض، وكرهتاها. بل إن ما شعرتا به كان أفضل من ذلك. فلم تكونا مهزومتين أوضائعتين. كانتا أفضل. ضحكتا ثانية، حتى هزّت «روز دير» رأسها وابتسمت، كأن العالم راح في صفها، فجأة. عرفت «ڤيولت» عندئذ ما كانت تنساه حتى هذه اللحظة: أن الضحك جاد. أكثر تعقيداً، وأشدّ جدّية من الدموع.

كانت «ڤيولت» منهارة تماماً، أكتافها تهتزّ، ففكّرت فيما كان ينبغي لها أن تنظر عليه في الجنازة، في معمعان مهمتها تلك. منظرها وهي تحاول أن تفعل شيئاً زنجيّ الأصل، شيئاً كان يلمّ بالأحداث، تتلمّس السكّين، متأخرة للغاية على أي حال... ضحكت حتى كحّت، وكان على «أليس» عندئذ أن تعمل لكلٍ فنجاناً من الشاي الثقيل.

كانت متورّطة مثل «ڤيولت» في تسنمّها تطوّر الأحداث، حتى لم تتمكن من حسو

الشعير المتبقي – دافئاً، كالماء، من دون طعم. زرّرت معطفها، وغادرت الصيدلية المتجر، وفي نفس اللحظة وكما فعلت «ڤيولت» الأخرى، لاحظت أنه الربيع. هلّ على المدينة.

❖ ❖ ❖

حين يهلّ الربيع على المدينة يلحظ الناس ربيعاً آخر في الطريق ؛ يلحظون الغرباء الذين يشاركونهم مماشيهم والموائد والمساحة التي يغسلون فيها ملابسهم الحميمة. يدخلون ويخرجون، من داخل وخارج نفس الباب، يقبضون المقابض ؛ في الترولليات ومقاعد الحديقة يريحون أفخاذهم على مقعد قعد عليه المئات أيضاً. كانت عملات النحاس حين تسقط في راحة اليد، يصرّها الأطفال بأيديهم، أما الغجر فكانوا يختبرونها أولاً، لكن المال دائماً هو المال ويبتسم الناس من أجله. في هذا الوقت من العام تستحث المدينة غالباً الشيء ونقيضه فيه، تشجّعك على شراء طعام الشارع حين تكون شهيتك منعدمة على الإطلاق ؛ أو تمنحك ذائقة لغرفة مفردة تشغلها بنفسك بالإضافة لتلمّسك مشاركةً من شخص آخر فيها تمرّ به في الشارع. في الحقيقة ليس هناك تناقض – بل هي حالة: مجال لما يمكن أن تفعله مدينة فنانة. ماذا يمكن أن يهزم القرميد المستدفىء بالشمس؟ عودة الظلال. نزع الأغطية عن ظهور الجياد. ينعم القارّ تحت الكعوب، وتتغيّر العتمة تحت الكباري من ظلها العابس نحو البرودة. بعد مطر خفيف، وحين تورق الأوراق، تبدو أوصال الشجر كأنها أصابع مبلولة تلعب في شعر من الصوف أخضر. تصير السيارات صناديق نفّاثة سوداء تزلق خلف أنوار مغمّاة قد أضعفها الضباب. وتتحوّل على المفارق إلى أشكال ساتانية تحرّك كتفها أولاً، وتظهر تيجان مقدمها تروساً لاصطياد النور الذي كوّنته قطرات المطر. تلمح وجوه الأطفال في النوافذ وكأنها تبكي، لكنه لوح الزجاج المنقّط الذي يجعلها تبدو هكذا.

في ربيع ١٩٢٦، بظهيرة مطيرة، كان أي امرىء يعبر الزقاق القريب من شقة منزل معين في «لينوكس» لابد أن يرفع بصره ليرى، ليس وجه طفل بل وجه رجل كبير يبكي مع لوح الزجاج. منظر غريب تراه بصعوبة: الرجال الباكون بشكل مكشوف. فهذا ما لا يفعلونه عادةً. ولأنه غريب بهيئته هكذا، فقد اعتاده الناس أخيراً، وهو يمسح وجهه وأنفه بمنديل أحمر في خطوط مهندسة، بينما كان يجلس جنب النافذة هناك شهراً بعد شهر دون أن يراه أحد أو في شرفة المبنى، في الجليد بدايةً وأخيراً بعده في الشمس. لابد أن أذكر بأن «ڤيولت» كانت قد غسلت هذه المناديل وكوتها، فهي لم تعد –مجنونة كما كانت، شعثاء كما صارت– تتحمّل غسيلاً قذراً. بل قد أتعبت الجميع في انتظار ما الذي بإمكانهم أن يروه من «ڤيولت» تفعله

بالإضافة لمحاولة قتل فتاة ميتة أو تجعل مناديل زوجها مهندمة. وفي رأيي الخاص أنها ستكدّس تلك المناديل ذات يوم، تأخذها لدرج المرآة، تطويها داخله، وتذهب بعدها لتخفّف شعره بأصابع مزدوجة. لم تكن تفعلها، ولكن ربما كان من الأفضل أن تفعلها. تقصد أولا تقصد، فقد جعلته يكابد ذلك مرة أخرى - في وقت ربيعيّ، حيث كانت الدنيا بأصفى مما كانته في أي وقتٍ مضى، وذلك لأن حياة المدينة هي نفسها حياة الشارع.

كان رجال عميان يدبوّن ويُهمهمون في الهواء الناعم أثناء سيرهم الحثيث بطيئاً على الرصيف. لا يبغون الوقوف بقرب أحد، أو يتنافسون مع الأعمام العجائز الذين تكتّلوا وسط المبنى جميعهم مِن أجلِ عزفِ جيتار ذي ستة أوتار.

مغنٍ زنجيّ. سود ومغنٍ زنجيّ. سود من أجل مُغنٍ زنجيّ.
كل امرىء يعرف اسمك.
أين ذهبت هي ولماذا يارجل. من وطأة الوحشة يمكنني أن أموت يارجُل.
كل امرىء يعرف اسمك.

صعبٌ على المُغنّي أن يضلّ، كان يجلس على قفص فواكه في منتصف الطوار. رجله الخشبية تتمدّد بارتياح ؛ أما الأخرى الحقيقية فتحمل ثقل كلٍ من الطبلة والجيتار، ربما يظن «چو» أن الأغنية عنه. يبدو كالمصدّق ذلك. أعرفه جيداً. قد رأيته يطعم حيوانات صغيرة لاتلفت انتباه أحد إليها، ولكني لم أنخدع أبداً. أتذكّر طريقته التي اعتادها في رفع قبّعته عند مغادرة مبنى السكن ؛ كيف أنه كان يحرّكها أماماً وإلى اليسار قليلاً. ولو انحنى ليزيل كومة من نفاية حصان أو يمشي الهوينى إلى فندقه الأنيق، فلابد أن تكون قبّعته على هكذا. فهي ليست غطاءً بالضبط، بل هي «تندة» تحديداً، يمكنك أن تقول هذا. وكان لابد أن يزرّر السويتر كله لأعلى من تحت چاكت بدلته، ولكني أعرف أن أفكاره ليست كذلك - فهي طليقة. يخفض عينيه عند عشّاق النواصي الذين يستندون إلى الأركان. يريدون شيئاً منه وهو أيضاً. يريد بعض الرجال شراء القليل للغاية من شنطة عيّنته كليوباترا - عدا بودرة ما بعد الحلاقة المغبّرة، فإن معظم ما فيها للنساء. النساء اللواتي يمكنه مواصلة الحديث معهن، والنظر إليهن، ومعابثتهن، فمن يدري أي شيء كان يدور في باله؟ ولو منحته إحداهن بنظرتها وقتاً بعد وقت النهار، تبدو عيون عشاق النواصي وهي تراقب راضية أكثر منها.

أوكان كذلك يحسّ بالأسى على نفسه من كونه الصادق في المقام الأول. ولو لم يقدّروا تلك الفضيلة فيه، أو يقفز أحدهم ليهنّئه عليها، يتحول أساه الشخصي لامتعاضٍ بفهمٍ مضطرب، ولكن ينعدم الاضطراب حين يرى الدون چوانات الواقفين على النواصي مشعّين ووحشيين. احذر. احذر رجلاً صادقاً بقرب الخمسين. لأنه لم يعابث امرأة أخرى أبداً ؛ لأنه اختار تلك الفتاة الصغيرة ليعشقها، وظنّ بأنه حرّ. ليس حراً في تقطيع أرغفة أو إطعام العالم من فوق سمكة. أو يبعث ميت الحرب حياً، ولكنه كان حراً في فعل ما هو وحشيّ.

صدّقوني في هذا، فهو مربوط بالصندوق. يجرّه مثل الإبرة على أخدود اسطوانة «العصفور الأزرق». يدور ويدور عبر البلدة. هكذا طريقة المدينة في أن تدير رأسك. تجعلك تفعل ما تريده هي، فتذهب إلى حيثما تبوح لك الطرق الممهّدة. في كل لحظة تجعلك تظنّ بأنك حرّ ؛ أن يمكنك القفز إلى الأدغال لمجرد الإحساس بالرغبة فيه. ليس من أدغالٍ هنا، ولو كان العشب الحصيد صالحاً للسير عليه، فإن المدينة تدعك تعرف ذلك. لا يمكنك أن تهبط من فوق صندوق تمهّده المدينة لك. ومهما يحدث، سيّان تصير غنياً أو تظلّ فقيرا، تدمّر صحتك أو تعيش لأرذل العمر، فأنت حتماً تنتهي عائداً إلى حيثما بدأت: جوعان للشيء الوحيد الذي يخسره كل واحدٍ — وهو عشق الشباب.

تلك كانت «دوركا»، حسناً. شابة لكنها عاقلة. كانت حلوى «چو» الشخصية — كأنها النعناع. لقد كانت أفضل شيء، فقط لو كنت شاباً عند وصولك تواً للمدينة. كل ذلك مع آلات الكلارنت وذلك الذي يسمونه عصيّ العرقسوس. لكن «چو» وصل المدينة منذ عشرين عاماً، ولم يعد شاباً الآن. إني أتخيّله كواحد من أولئك الرجال الذين يقف العمر بهم عند حوالي السادسة عشرة. باطنياً. وبرغم أنه يرتدي سويترات مزرّرة كاملاً من الأمام وحذاءً ببوزٍ مدوّر ؛ فهو يبدو صغيراً، طويلاً بفتوّة، ولا زال النعناع يجعله يبتسم. يحبّ أنواع النعناع التي تدوم رائحتها طوال حياة اليوم، ويظن الآخرين يحبون ذلك منه. يمرّ بهم وهو خارج إلى أولاد «چيستان» الذين يتشقلبون عند المنحنى. يمكنك القول بأنهم يفضلون الشكولاتة أو أي شيء بالسوداني.

يجعلني هذا أتعجّب من أمر «چو». كان يجلب كل هذه الأشياء النافعة من «ويندمير(*)» ويدفع مالاً كثيراً في الغالب من أجل النعناع الدبق وتافه الرائحة، كما كان يفعل لأجل الغرفة التي يستأجرها ليضاجع فيها. حيث كانت تفتح له علبة النعناع التي تخصّه.

فأر. لاعجب أن انتهى على النحو الذي كان. بل لم يكن ينبغي له ذلك، فلو كفّ عن جرجرة تجارته السريعة التافهة عبر طرق البلدة بطولها، ولو أبلغ «ستوك» أو «چيستان» أو أي جارٍ كان مهتماً بأمره، فمن يدري كيف تجري الأمور حينذاك؟

«إن هذا ليس مما تُخبره لرجلٍ آخر. أعرف أن معظم الرجال لا ينتظرون بل يخبرون بعضهم البعض عما يدور بأحد الجوانب. فهم يفشون كل أمورهم علناً في الشارع. يفعلون هذا لأن النساء لاتهتمّ به كثيراً، ولأنهم لايعنيهم ما يتقوّل به القوم عنها هي. نصف الطريق لذلك

(*) فندق كان يعمل فيه، أواخر أيامه. (المترجم)

كان معظم ما فعلته وهو إخبار «ملڤون»، فلا مناص أن أفعل هذا. لكن أن أخبر به رجلاً آخر؟ لا. ربما يضحك منه «چيستان» فحسب ويحاول أن يهرب بسمعه من ذلك. أما «ستوك» فسينظر على قدمه، ويقسم بأنني محق فيه، ويخبرني: يا «چو»، أحتاج مثله بشدة لعلاج نفسي. لم أخبر أحدهما عنها. ليس هذا شيئاً تحكيه إلا ربما لصديق حميم، شخص تكون عرفته من قبل، من زمن طويل مثل «ڤكتوري»، لكن لو سنحت الفرصة فلا أظن بأني كنت أخبره، لأنه إن لم أتمكن من حكي ذلك لـ «ڤكتوري»، فلأني لا أقدر على أن أحكيه لنفسي حيث كنت لا أعرف كل شيء بشأنه. كل ما أعرفه أني رأيتها تشتري النعناع، وكان الأمر كله لذيذاً. ليس فقط النعناع – بل هي وصورتها في ذلك. فالنعناع شيء ما تلحسه، وتمصّه، ثم تبلعه، فيروح. لا. هذا كان شيئاً آخر. أكثر من ماء أزرق وأزهار بيض، وسكّر في الهواء. كنت أحتاج لأن أكون فيه، حيث يختلط كل شيء معاً مباشرةً تماماً، وحيثما يكون، تكون «دوركا».

«عند وصولي للشقة لم يكن لديّ اسم أمنحه للوجه الذي رأيته في الصيدلية المتجر، ولا كان وجهها في بالي مباشرة عند ذاك. لكنها فتحت الباب، فتحته أمامي على التوّ. فشممت كعكة الرطل(★) بدجاجها المختفي فيها. تجمّعت من حولي النسوة فأريتهن ماعندي، وكن يضحكن ويفعلن ما تفعله النساء: ينقّرن على چاكتتي، ويضغطنني من الكتف لأجلس. وهي طريقتهن في ترميمك، وإصلاح ما يعتقدن بحاجته للإصلاح.

«لم تهبني نظرة أو قالت أي شيء. لكنني كنت أعرف أين تقف وكيف، في كل دقيقة. أمالت عجيزتها على ظهر كرسيّ في الصالة، بينما انهمرت النسوة خارجات من غرفة الطعام ليربّتن عليّ ويمازحنني. ثم نادت إحداهن باسمها. «دوركا». لم أسمع كثيراً به. ظللت هناك، أريهن كل ما في جعبتي، مبتسماً، لا أبيع بل أدعهن يبعن لأنفسهن.

«أبيع بصدق؛ وأتباسط في البيع. تلك أفضل الطرق. لا أُلحّ. مثلما في «ويندمير» حين كنت أنتظر طلبات الموائد. أنا هناك فحسب حين تعوزني. أو عند ترتيب الغرف، وتهيئة الويسكي متخفّياً وكأنه قهوة. هناك فحسب حين تعوزني، وتماماً في الوقت المناسب. تتوصّل لمعرفة أن هذه المرأة ستطلب أربع كاسات من شيء ما، لكن ينبغي عليك أن لاتجعلها تطلبك أربع مرات؛ تنتظر حتى يصل كاسها لثلثيه فتملأه ثانية. تلك هي الطريقة، هي تشرب كاساً واحداً بينما يدفع هو حقّ أربعة. يهمس المال بهدوءٍ مرتين: مرة حين أزلقه بجيبي، وأخرى ليخرج منه.

«كنت مستعداً أن أنتظر، وأجعلها تتجاهلني. لم يكن لديّ خطة، ولم أكن أستطيع تنفيذها لو وجدت. كنت أحس بدوار مع نشوة لابد أنها جاءت من شذا الليمون الثقيل، وبودرة الوجه، وعرق تلك المرأة الخفيف. كان مالحاً. غير لاذع كعرق الرجل. ولست أعرف حتى اليوم

(★) كعكة من سكر ودقيق وبيض وزبد. (المترجم)

ماالذي جعلني أتحدّث إليها في طريقي للخروج من الباب.

«يمكن لي استدعاء ما يقوله الناس. أنني كنتُ أعامل «ڤيولت» وكأنها قطعة أثاث أستحسنها، رغم أنها تحتاج لشيء ما كل يوم كي تظلّ ثابتة ومنتصبة. لا أعرف. ولكنني منذ «ڤكتوري»، لم أعد أتعلّق تماماً بأي واحد. كنت متعلّقاً بـ «چيستان» و«ستوك»، لكن ليس على طريقة شخص تعرفه منذ مولدك، ووصلتما للرجولة معاً في نفس الوقت. كان لابدّ أن أحكي لـ «ڤكتوري» عن ذلك. أما «چيستان» و«ستوك»، فمهما قلت لهما ما أظنه جميماً، فهو لا يكون هكذا حقاً. لم أقدر على الكلام مع أي واحد عدا «دوركا»، فقد حكيت لها أشياء لم أحكها حتى لنفسي. معها كنت طازجاً وجديداً، مرة أخرى. قبل أن أقابلها، كنت قد تغيّرت إلى جديد مرات سبعاً. كانت المرة الأولى حين سمّيت نفسي، لأنه لا أحد فعلها من أجلي، لا أحد عرف ما يمكن أو لابد أن يكونه، اسمي.

«ولدتُ وتربيّتُ في مقاطعة «ڤسبر»، بولاية «فرچينيا»، في ١٨٧٣. بمكان صغير يُدعى «ڤيينا». أخذني فوراً «رودا» و«فرانك ويليمز»، وربيّاني مع ستة من أولادهما على الدوام. حين أخذتني مسز «رودا»، كان عمر طفلها الأخير ثلاثة أشهر، وظللت أنا وهو قريبين من بعضنا أكثر من الإخوة العديدين الذين رأيتهم. كان اسمه «ڤكتوري». «ڤكتوري ويليمز». كانت مسز «رودا» تسمّيني «چوزيف» على اسم أبيها، لكنها لم تفكّر لاهي ولا السيد «فرانك» أيضاً في منحي اسماً أخيراً. لم تكن تدّعي أبداً أني ابنها الطبيعي. وعند تقسيمها للأعمال الروتينية أو الخدمات كانت تقول (أنتِ تماماً مثل ولدي). وأخمّن أن تلك «المثل» هي التي جعلتني أسألها يوماً — لا أظن بأني كنت بلغت الثالثة بعد — أين هما أبواي الحقيقيّان. خفضت بصرها إليّ، ومن فوق كتفها، منحتني أعذب ابتسامة، لكنها حزينة نوعاً، وأخبرتني، ياحبيبي، اختفيا دون أي أثر. بالطريقة التي سمعتها منها، فهمت بأنها تعني أن اختفاءهما كان من دوني أنا، «الأثر» (★)

«كان عليّ، في أول يوم رحتُ فيه المدرسة، أن أتّخذ اسمين. قلتُ للمعلّمة «چوزيف تريس». فدار «ڤكتوري» ساعتها حول نفسه دورة كاملة في المقعد.

«(لم قلت لها ذلك؟) سألني.

«(لا أعرف) قلت. (سبباً).

«(ماما ستجنّ. بابا أيضاً).

«كنا في فناء المدرسة. كان فناء لطيفاً، فالقذارة مجمّعة عدا كثيرا من المسامير وأشياء أخرى. وكان كلانا عاري القدمين. وكنت أجاهد في نزع شقفة زجاج من باطن قدمي، فلذلك لم أتمكّن من رفع بصري إليه. (لن يجنّا) قلت. (مامتك ليست ما متي).

(★) Trace تعني أثر. (المترجم)

«(لو لم تكن هي، فمَن تكون تلك؟)

«(امرأة أخرى. سترجع، ستعود من أجلي. بابا أيضاً). وعرفتُ بأنها كانت المرة الأولى التي فكّرت فيها بذلك، أو تمنّيته.

«ردّ «ڤكتوري» (إنهما طبعاً يعرفان أين تركاك. وسيرجعان على بيتنا. فهما يعرفان بأنك في بيت «ويليمز»). وكان يجرّب مشية لين العظام مثل أخته. فقد كانت تؤدّيها باقتدار كبير، وتتباهي كثيراً بذلك كلما عنت الفَرصة لـ «ڤكتوري» ليتدرّب عليها. أذكر ظلّه وهو يرمح في القذر أمامي. (يعرفان بأنك في بيت «ويليمز»، ولذا كان ينبغي أن تسمّي نفسك «ويليمز»). قلت (لابد لهما من تمييزي. من بينكم جميعاً، لابد أن يعرفاني. أناهو «تريس»، الذي ذهبا لبعيدٍ من دونه).

«(إنهما أولاد قحبة، صح؟)

«ضحك «ڤكتوري» عليّ، ولفّ ذراعه حول رقبتي قاذفاً بي إلى الأرض. لا أعرف ماذا حدث لشظية الزجاج. لم تخرج أبداً. ولا أتى أحد باحثاً عني كذلك. لم أعرفه أبداً، أبي. وأمي، حسناً، سمعت امرأة في غرفة طعام الفندق تحكي شيئاً أكثر خزياً. كانت تكلّم امرأتين أخريين، بينما كنت أصبّ القهوة. (بالنسبة لصغاري، فأنا شريرة) قالت. (لا أقصد هذا، ولكن شيئاً بداخلي هناك يجعلني هكذا. إني أمّ جيدة، ولكن أفضل لهم أن يحيوا بعيداً عني ؛ طالما هم بجانبي فلا خير يرجى لهم. والذين يرحلون عني يبدو عليهم الانتعاش ؛ ومن يبقوا معي فأوقاتهم عصيبة. فيمكنك أن تتخيلي مقدار ما أشعر به من السوء حين أعرف ذلك، أليس هكذا؟)

«وكان عليّ أن أختلس إليها نظرةً. تبدو قويةً حين تقول هذا. أو تعترف به. جاء التغيّر الثاني حين اختاروني، وتدرّبت لكي أصير رجلاً. لأعيش مستقلاً وأطعم نفسي على أيّ نحو كان. لم أفتقد كون لي أباً، لأن السيد «فرانك» كان هناك من البدء. ثابتاً كالطود، ولا يظهر تمييزاً بين أيّ منا كأطفال. لكن الشيء الكبير كان أن أفضل رجل في مقاطعة «ڤسبر» قد اختارني، و «ڤكتوري» أيضاً، للذهاب للصيد معه. تكلّم عن بناء– الكبرياء. كان أفضل من في المقاطعة، وقد اختارني مع «ڤكتوري» ليعلّمنا نصيد معه. كان ممتازاً للغاية، حتى أنهم قالوا بأنه كان يحمل البندقية فقط لأجل الجحيم، فهو يعرف الطريق قبل أن تعرفه الفريسة، كيف يخدع الحيّات، يثني الغصينات ويمدّ الخيط ليصطاد الأرانب، والخنزير البريّ ؛ وكان يعمل صوت طير سابح لا يقاوم. يقول القوم البيض بأنه الساحر المداوي، قالوا ذلك حتى لا يصفونه بالبراعة. صياد الصيادين، ذلك ما كانه. بارع بينما يخفقون. علّمني درسين عشت بهما طول حياتي. أحدهما كان سرّ تعاطف البيض –كان لابد أن يشفقوا على الشيء قبل محبّته. الآخر– آه، نسيته.

«كان ذلك بسببه، ما تعلمته منه جعلني أرتاح أكثر فى الغابات عني في البلدة. أتوتّرحين

أرى سوراً أو سياجاً حول أي مكان. ظنّ القوم بأني الوحيد الذي يُعوَّل عليه، لا في أن يُغير على المدينة. بمساكنها المكدسة؟ بطرقها الإسمنتية؟ أنا؟ ليس أنا.

«كانت المرة الثالثة في ١٨٩٣، حين تغيرتُ. حدث هذا عندما دمّروا «ڤيينا» تماماً بالحريق. نيران حمراء كانتِ تعمل سريعاً، وقد جعلتها الملاءات البيضاء تأخذ وقتاً طويلاً حتى تنطفيء: تلغي كل مأثرة، تجرّد أي وكل حقل؛ وتسلخنا خارجين من بيوتنا مسرعين للغاية حتى أننا كنا نعدو من ناحية إلى أخرى في المقاطعة – أو إلى لامكان. سرت واشتغلت، اشتغلت وسرت، أنا و«ڤكتوري»، على بعد خمسة عشر ميلاً من «فلسطين». حيث قابلت «ڤيولت» هناك. تزوّجنا وأقمنا في «هرلون ريكس بليس» بالقرب من «تيريل». كان يمتلك أسوأ أرض في المقاطعة. وكنا أنا و«ڤيولت» نعمل على محاصيله لمدة عامين. حتى أنهكت التربة، حينها كانت الصخور هي المحصول الأكبر، فكنا نأكل مما أصيده. بعدها صار العجوز «ريكس» ممتلئاً، وباع المكان كله مع ديوننا لرجل يدعى «كلايتون بيدي». ارتفعت ديوننا من مائة وثمانين دولاراً إلى ثمانمائة في عهده. ثمن رعايتنا، قال، وكل السماد، والهراء الذي حصلنا عليه من المتجر العام – أشياء دفع حقّها هو. والأسعار، قال، ارتفعت. كان على «ڤيولت» أن ترعى مكاننا، فتخلّت عن المحراث له أيضاً، في حين ذهبت أنا من «بير» إلى «كروسلاند» إلى «جوشن» أعمل. أشقّ أشجار الصنوبر بعض الوقت، وأنشر الخشب معظمه. وأخذ منا ذلك خمس سنين، لكنا فعلناه.

«بعدها حصلتُ على عمل، تركيب قضبان سكة الحديد لقطار «سوزرن سكاي». كنت بعمر الثامنة والعشرين، واعتدت التغيير الآن. ولذلك في ١٩٠١، حين تناول «بوكرتي.» سندوتشاً في بيت رئيس الجمهورية، جرؤت على أن أفعلها ثانية: صمّمت أن أبتاع لي قطعة أرض. وكالأحمق ظننت بأنهم سيخلّونني أحتفظ بها. سرقونا بقصاصتين من الورق، لم أرهما من قبلُ ولا وقّعتهما. وتغيّرت تماماً للمرة الرابعة في ١٩٠٦، مرة أخرى، حين أخذت زوجتي إلى «روما»، محطة قريبة من مكان ولادتها، وكنت كسوت سكّة «سوزرن سكاي» بالألواح الخشب حتى جهة الشمال: نقلّونا خمس مرات في أربع عربات مختلفة، لنقيم جنب «جيم كراو لو».

«عشنا في شقة على طريق سكة الحديد في «تندر لوان». ذهبت «ڤيولت» للخدمة، واشتغلتُ أنا في كل شيء، من جلد أحذية البيض وحتى السيجار في غرفة حيث كانوا يقرأون لنا أثناء ما كنا نلفّ التبغ. وكنت أنظّف سمكاً بالليل، وحمامات بالنهار، حتى التحقت بعمل نادل مائدة. كنت أظنّ بأني وصلت إلى الاستقرار نحو ذات مستديمة، الذات الخامسة، حينما تركت الاحتجاج العام في شارع «ملبوري» و«ليتل أفريكا»، والجرذان آكله اللحوم في شارع وست ٥٣، وتحركت بعدها لأعالي المدينة.

«في ذلك الوقت اختفت الخنازير والأبقار، وما كنا معتادين عليه كمزارع بأكواخ صغيرة في كل مكان تقارب حجم القطعة التي حاولت شراءها، صار بيوتاً أكثر وأكثر. واعتدنا أن نجد

رجلاً ملوناً مطلوقاً عليه النار، لمجرد التجوال حول المكان هناك. بنوا بيوتاً على صفٍّ وأخرى منفردة بأفنية كبيرة وحدائق للخضار. عند ذاك، تماماً وقبل الحرب، أتاحوا للملوّنين مساكن كاملة. لطيف. لكنها ليست كمساكن وسط البلد. فهذه بها خمس حجرات أو ست؛ والبعض بها عشر، ولو استطعت دفع خمسين أو ستين دولاراً في الشهر، فيمكنك بأن تنال واحدة. وحينما انتقلنا من شارع «ميدت» إلى مكان أكبر في «لينوكس»، كان هناك مستأجرون بجلد أخفّ لوناً حاولوا أن يطردونا. فقاتلناهم، أنا و«ڤيولت»، وكأنهم بيض. فزنا. وضربتهم أوقاتٌ عصيبة، وقاتل الملاّك البيض والسود أولئك الملوّنين على الإيجارات العالية، والتي كانت معقولة لنا، حيث كنا معتادين على العيش بخمس حجرات، حتى لو كان بعضنا يؤجّر اثنتين. كانت المباني كالقلاع في الصور، وكنا نحن الذين ننظف فوضى الآخرين من البداية، لأننا كنا نعرف أفضل من الآخرين، كيف نجعلها لطيفة. كان لدينا طيور ونباتات بكل مكان، أنا و«ڤيولت». كنت أجمع بنفسي روث الشارع لتخصيبها. وكنت أتأكد من نظافة الواجهة كالداخل. كنت أعمل في الفندق حينذاك. كان ذلك أفضل من انتظار الموائد في المطعم، ولأنه توجد في الفندق طرق أكثر بكثير لكسب البقشيش. كان الأجر ضعيفاً، ولكنّ البقشيش كان يتساقط في راحة يدي كالجوز سريعاً في نوڤمبر.

«حين ارتفعت الإيجارات، وارتفعت مرة أخرى، ساعتها ضاعفت المتاجر سعر لحوم أعالي المدينة وتركت أسعار لحوم البيض على حالها، فحصلت لنفسي على وظيفة هامشية لبيع مستحضرات تجميل كليوباترا في الحيّ المجاور. هذا وانقطعت «ڤيولت» عن العمل اليومي وصارت تقصّ الشعر فقط، وكنا بخير. بعدها بطويل، جاء صيف ١٩١٧، وبعد أن أخذ الرجال البيض تلكم الصفّارة من حول رأسي، صرت نوعاً جديداً بالتأكيد، فهم كادوا أن يقتلوني. مع كثيرين. كان لأحد أولئك البيض قلب، فمنع الآخرين من الفتك بي هناك.

«لا أعرف بالضبط لماذا بدأ الشغب. هل كان ربما ما قالته الصحف، أو ما قاله النُدُل الذين كنت أعمل معهم، أو ما قاله «چيستان» – في ذلك الحفل، قال، أرسلوا دعوات للبيض للمجيء لرؤية رجلٍ ملوّن يحرق حيّاً. وقال «چيستان» إن آلافاً من البيض قد قتلوا. وقالَ بأنّ ذلك رزح على صدر الجميع، ولو لم يحدث القتل، لحدث شيء آخر. كانوا جلبوا أسراباً من الملوّنين للعمل بأثناء الحرب. وسبّبت المفرقعات في الجنوب نزوح الزنوج، بعدها سبّبت المفرقعات في الشمال رجوعهم ثانية.

«لقد رأيتُ بعض الأشياء في زمني. في «فرچينيا». اثنان من إخوتي غير الأشقاء. جُرحا بشدة. بشدة. أراد واحد قتل مسز «رودا». كانت هناك فتاة، أيضاً، تزور قومها قرب «كروسلاند». مجرّد فتاة. على أي حال، فلو كنت هنا لانفجرت، ولانفجر مائة معك. رأيت بعض أولاد صغار يجرون في الشارع. سقط أحدهم ولم يتمكّن من النهوض مباشرة، فذهبت إليه. ذلك ماحدث. استمرّ الشغب بدوني، بينما كنت أنا مع «ڤيولت» نطبّب رأسي معاً. نجوت بها، رغم ذلك، وربما كان ذلك ما جعلني أتغيّر ثانيةً للمرة السابعة، بعد سنين أواخر عام ١٩١٩، حينما كنت

أسير طوال الطريق، كل خطوة ملعونة من الربّ على الطريق، مع ٣٦٩. لا أتذكر ولامرة رقصتُ في الشارع غير هذه المرة الوحيدة حين رقصت مع الكل. ظننت أن هذا التغيّر هو الأخير، وكان الأفضل بالتأكيد، لأن الحرب جاءت وذهبت، وجعلتني كتائب الملوّنين ٣٦٩ التي قاتلت فيها فخوراً للغاية حتى أن قلبي انشطر إلى نصفين. جاءني «چيستان» بوظيفة في فندق آخر، حيث يضمّ البقشيش أموالاً ملفوفة أكثر من العملات النقدية غالباً. قمت به. في ١٩٢٥، كنا جميعاً نقوم به. ثم بدأت «ڤيولت» تنام مع دمية في ذراعها. تأخّرت جداً. وتفهّمت هذا على أي حال. على أي حال.

«لا تلوموني. لم يكن ذلك خطأ «ڤيولت». كله كان مني. لن أستطيع تجاوز ما فعلته لتلك الفتاة. أبداً. وفي الغالب أني تغيرت مرة أخرى. جدّدت نفسي كثيراً مرة أخرى أيضاً. يمكنك أن تقول بأني كنت «نيجرو» جديداً طوال عمري. كل ما عشته، كل ما رأيت، وليس أحد تلكم التغيرات، كان ما جعلني مستعداً لها. لـ«دوركا». ويمكن أن تظن بأني كنت في العشرين، عائداً إلى «فلسطين»، أشبع شهوتي للمرة الأولى تحت شجرة جوز.

«اندهش الكل حين رحلنا، أنا و «ڤيولت». قالوا إن المدينة تجعلك وحيداً، لكن ولأنني كنت درّبني أفضل رجل غابات على الإطلاق، فليست الوحدة شيئاً يمكنه الاقتراب مني. انس. ولد ريفيّ ؛ رجل ريفيّ. كيف عرفت بما يمكن أن تثيره فتاة بعمر الثامنة عشرة في رجل ناضج تنام زوجته مع دمية؟ تجعلني أعرف عزلةً لم أكن أتخيلها في غابة فارغة من الناس على بعد خمسة عشر ميلاً، أو على ضفة نهر، دون شيء سوى الحياة تغويها الرفقة. وكانت تقنعني بأني لم أعرف الجانب الحلو أبداً من أيّ شيء حتى ذقت من عسلها. يقولون بأن الثعابين تعمى لوهلة قبل تغيير جلدها للمرة الأخيرة.

❖❖❖

«كان لها شعر طويل وجلد رديء. وكان يمكن لربع جالون من الماء مرتان يومياً أن يجعل جلدها صافياً، لكني لم أقترح ذلك، لأني أحببتها على ما هي عليه. أنصاف أقمار صغيرة، متجمّعة تحت عظام خدّيها، كعلامات حوافر واهنة. هناك وعلى جبهتها. ابتعت دواءً جلدياً أخبرتني به، ولكنني سعدت لأنه كان بلا جدوى. أزلْ لي علامات الحوافر الصغيرة؟ خلّني من دون أية آثار على الإطلاق؟. إن الشيء الحسن، الشيء الوحيد، في هذا العالم، هو أن تجد الأثر وتنقاد إليه. اقتفيت أثر أمي في «فرچينيا»، وقادني هذا مباشرة إليها، فاقتفيت أثر «دوركا» من بلد إلى بلد. لم يكن لازماً أن أفعل هذا. لم يكن لازماً حتى أن أفكر فيه. إن شيئاً آخر يتولّى القياد عندما يبدأ الأثر في الكلام إليك، يمنحك علاماته قوية للغاية حتى يصعب عليك النظر. لو لم يتكلم معك الأثر، فربما تنهض عن كرسيك لتذهب تشتري سيجارتين أو

ثلاثاً، فتأخذ عملة النيكل في جيبك وتبدأ المسير فحسب، ومن ثمّ الجري، وتنتهي لمكان في «ستاتن أيلاند» لتصرخ عالياً، أو «لونغ أيلاند» لتحدّق في المعز. لكن لو تكلم الأثر، غير مهم بأي طريقة، فيمكنك أن تجد نفسك في غرفة مزدحمة تصوّب رصاصة إلى قلبها، غير مبالٍ أنه القلب الذي ليس بمقدروك أن تستغني عنه.

«أردتُ أن أبقى هناك. تواً بعد أن أحدثت البندقية زووا! ولم يسمع ذلك أحد هناك إلاي، وكان هذا سبب أن الجمع لم يتشرذم –كان يشبههم بسرب طيور السُمنة المغرّدة– بل ظلوا محتشدين بالداخل، منغلقين سوياً بتوتّر رقصهم والموسيقى، التي لم تسمح لهم بالذهاب. أردت فعلاً البقاء هناك. أمسكها قبل أن تسقط وتؤذي نفسها.

«لم أُفتِّش عن الأثر. هو الذي كان يفتّش عني، وفي البداية حينما بدأ الكلام لم أتبين سماعه. كنت أهيم على وجهي، أهيم فحسب خلال المدينة. كان معي المسدّس، بل لم يكن المسدس – كان يدي والتي أردت أن ألمسها بك. خمسة أيام أهيم. أولاً في «هاي فاشون» بشارع ١٣١، لأني ظننت أنك على ميعاد قصّ الشعر في الثلاثاء. كان ذلك أول ثلاثاء من كل شهر. لكنها لم تكن هناك. فرشت بعض النساء عشاءات سمك من «سالم بابتست»، والتوءم الأعمى كانا يعزفان على الجيتار في محلٍ، وكانا تماماً كما تقولين – أحدهما فقط هو الأعمى ؛ والآخر يساير البرنامج. ومحتمل بأنهما لم يكونا حتى أخوين، ناهيك عن كونهما توءماً. قد تكون أمهما طبختهما لمجرد التغيير قليلاً. كانا يعزفان شيئاً كالسخام، رغم ذلك ؛ لا «البشارة» كما كانا معتادين، وعبست النساء بائعات عشاء السمك حين تكلمن عن فساد أمّهن، ولكنهن لم يقلن أي كلمة للتوءم، وعرفت بأنهن يقضين وقتاً طيباً حينما لاحظت بأنهن ينصتن، لأن واحدة من أكثرهن صخباً كانت تمصمص أسنانها بجهد لتنقّر بقدمها. لم يعرنني أدنى اهتمام. أخذ مني وقتاً لأجعلهن يخبرنني بأنك لم تكوني حجزت مسبقاً في ذلك اليوم. قالت «مينيه» بأنك قد شذّبت شعرك يوم السبت، وأضافت بأنها لم توافق على عمليات التشذيب هذه – رغم أنها كانت بخمسين سنتاً بدلاً من دولار وربع للقصّ الكامل – لأن ذلك يؤذي الشعر، حرٌ على قَذَرٍ– قالت، يؤذي الشعر أسوأ من كل ما عرفته. إلا، بالطبع، عندما ينعدم الحرّ تماماً. ماذا ستفعلين بتشذيب شعرك؟ ذلك ما فكّرت فيه بدايةً. السبت الماضي؟ قلت لي بأنك ذاهبة مع الجوقة الكنسية خارجين إلى «بروكلين» للغناء في «شيلو»، وأنك سترحلين التاسعة صباحاً ولاترجعين قبل الليل، ولماذا هذا. وأنك قد فاتتك الرحلة الأخيرة، ولأن خالتك اكتشفت ذلك فإنه لابد أن تقومي بالرحلة هذه المرة، ولماذا هذا. فلَم أنتظر «ڤيولت» حتى ترحل، وفتحت شقة «ملڤون». لا حاجة لذلك. ولكن كيف قمت بتشذيب شعرك يوم السبت الماضي ولحقت بالرحلة في التاسعة صباحاً في حين أن «مينيه» لاتفتح أبداً قبل الظهر يوم السبت وتظلّ حتى منتصف الليل لتجعل الكل مستعداً ليوم الأحد؟ ولذلك لم تكوني محتاجة للدوام بميعاد الثلاثاء المنتظم، أليس كذلك؟ طردت الشيطان عن أفكاري لأني لم أتأكد أن تلك الموسيقى السخام والتي كان يعزفها التوءم الأعمى كانت هي السبب. إن نوعاً معيناً من

عزف الجيتار يفعل هذا لك. ليس من مثل آلات الكلارنت، بل هو أقرب. فلو جاءت هذه الأغنية من آلة كلارنت، لعرفتها على الفور. لكن الجيتارات – تحيرني، تجعلني أشكّ بنفسي، ففقدت الأثر. عدت للبيت، ولم ألتقط ذلك الأثر ثانيةً حتى اليوم التالي، حين نظرت «ملفون» إليّ، وغطّت فمها بيدها. لم تتمكن أن تغطّي عينيها، رغماً، فطار الضحك خارجاً من هناك.

«أعرف أنك لم تقصدي تلك الأشياء التي قُلتها لي. بعد أن عثرتُ عليك وطلبتُ حضورك لترجعي إلى غرفتنا مرة أخرى. أعرف أن ما قلته لم تقصديه. فهو مؤذ لي، جعلني أقف جامداً في الشرفة اليوم التالي، قلقة نفسي مريضة من شأن ذلك. لا أحد هناكَ عدا «ملفون» رش الرماد على بقع الثلج. رأيت ثلاثة من عشّاق النواصي، عبر الشارع، وأنا محنيٌ على السور الحديد. كانت الحرارة ثلاثين درجة، لم تكن حتى عشرة في الصباح، وكانت جلودهم تلمع كجلود بريئة. ناعمة. ألا يمكن للحرارة ألا تزيد عن عشرين، أو اثنين وعشرين. شباب. هذه هي المدينةعندك. كان أحدهم يلبس عقد أصداف، ويضع الآخر منديلاً في جيبه بنفس لون كرافتته. وهل كان معطفه مكسوّاً بالجوخ من عليّ كتفيه. كانوا فقط ينحنون هنالك، يضحكون وغير ذلك، بعدها بدأوا الدندنة، منحنين، رؤوسهم معاً، ويطرقعون أصابعهم. رجال مدينة، تعرفين ما أقصد. منغلقين على أنفسهم، عاقلين، ديوكاً مغرورين، شباباً. لا يحتاجون لفعل شيء – فقط ينتظرون الدجاجات لتعبر وتجدهم. جاكتات بأحزمة ومناديل بلون كرافتاتهم. تظنين بأن «ملفون» كان لابد أن تغطّي فمها أمامهم؟ أو تجعل الديوك المغرورين يدفعونها قدماً لاستخدام مكانها في يوم خميس؟ لن يحدث شيء، لأن الديوك المغرورين لاتحتاج «ملفون». فإن الدجاجات تجد ديوكها المغرورين وتجد المكان أيضاً، ولو كان هناك اقتفاء للأثر، فهن يقمن به. ينظرن ؛ يتصوّرن. ينتظر الديوك المغرورن لأنهم هم المنتظرون. ليس ضرورياً أن ينقادوا لأي أحد، ويبدون جاهلين في صالون التجميل حين يطلبون فتاة أمام نساء لم يتوقّعن أن أرحل حتى يتمكنّ من المواصلة على الموسيقى السخام، ويتكلّمن عن الجحيم الذي كنت أودّ معرفته عن فتاة لم تتخرج بعد في المدرسة العالية، ولم أتزوّجها نظراً لوجود العجوز «ڤيولت» المجنونة؟ كان على الديوك العجائز مثلي فحسب أن ينهضوا عن الشرفة، يقاطعون «ملفون» في وسط جملتها، ويحاولون الجري بطول الطريق إلى الغابة، حيث جلسنا أول مرة ووضعت ساقيك متقاطعتين فوق ركبتيك، فتمكّنت أن أرى الحذاء الأخضر والذي كنت تحملينه َخارج البيت في شنطة ورق، حتى لا تعرف خالتك بأنك قد مشيت على شارعَ «لينوكس» ولآخر الشارع ٨ بهذا الحذاء بدلاً من حذاء أكسفورد الخفيف الذي غادرت به المنزل. وبينما كنت تدبدبين بقدمك، أدرت ركبتيك وأعجبك منظر الكعبين، وكنت أنظر على ركبتيك لكني لم أمسسهما. حكيتَ لك ثانيَةً أنك السبب في أن آدم أكل التفاحة بقلبها. وذلك حينما غادر جنة عدن، فغادر رجلاً مترفاً. ليس فحسب أن كانت له حواء، بل لأن طعم أول تفاحة في العالم ظلّ بفمه باقي عمره. أول ما عرفناه كان طعمها. فنقضم، نقضمها كلها. نسمع صوت الطحن وندع القشر الأحمر يحطم قلبه.

«كنت تنظرين إليّ فأحببتِ أن تعرفيني، وكنتُ أظن هناك جنّة عدْن، ولم أستطع الاحتيال علىَ عينيك، لأني كنت أحبّ علامات الحوافر في خدّيك.

«عدتُ مباشرةً هناك، إلى أقرب بقعة. ثلج غابر جعل السماء ناعمةً وسوّد من لحاء الشجرة. آثار كلاب وأرنب أيضاً، بشكلٍ دقيق مثل نقش كرافتة الأحد المبعثرة على الجليد. لابدّ أن أحد هذه الكلاب كان بوزن ثمانين رطلاً. والباقي كان بوزن خفيف ؛ وواحد أعرج. لخبطت آثار أقدامي كل شيء برمّته. وحين رجعت ببصري على ما كنت سرت عليه، رأيت نفسي واقفاً هناك في حذاء للخروج، لاشبشب، ومبلولاً إلى الكاحلين، وفهمت. رغم ذلك، لم أكن شاعراً بالبرد، لأني كنت أحاول تذكّر الطريق الذي كان لنا في وقتنا ذاك. بأكتوبر الدفيء، أتذكرين؟ وردة «شارون» كانت لاتزال سوسنة الأزهار. أشجار الليلك والصنوبر تجمّع الهنود حول شجرة الخزامى وكأنهم يشبهون الملك. أول مرة تقابلنا هناك، كنت وصلت من قبلك. كان يجلس على صخرة رجلان أبيضان. فجلست على الأرض تماماً جوارهما حتى اشمأزا وغادرا. كنت تعملين شيئاً أوما يشبه في مكان ما على مقربة من هناك. ذلك سبب أني أحضرت معي شنطةَ العيّنة. كي أتشبّه بمن يوزّع شيئاً ضرورياً. بيه، كان ذلك ممنوعاً، حسناً، لكن ما من أحد صاح علينا تلكم المرة. أعطى ذلك للأمر حدّاً، كوننا هناك، خطراً أكبر من أني وأنك كنا معاً. خَدَشنا أول اسمينا على الصخرة التي انتقل من عليها ذلكما الرجلان. (د – ج). وفيما بعد، بعد أن كان لنا مكان ونظام، كنت أحضر لك علباً كل مرة، وأقلق مما يجب أن أجلبه يجعلك تبتسمين وترضين بالمجيء ثانيةً، في مرة تاليَة. كم عدد أسطوانات الحاكي؟ كم عدد جوارب الحرير؟ العدّة الصغيرة لإصلاح نسل الجوارب، أتذكرين؟ علبة المعدن الأرجوانية بالأزهار على غطائها تمتلىء بشكولاتة «شرافتس». كولونيا في زجاجة زرقاء تجعل رائحتك كالغواني. أزهارٍ ذات مرة، ولكنها خيّبت أملك، فمنحتك دولاراً تشترين به ماتريدين. أجر يوم كامل كنت أعود به للبيت وأنا صغير. فقط لكَ. أي شيء فقط لك، لأقضم التفاحة كلها بعنف، أمضغ القلب ويبقى لديّ طعم جلدها الأحمر أحمله معي لباقي عمري. في غرفة ابن أخي «ملفون» بعلامة رجل الثلج في النافذة. كانت مرّتك الأولى، وكذلك أنا، حين نقول إلى حد ما. عن أي شيء، وسأقولها ثانيةً، سأبذل نفسي للجنّةَ، أبذلها! طالما تمسكين يدي، يافتاة. «دوركا»، يافتاة، هي مرّتك الأولى وكذلك أنا. وقد اخترتك. فلا أحد وهبك لي. لا أحد قال بأن هذه الواحدة لك. قمتَ باختيارك. في زمان خطأ، نعمَ، وكان خطأ علىَ زوجتي أيضاً. لكنه التخيّر، والاختيار. لاتظني بأني قد سقطت إليكِ، أو عليك. لم أقع في الغرام، بل ترقّيت فيه. رأيتك واتخّذت قراري. قراري. اتّخذت قراري أن أتبعك أيضاً. وكنت أعرف كيف أتصرف في طريقةَ العودة. ربما لم أخبرك بذلكِ الجزء مني. هبتي كانت في الغابة حيث حيث شخص ببصره (*) إليها، وكان على أحسن ما يكون ذاتَ يوم. ذات يوم. أولئك العجائز، يعرفون ذلك كله. لقد تكلمت عن كوني جديداً مرات سبعاً قبل أن قابلتك، ومنذ ذاك الحين، ذاك المكان، فلو كنت أو زعمت بأنك ملونة، فلا بد بأن تكوني جديدة كلَ مرة تنهض فيها الشمس وكل ليب فيهاً. وقد جعلتِني أخبركِ، ياحبيبتي، في تلكم الأيام، بأن ذلك كان حالتي العقلية».

❖ ❖ ❖

(*) يتذكّر «وايلد»، مَن تخيّلها أمه. (المترجم)

حين حاول إن أتصوّر حالة أي امرىء العقلية، أقول، بأنها محفوفة بالمخاطر. لكن هذه المتاعب تستحقّ لو كنت شبيهي – فضولياً، مبدعاً، وواشياً محترفاً. يتصرف «جو» مثلما يعرف عما يمكن أن يفعله العجائز لمواصلة الحياة، ولكنه لم يستطع أن يعرف الكثير عن «تروبيليه»، على المثال، لأني أشكّ بأن «ڤيولت» قد تحدّثت إليه ذات مرة عن جدّتها – بله عن أمها. ولذا لم يعرف. ولا أنا، رغم أنه ليس صعباً تخيُّل ما لابد أن كانت عليه.

إن حالتها العقلية، حين انتقلت من «بلتيمور» عائدة إلى مقاطعة «ڤسبر»، لابد أن تحتاج لدراسة. فقد تركت «وردزورث»، عاصمة المقاطعة، عبدة، وعادت في ١٨٨٨ امرأة حرة. كانت ابنتها وحفيداتها يعشن في مكان صغير وضيع يدعى «روما»، على بعد اثني عشر ميلاً شمال البلدة التي غادرتها. تتراوح حفيداتها في العمر ما بين الرابعة إلى الرابعة عشرة، وأحدهن «ڤيولت»، كانت بالثانية عشرة عند وصول «ترو بيليه». كان ذلك بعد مجيء الرجال لأخذ الحظيرة، والأواني، والكرسيّ الذي كانت ابنتها «روز دير» تجلس فيه. عند وصولها هناك، كان كل شيء قد راح، بجانب فرشهن القشية المستعارة والملابس التي كانت تسترهن، وكانت الورقة التي وقّعها زوج «روز» تقول بإمكانية ذلك – إن لدى الرجال حقاً في فعل هذا، ومن المفترض، بل من الواجب، فعله، حتى لو رفض المطر أن يمطر، أو سقطت أحجار الثلج من السماء بديلاً، ونصل المحصول تماماً إلي عيدانه. لا شيء في الورقة كان عن الزوج المنضمّ لحزب يخدم أصوات الزنوج. لم يتملكن منزلاً أو أرضاً، وكانت العائلة الصغيرة الحزينة التي وجدتها «تروبيليه» تعيش سراً في كوخ منعزل أقامه بعض الجيران لها، وكن يأكلن مما يجود به هؤلاء الجيران من الطعام أو مما تنهبه الفتيات. كثير من البامية والفاصوليا المجففة، ولأنهن كن في سبتمبر، فهناك الثمار ذات اللبّ من كل نوع. جلب لهن ابن الكاهن– مرتين، على أي حال – سنجاباً صغيراً، ليعيّدوا به. قالت «روز» للناس أن زوجها– والذي كان ممتلئاً وذاهلاً من انعدام نفع ظهره ويديه، والتعبان من الطماطم الخضراء المحروقة والبرغل، والجوعان فوق ما تتخيلوا لأي نوع من اللحوم وليس لجلودها فقط، والمهتاج من سعر القهوة وتقويسة ساقي فتاته الكبرى – رحل بشقّ الأنفس. صحا ورحل. خرج إلى مكان يجلس فيه ويفكّر، أو يجلس ولا يفكّر، في ذلك. كان من الأفضل أن تخترع كلاماً بدلاً من التصريح بما تعرفه هي. لربما يأتون

باحثين عنها في المرة التالية، وليس فقط عن أوانيها وأوعيتها وبيتها. من حُسن حظها، أن «تروبيليه» كانت تموت، وترغب في أن تدفن بمقاطعة «قسبر»، بعد أن وهبت كل دفق حياتها إلى مس «فيرا لويز» في «بلتيمور».

أخذ الموت الذي كانت تموته «تروبيليه» أحد عشر عاماً، أعوام طويلة كفتها أن تنتشل «روز»، وتدفنها، وترى زوجها يعود أربع مرات، وتصنع ستة ألحفة، وثلاثة عشر قميصاً نسوياً، وتملأ رأس «فيولت» بحكاياتها عن سيدتها البيضاء وعن نور حياتهما – شاب وسيم كان اسمه، لأسباب واضحة، «جولدن جراي». «جراي» لأن ذلك كان لقب «فيرا لويز» (وكان أيضاً لون عينيها، كثيراً، على الآخر)، و«جولدن» لأنه، وبعد اختفاء جلد مولده القرنفليّ الذي كان بطول ماتحت رأسه، شعّ لحمه ذهبياً. وغطت رأسه وشحمتي أذنيه خصلات صفر عريضة هشة. لم يكن في شقرة شعر «فيرا لويز» الأشقر تماماً، بل كان في لون نور الشمس، وقد حببته إليها، عقصاته المحدودة. لم تحبه على التو. أخذ ذلك فترة. ولكن «تروبيليه» فرقعت بالضحك عالياً لحظة أن وضعت عينيها عليه وبعدها فصاعداً ولمدة ثماني عشرة سنة.

كان ثلاثتهم يعيش في منزل رائع بالطوب الرملي على شارع «إديسون» في «بلتيمور»، بعيداً عن مقاطعة «قسبر»، حيث ولدت كل من «فيرا لويز» و«تروبيليه»، حينها كان ما أخبرته السيدة البيضاء لجيرانها والأصحاب حقيقةً جزئياً: أنها لم تكن تتحمل الطرق الضيقة الصغيرة في مقاطعتها الأم. ولذا جلبت خدّامتها ووليداً يتيماً تعتقد أنه من «بليتمور» لتختبر طريقة عيشٍ أكثر كلفة.

كان ذلك تحرّراً، وخيانة على التقريب أن تفعلها، فكانت الجارات والصواحب المقرّبات والمحيطات بـ«فيرالويز»، مهذّبات ومن على البعد بقدر استطاعتهن. لو أنهن فكّرن، فسيجبرنها على تقويم سلوكها، ولاعترفن بحاجتها للبحث عن زوج – وكن مخطئات. فإن الوافدة الجديدة من خارج الولاية، كانت ثريّة وعنيدة، تسعد ذاتها بالرفاهية وبأقل عدد من الرفيقات. وبالإضافة، بدت منشغلة كلياً بقراءة الكتب، وكتابة كتيبات صغيرة، والهيام باليتيم.

كان اليتيم، ومنذ البداية، يبدو كالقنديل في ذلك المنزل الهادىء الظليل. وكانتا تبدآن يومهما بالنظر إليه، ببساطة، وتتنافسان مع بعضهما البعض لأجل الضياء الذي كان يسبغه عليهما. كانت «فيرالويز» تدلّله بهياج، بينما تمنحه «تروبيليه» الغفران الكامل، وتطعمه وهي تضحك وتضحك، تلك الكعكة الناشفة، وتلقط كل حبّة بذر من البطيخ قبل أن تدعه يأكله. وكانت «فيرالويز» تهندمه وكأنه «أمير ويلز»، وتقرأ له قصصاً شائقة.

كانت «تروبيليه» بالطبع تعرف كل شيء كاملاً، لأنه، في المقام الأول، فلا أحد بإمكانه أن يُخفي الكثير في «وردزورث»، ولاشيء يمكنه أن يختفي في المنازل الكبيرة عن مالكيها. لم يلحظ أحد بالتأكيد عدد المرات التي كان يستدعى فيها الولد الزنجيّ ليركب مع مس «فيرالويز» خارج طريق «فيينا»، وأية ناحية من الغابة كانا يفضلان التنزّه فيها. كانت «تروبيليه» تعرف

ماتعرفه كل الإماء، وتعرف أكثر لأنها الوحيدة التي كان لها وظيفة فريدة تستميلها مِس «ڤيرالويز» إلى ما كانت تريده أو تحتاجه، متضمّناً أداء غسيلها، وبعضه كان لابد أن ينقع في الخلّ ليلةً مرةً في الشهر. ولو لم يكن يحتاج ذلك، ولو أمكن للملابس الشخصية أن يغسلها الباقي، فإن «تروبيليه» عرفت السبب، وعرفت «ڤيرالويز» بأنها عرفت. ولم تكن هناك حاجة على الإطلاق للحديث فيه. وكان الأبوان الوحيدين اللذين لم يعرفا. ولم يكتشف أبداً، الذي كان على وشك أن يكون أباً – الولد الأسود، لأن «تروبيليه» لم تحكي عنه، أما «ڤيرالويز» فلم تذكر اسمه مطلقاً أو تقترب منه بعد ذلك مرة أخرى. الكولونيل، الأب العجوز، لم يعلم شيئاً. لا أي شيء.

كان لابد لزوجته أن تخبره، أخيراً .أخيراً. رغم أنها لم تتحدث عن ذلك أبداً إلى ابنتها، حتى بعد أن اكتشفت، لم تحادث ابنتها على الإطلاق، كانت الوحيدة التي ينبغي لها أن تدع الكولونيل يعرف، وحين اكتشف وقف ثم جلس بعدها ثم وقف مرة أخرى. ربتت يده اليسرى حول الهواء باحثةً عن شيء ما: جرعة ويسكي ، البايب، سوطه، بندقيته الرشّ، مجلة «ديمقراتيك بلاتفورم»، قلبه – أيها لم تعرف «ڤيرالويز». بدا متأذياً، بعمق، تأذى بعمق لبضع ثوان. بعدها نزّ هياجه في الغرفة، مغيماً على الزجاج البلور ومليّناً غطاء المائدة المنشّى. كان إدراكه للشيء الفظيع الذي حدث لابنته يجعله يعرق، نظراً لوجود سبعة أطفال خلاسيين في أرضه. تصبّب عرق من صدغيه متجمعاً تحت ذقنه ؛ وانتقع إبطاه وظهر قميصه حين غمر هياجه الغرفة وفاض. مدّ اللبلاب على المائدة رأسه فجأةً وتقلقل الطبق الفضيّ في يده لحظة أن مسح على جبينه ملئماً شتات نفسه لأداء عملٍ مناسب: قذف فجأة بـ«ڤيرالويز» على المائدة المجهّزة للطعام.

كان لأمها، على أية حال، الحصاد الأخير: كانت حواجبها لاتزال متقنة، لكن النظرة التي منحتها لـ «ڤيرالويز» –بينا الفتاة كانت تنهض مكابدةً من الأرض– كانت ملأى بالتقزّز حتى أمكن للفتاة تذوّق اللعاب الحامض المتجمع تحت لسان أمها، والذي كان يملأ باطني خدّيها. فقط الخبز، حذر الخبز، لم يسمح لها بالبصق. لاكلمة، عندها أو بعدها، مرّت ما بينهما. وضعت حقيبة الملابس الداخلية مليئة بالمال على وسادة «ڤيرا» الأربعاء التالي، وكانت مثقلةً بالخزي من كرمها. كان المال أكثر مما يحتاجه أي امرىء في العالم لمدة سبعة أشهر أو يزيد بعيدا عن بيته. وكان المال الكثير للغاية رسالة لاتقبل الجدل: موتي، أو عيشي، كما تهوين، بأي مكانٍ آخر.

كانت «تروبيليه» هي الوحيدة التي أرادتها، والوحيدة التي أخذتها. لا أعرف كم كان من الصعب على امرأة عبدة أن تترك زوجاً، كان عمله وبعده يجعلانها لاترى الكثير على أي حال، وكذلك تترك ابنتين خلفها مع خالة عجوز لترعاهما. كانت «روز دير» و«ماي» في الثامنة والعاشرة من العمر عندئذ. تحتاجان لمساعدة كبيرة في ذلك السنّ لمن هما عنده، حيث لا تسعفهما الأمّ على الإطلاق لأنها كانت تعيش في «وردزورث»، على بعد أميال من زوجها في

منزل رجل ثريّ ترعى ابنته ليلاً ونهاراً. وربما لم يكن يشقّ عليها أن تطلب من أختها الأكبر أن تفتّش عن زوج لها وللبنات، حيث أنها مرتبطة مع مس «ڤيرالويز» في «بليتمور» لفترة. كانت «تروبيليه» في السابعة والعشرين، وأنّى لها أن ترى مدينة كبيرة عظيمة في أي ناحية؟

والأكثر أهمية، أن مس «ڤيرالويز» ربما تساعدها في شراء كل شيء بالأوراق المالية عندها، لأنها وهبت بالتأكيد الكثير منه لها. وهل يحدث ذلك مرة أخرى، ربما لا. قد تكون عابسة وهي تجلس في عربة الأمتعة، تتأرجح مع الصناديق وحقائب الثياب، غير قادرة على رؤية الأرض التي كانت تسافر عبرها. ربما أحست بنذير السوء. على أي حال، فقد رحلت، دون أي اختيار، تاركةً زوجاً، وأختاً، و«روز دير» و«ماي»، خلفها، وحين تقلق، كان الوليد الأشقر يسترضيها، ويسلّيها، لثمانية عشر عاماً، حتى غادر البيت.

وفي ١٨٨٨، بعد اثنين وعشرين عاماً من شنّ الحرب، كانت مس «ڤيرا» قد لُقّنتَ بعض المبادىء فور انتهاء الحرب (لكنها أمسكت عن الإبلاغ بها بصدق، خشية أن تحصد خدامتها ناتج هذه الأفكار). أقنعت «تروبيليه» نفسها وسيّدتها بأنها تموت، فحصلت على المال -عشرة أوراق من فئة العشر دولار- واستطاعت أن تلبي رجاء «روز دير» بالعودة إلى «ڤسبر» بحكاياها عن «بلتيمور» للأحفاد الذين لم ترهم قط. قامت بتأجير بيت صغير، اشترت موقداً فيه، وكانت تسعد البنات بوصف الحياة الرائعة مع «جولدن جراي». كيف كانتا تحمّمانه ثلاث مرات يومياً، وكيف كانت هيئة الفتى في فانلته المطرّزة بالخيط الأزرق. شكل الحمّام، وما كانتا تضعانه في الماء لتجعلاه أحياناً برائحة الزهرة ماصّة الرحيق وأحياناً برائحة اللاڤندر (★). كم كان ذكياً ومهذباً بحق. كانت التعليقات التي أدلى بها في طفولته ناضجة وجذلة، وكان شجاعاً وشهماً حين أظهر ذلك وهو رجل شاب، فقد ذهب ليبحث عن أبيه، ثم يقتله، لو كان محظوظاً.

لم تره «تروبيليه» مرة أخرى أبداً بعد رحلة خروجه، ولم تعرف إن كان حظّ «ڤيرالويز» الذي صادفها في هذا أحسن أم لا. وكانت ذكرياتها عن الولد أكثر من كافية. لقد فكّرت فيه كثيراً، وتعجّبت من محبة «تروبيليه» له، و«ڤيولت» أيضاً. أم كان ذلك لمجرد الزهو بأنفه الضيق، حين يقلق بخصوص معطفه والأزرار العاجية على صدريته؟ لقد جاء كل هذا الطريق لا لكي يهين أباه بل سلالته كلها.

أخبرته مرةً «ڤيرالويز» بأن لا يجب أن يكون شعره الجميل طويلاً هكذا، ولأنها بدت عارفة بمثل هذه الأشياء، فقد صدّقها هو. لأن كل شيء آخر قالته، على التقريب، كان خاطئاً، ولكنه احتفظ بهذه المعلومة الصغيرة الأخيرة كحقيقة مطمورة. كانت الخصلات الصفر تغطي على ياقة معطفه الذي بدا كمعطف فلاح، رغم أن المعلومة عن طوله الصحيح في بلدة

(★) زهرة الخزامى. (المترجم)

«بلتيمور» الأنيقة كان قد أخذها عن امرأة كذبت عليه عملياً في كل شيء، ومن ضمنه السؤال عما إن كانت مالكته، أو أمه، أو جارة لطيفة. أما الشيء الآخر الذي لم تكذب بشأنه (رغم أنه أخذ منها ثمانية عشر عاماً كانت تدور من حوله) أن أباه كان زنجياً أسود الجلد.

رأيته في كارتة بمقعدين. حصانه رائع - أسود. وكان صندوقه ملجوماً إلى ظهر الكارتة: واسعاً ومكتظاً بقمصان جميلة، وملابس كتانية، وملاءات مزخرفة، وأكياس مخدات؛ وصندوق سيجار، وأشياء فضية للزينة، معطف طويل، وفانلة ملوّنة بأساور وياقة بنية غامقة، مطوية بعناية جنبه. كان في طريقه الذي بعد طويلاً عن بيته، وبدأت تمطر بغزارة، ولأنه كان في أغسطس، فلم يكن بردانا. اصطدمت العجلة اليسرى بحجر فسمع، أو ظنّ بأنه سمع، ارتطاماً ربما كان ناجماً عن سقوط صندوقه. أرخى العنان لحصانه. ونزل ليرى إن كان قد حدث شيء لأشيائه. اكتشف بأن الصندوق محلول - انزلق الحبل وهو يميل. فكّ كل شيء وثبت الحبل بقوة أكثر.

كان راضياً عن جهده، ولكنه متضايق من المطر الغزير، ومن التلف الذي حلّ بملابسه، ومن سرعة رحلته، ونظر حواليه. في الشجر على يساره، رأى امرأة سوداء - توتة، عارية. كانت مغطاة بالوحل والأوراق في شعرها. عيناها واسعتان ومفزوعتان. مجرد أن رأته، بدأت حينها فجأة تستدير لتجري، ولكن في تحوّلها وقبل أن تنظر حولها، خبطت رأسها في الشجرة التي كانت تميل باتجاهها. كان فزعها رهيباً للغاية حتى أن جسدها كان قد فرّ أمام عينيها اللتين استعدّتا للعثور على طريقة للهرب. فأوقعتها الهبّة، وغلبت عليها.

نظر إليها، وتحرك في عجل، قابضاً على حافة قبعته، ليعود إلى عربته. لم يرغب في فعل شيء بخصوص ماقد رآه - في الحقيقة كان متأكداً من أن ما كان يهرب منه ليس امرأة حقيقية، بل «منظراً». وحين لقط العنان، لم يلحظ بأن حصانه كان أسود أيضاً، عارياً ومبلولاً بلمعان، وأن مشاعره تجاه الحصان كانت هي الأمان والعاطفة. خطرله أن شيئاً غريباً هناك كان بخصوص هذا الأمر: الكبرياء الذي يلتقطه من حصانه؛ ودوار المرأة المستنفرة. كان في مسيس الخجل، وقرّر أن يتأكد من أن ما يراه «منظر»، ولا توجد امرأة سوداء عارية ترقد في العشب.

ربط حصانه إلى شجيرة، وخوّض عائداً في وحل المطر، الذي قاده للمكان الذي سقطت به المرأة. كانت لاتزال ممدّدةً هناك. فمها ورجلاها مفتوحان. وتشكل حنية صغيرة على رأسها. بطنها كبيرة ومشدودة. فانحنى عليها، قابضاً أنفاسه ضد العدوى أو الرئحة أو أي شيء. أي شيء ربما يلمسه أو يخترقه. تبدو ميتة أو فقدت وعيها بعمق. وهي شابة. لاشيء يمكن أن يفعله لها ويجعله راضي البال. ثم لاحظ حركة متموّجة على بطنها. هناك شيء بداخلها يتحرك.

لم ير نفسه وهو يلمسها، بل رأى صورته التي يتخيلها وهو يسير مبتعداً عنها مرة أخرى،

يتسلّق عربته ويرحل ثانية. لم يكن مرتاحاً لصورته هذه عن نفسه، ولم يكن يريد إضاعة أي وقت في تذكّر أنه يفعل هذا. أيضاً هناك شيء عن المكان الذي أتى منه والسبب، أين هو ذاهب، ولماذا يستحثّ ذلك فيه تهوّراً حذراً ولحوحاً. لابد أن المشهد سيصير نادرة، حدثاً يثير أعصاب «ڤيرالويز»، فتدافع عنه ضدّ قتل أبيه. ربما.

فكّ معطفه الطويل الذي كان مطوياً بجانبه في المقعد، وألقاه على المرأة. ثم لقطها رافعاً إياها في ذراعيه، وحملها متعثراً، حيث كانت أثقل مما افترضه، إلى الكارتة. بصعوبة بالغة، جعلها في وضع الجلوس بالكارتة. رأسها محنيّ بعيداً عنه وقدماها تلمسان حذاءه الرائع، لكن الموحل. كان يأمل في أن لاتبدل حنيتها، رغم أنه لم يستطع فعل شيء بخصوص قدميها العاريتين القذرتين على حذائه، لأنه لوعدلها ثانية، فقد تنحرف عليه لاعلى جانبها من الكارتة. وبينما كان يستحثّ حصانه للمضيّ قدما، فقد كان يفعل ذلك هيّناً خشية الأخاديد والدرب الموحلة، لأنها قد تسقط أماماً أو تحتكّ به خفيفاً بدرجة ما.

كان يتجه ناحية منزل يبعُد قليلاً عن الدروب الخارجة من بلدة تُدعى «ڤيينا». هو المنزل الذي يعيش به والده. ويظن بأن فكرته هذه شيقة الآن، وحتى كوميدية، أن يقابل الزنجيّ الذي لم يره أبداً (والذي من جانبه لم يسع لرؤيته أبداً) وبملء يديه أنثى رخوة سوداء. في حالة، بالطبع، مالم تستيقظ وتظل رجفة بطنها خفيفة. ذلك كان يضايقه – فربما تستردّ وعيها مرة أخرى، وتصبح شيئاً مهماً له أكثر من غرضه المظلم الخاصّ.

لم يكن قد نظر إليها لفترة ما. وهو يفعل ذلك الآن، ويلحظ مسيلاً من الدم أسفل حنكها باتجاه رقبتها. لم تكن الحنية التي بقللت لحظة ارتطامها بالشجرة هي سبب شحوبها؛ فلابد أنها خبطت رأسها في صخرة أو أي شيء حينما سقطت. لكنها لا تزال تتنفس. يأمل الآنِ في أن لاتموت – ليسِ بعد، ليس حتى يصل إلى المنزل الموصوف والمخطّط له تفصيلاً في صور واضحة طفولية، من قِبل «تروبيليه».

يبدو أن المطر يتتبعه؛ وحين يحسب أنه على وشيك الانقطاع، يصير على بُعد ياردات بدرجة أشدّ. لقد ظلّ مسافراً طيلة ست ساعات، على الأقل، وكان صاحب الخان قد أكّد له أن رحلته ستنتهي قبل حلول الظلام. وهو غير متأكد الآن تماماً. فلن يستطيب قدوم الليل مع هذه المسافرة معه. استكنّ بانفتاح الوادي أمامه – لابد أنه سيأخذ منه ساعة لاجتيازه قبل وصوله للبيت من هذا الجانب من «ڤيينا» بميلٍ أو ميلين. فجأة، ينقطع المطر تماماً. وكانت أطول ساعة، أفعمتها الذكريات عن الرفاهية والألم. عند وصوله البيت، يندفع إلى الفناء، فيعثر على سقيفة بمربطين في الخلف. يتناول حصانه إلى أحدهما، ويمسحه بعناية حتى أسفل. ثم يرمي بطانية عليه، وينظر حواليه من أجلِ ماءٍ له وغذاء. قضى وقتاً طويلاً في هذا. كان هذا مهماً، حيث أنه لم يكن متأكداً من أنه مراقب مَن قِبل أي واحد في البيت. وكان يأمل ذلك حقاً، يأمل أن يراقبه

الزنجيّ فاغر الفم من شرخ بالألواح المشرفة كالحائط.

لكن مامن أحد خرج للحديث معه، فربما لا أحد هناك. بعد أن أوثق الحصان (لاحظ نعله الذي يحتاج إصلاحاً)، عاد إلى الكارتة لجلب صندوقه. حلّه ورفعه على كتفه. أساء هذا أكثر بصدريته وقميصه الحرير بينما كان يحمل ذاك إلى البيت. في الممشى الصغير، لم يقم بأي محاولة لطرق الباب وكان مغلقاً لكن بدون ترباس. دخل ناظراً حواليه من أجل مكان مناسب لصندوقه. وضعه على الأرض القذرة، وعاد يتفحّص البيت. به غرفتان: بكل واحدة سرير خفيف نقّال، ومائدة، وكرسيّ، ومدفأة، وبإحداهما موقد. ذكر متواضع، كان يحيا فيه، ورغم ذلك فلا إشارة تدلّ على شخصية صاحبه. الموقد بارد، والمدفأة عليها بعض رماد، لكن ولاجمرة. ربما رحل شاغله منذ يوم، وربما يومين.

بعد أن أوثق وضع صندوقه، راح عائداً إلى الكارتة ليجلب المرأة. وكان نزع الصندوق قد جعل الوزن يختلّ، فاستدقّت الكارتة قليلاً على محورها. دخل من الباب لينزع المرأة. لم يكن جلدها حارّاً تماماً حتى ليصعب عليه تناولها. ونزل المعطف الطويل حول قدميها كجرّافتي الوحل بينما كان يحملها إلى البيت. أرقدها على السرير وسبّ نفسه أنه لم ينزع بطانيّته أولاً. وهي الآن على رأس السرير، يبدو المعطف وكأنه يغطّيها كلها هناك. ربما يدوم انهيار حالتها. فدخل إلى الغرفة الثانية، وتفحّص صندوقاً خشبياً هناك، فعثر بفستان امرأة. استردّ معطفه بحذر شديد، وغطّى المرأة بالفستان ذي الرائحة الغريبة. فتح الآن صندوقه وتخيّر قميصاً قطنياً أبيض وصدريّة صوفية. وبدلاً من المخاطرة بإتلاف القميص النظيف على مسمار مدقوق في الحائط، طواه على الكرسيّ الوحيد. تفحّص بعناية الأشياء الجافة. ثم جرّب الإعداد لصنع نار. كان هناك خشب في صندوق الخشب والمدفأة، وفي أظلم ركن بالغرفة علبة كيروسين رشّها على الخشب. لكن لا كبريت. فتّش لوقت طويل عن كبريت، ووجد أخيراً بعضاً منه في علبة، ملفوفةً في قطعة من قماش مخدة. خمسة أعواد، كي نكون محدّدين. تبخّر الكيروسين من الخشب في الوقت الذي وجد فيه الكبريت. ما كان تأهّل لهذا. كان هناك آخرون يشعلون له النار فيما مضى من عمره. لكنه أصرّ، وأخيراً دمدمت شعلة جيدة. الآن يمكنه الجلوس، يدخّن سيجاراً ويتجهّز بنفسه لعودة الرجل الذي يحيا هناك. من المفترض بأن اسم الرجل «هنري ليتروي»، رغم الطريقة التي تنطقه بها «تروبيليه»، وربما كان شيئاً آخر. رجل بلا أي عاقبة ترجى منه، عدا سمعته الضئيلة كقصّاص أثر، والتي بنيت على مغامرة أو اثنتين تشيران لخبرته في قراءة الأثر. من وقت طويل مضى، حسب رواية «تروبيليه» التي منحته كل التفاصيل – لأن «ڤيرالويز» كانت تغلق على نفسها غرفة النوم أو تستدير برأسها حين يحاول انتزاع معرفة منها. «هنري ليتروي» أو «ليستروي»، أو ما يشبه ذلك، فمن كان يعنيه عندئذ كنه اسم زنجيّ. عدا المرأة التي أسفت أنها عرفته على الإطلاق، بل وسكّت بابها كي لاتصرّح بذلك عالياً. وقد أسفت على الوليد الذي منحها إياه أيضاً، كادت تفرّط فيه، لولا أنه كان ذهبياً، وهي ما رأت أبداً ذلك اللون عدا في سماء الصباح وزجاجات الشمبانيا. أخبرته «تروبيليه» أن «ڤيرالويز» ابتسمت ساعتها وقالت

«ولكنه ذهبيّ. ذهبيّ تماماً!» وبذا سمّيتاه كذلك، ولم تأخذاه لمستشفى اللقطاء الكاثوليكية، حيث تضع البنات البيض عارهنّ هناك.

عرف ذلك كله في سبعة أيام، وهي ثمانية الآن. عرف اسم أبيه، وموقع البيت الذي عاش فيه ذاتٍ يوم لأجل اثنين. عرف المعلومات من المرأة التي كانت تطبخ وتنظّف لـ «ڤيرالويز»؛ والتي كانت ترسل له سلالاً من الخوخ المحفوظ، فخذ خنزير، وأرغفة من الخبز كل أسبوع وهو في المدرسة الداخلية؛ والتي كانت تهب قمصانه الناسلة لرجال يشترون الهلاليل بدلاً من أن تدعه يرتديها؛ المرأة التي كانت تبتسم وتهزّ رأسها كل مرة تنظر فيها إليه. حتى حينما كان ولداً صغيراً برأس كثّة من خصل شمبانيا ملوّنة كثيفة، ويأكل قطع الكعك التي تمدّها إليه، فإن ابتسامتها كانت ممتعة بألذّ من اللذة. وحينما كانتا كلتاهما تحمّمانه، المرأة البيضاء والطباخة، فأحياناً ما كانتا تنظران بقلق ما بينهما على راحتي يديه، ونسيج شعره الجاف. حسناً، كانت «ڤيرالويز» قلقة؛ أما «تروبيليه» فتبتسم فقط، وقد عرف الآن ما كانت تبتسم له، ذلك الزنجيّ. لكنه كان هكذا. يظنّ دواماً أن هناك نوعاً واحداً فقط — نوع «تروبيليه». الأسود ولاشيء. مثل «هنري ليتروي». مثل المرأة الفاحشة التي تغطّ في النوم على السرير. لكن كان هناك نوع آخر — مثله هو.

كفّ المطر لوهلة، ظاهرياً. نظر حواليه لأجل شيء يأكله لايكون بحاجة للطبخ — جاهز الصنع. لم يعثر على شيء سوى إبريق خمرٍ. استمر في معاقرته مسنداً ظهره أمام النار. في الصمت الذي خلّفه انقطاع المطر، سمع وقع حوافر. رأى راكباً وراء الباب يحملق في عربته. يقترب. هاللو. هل أنت من أقارب «ليستروي»؟ أو ربما «هنري ليتروي» أو أياً كان اسمه؟ لم يطرف الراكب عيناً. «لا، ياسيدي. «ڤيينا». عدت مباشرة» لم يفهم أياً من ذلك. هو سكران الآن على أي حال. مبتهج. ربما يستطيع أن ينام الآن. لكن لا ينبغي. فصاحب البيت ربما يعود، أو ربما المرأة الرخوة السوداء تستيقظ أو تموت أو تلد أو...

حين أوقف عربته ذات المقعد الواحد، خرج لكي يربط الحصان ويأتي عائداً خلال المطر، ربما فعل ذلك لأن هذا الشيء ذا المنظر الفظيع الراقد في العشب المبلول لم يكن يستطيع أن يحميه، أو هو بمسكّن لما يعتقد بأنه أباه، أو نفسه هو (لو أمكن لهذا فحسب أن يحتويه، مطابقاً). أو أنه كان الشبح، المنظر كما ظنّه، الشيء الذي لمسه قبل سقطته؟ الشيء الذى رآه في النظرات المتفادية للخدم بمدرسته الداخلية؛ أو ماسح الأحذية الذي يتراقص بخفّة من أجل بنس. المنظر الذي تبدّى في نفس اللحظة حين كان فزعه حاداً، كأنه بيت مريح لدرجة تكفي لأن تتمرّغ باللذات فيه؟ يمكن أن يكون كذلك. ولكن من يستطيع العيش بشعره مورقا مثل هذا؟ وفي ذلك الجلد غير المفهوم؟ لكنه بالفعل عاش فيه ومعه: «تروبيليه» والتي كانت أول وأعظم حبّ له، والّذي سبّبه ربما مجرّد هفهفتين من شعره ذاك، ولون جلده، فإن غيابهما غير وارد. ولو ارتجف من انحناءة المرأة عليه، وانزلاقها يساراً لترتاح فعلاً في حينَ كانت تنام على كتفه، وكان صحيحاً أنه غالب الارتجاف. استوعب ذلك، ربما، حين أسقط الحصان بطقطقة.

أحبّ أن أفكّر فيه على هذه الطريقة. جالساً منتصبا في العربة. المطر يتخلل الشعر على

ياقته، مكّوناً بركة صغيرة ما بين فردتي حذائه. يُحدّق بعيون رمادية بينما يحاول الرؤية خلل صفحة الماء. ثم ينقطع المطر بدون تحذير، حين يدخل الطريق وادياً، تتكون حينذاك زبدة من صوف أبيض لشمسٍ تنطبخ هناك في سمائها. يمكن له الآن أن يسمع أشياء خارج ذاته. ورق من شجرٍ منقوع ينحلّ عن بعضِه واحداً بعد آخر. صوت سقوط الجوز، ورفيف حجلين يحكّان مناقيرهما في قلبيهما. سناجب تتنافس للقط الفتات، وتتوازن هناك لتخمن الخطر. يرفع الحصان رأسه لتفريق غيمة محوّمة من البعوض. يَنصت بحذرٍ حتى أنه لم ير العلامة -ميل واحد على «فيينا»- المحفورةَ رأسياً على الحجر. يمرّ بها، ثم يرى سطح كابينة لا تبعد خمسة أثمان ميلٍ أماماً. لاتكاد تخصّ أحداً، أحداً على الإطلاق. وعلى طول سورها الذي يضمّ فناءً قذراً به هزازة من دون أذرع ترقد على الجانب، بينما الباب مربوط بقطعة حبلٍ للإغلاق لكنه مخلّع المفصّلات، ربما، ربما كان يؤوي أباه.

يكبح «جولدن جراي» حصانه. وهذا عمل يؤديه جيداً. والآخر، عزف البيانو. يقود حصانه، مترجّلا، قريباً بدرجة تكفي أن ينظر. حيوانات في مكان ما ؛ يتمكن من شمها، لكن البيت الصغير يبدو فارغاً، لولم يكن مجروداً تماماً. بالتأكيد لم يتوقّع صاحبه حصاناً أو كارتة تصل - لأن بوابة السور تسع امرأة بدينة ليس أكثر. ينزع عدّة الحصان ويمشي به في طريقٍ لليمين فيكتشف، وراء الكابينة وتحت شجرة لايعرف لها اسماً، مربطين مفتوحين، أحدهما كان يمتليء بأشكال. حين قاد الحصان سمع خلفه أنين المرأة، لكنه لم يتوقّف ليرى إن كانت استيقظت أو ماتت أو سقطت من المقعد. رأى بالقرب من المربطين أن الأشكال ماهي إلا أحواض، حقائب، خشب ألواح، عجلات، محراث محطمّ، خضّاضة زبد، وصندوق معدني هناك وتدكذلك، فربط الحصان إليه. فكّر في الماء. ماء، لأجلِ الحصان. ماظنّه مضخة على البعد كان مقبَض فأس لاتزال مغروزة في جذع. وكان هناك انهمار رغم ذلك، تجمّع قليلٌ منه كان كافياً في حوض غسيل قرب الجذع المقشور. سيرتوي حصانه، لكن أينَها الحيوانات الأخرى التي يشمهّا ولايراها أو يسمعها؟ خارَج عريش العربة، كان الحصان يشرب بجشعٍ، ومالت الكارتة بدرجة خطيرة مع التوزيع غير المتساوي لصندوقها والمرأة. فتفحّص «جولدن جراي» أربطة الصندوق قبل ذهابه للحبل الذي كان يقفل باب المنزل الصغير.

ذلك ما يجعلني أقلق بشأنه. كيف فكّر أولاً في ملابسه، لافي المرأة. كيف تفحّص الأربطة، لا تنفّسها. كان من الصعب عليّ ذلك، ولكنه بعدها حكّ الوحل عن نعال «بلتيمور» قبل دخوله لأرضية الكابينة القذرة، فلم أكن كارهة له كثيراً حينذاك.

في الداخل، يأتي النور بطيئاً، ومُنهكاً، بعد اغتصاب طريقه من خلال ورق زيتيّ مثبّت بمسامير حول قائم نافذة الحائط الخلفيّ، ويرتاح النور أخيراً على الأرضية القذرة غير قادر على الوصول أعلى من خصر «جولدن جراي». أكبر شيء في الغرفة هو المدفأة. كانت نظيفة، ومعدّة لوضع نار جديدة، مدعومة بأحجار مشطوفة، وبذراعين معدنيين لوضع البرادات على

امتدادهما. بالنسبة للباقي: سرير خفيف نقّال، من الخشب، بطانية صوف بلون الصدأ مثبتة بإحكام على مرتبة رقيقة السمك كثيرة الحفر. لا قطع حجارة، لاريش بالتأكيد أو أوراق. هلاهيل. قطع من قماش غير مستعمل فعلاً مقحمة في غطاء وسائد. وكان هذا يذكّر «جولدن جّراي» بمخّدة «تروبيليه» التي صنعتها لـ «كنج» كي ينام عليها عند قدميها. كانت قطة من غير شخصية، لكنهما أعطياها اسم كلب ذكر قوي، وذلك كان السبب أن «تروبيليه» أحبّتها وكانت تريدها لصقها. سريران وكرسيّ واحد، كما يبدو. الشخص الذي يعيش هنا يجلس بمفرده على المائدة، لكن عنده سريرين: واحد في غرفة ثانية يدخله عن طريق باب أقوى وأفضل صنعاً من الذي للبيت نفسه. وفي تلك الغرفة، الثانية، صندوق وثوب أخضر لامرأة مطويا على رأس محتوياته. يبدو ذلك كشيء عارض تماماً، كما تحب. رفع الغطاء ورأى الفستان وكأن شيئاً حفره عميقاً، بل ذكّره الفستان بما لابد كان بأولويات باله: المرأة إلتي تتنفس بفمها في الغرفة الأخرى. هل يعتقد أنها ستفيق وتهرب، تريحه من اختياره، لو تركها وحيدة؟ أو ستموت، ويؤدّي هذا لنفس الشيء.

كان يتجنبها، أعرف. بعد أن فعل شيئاً كبيراً، شيئاً صعباً، بعودته لرفع الفتاة من العشب الذي لزق بينطلونه، بعدم النظر ليرى ما يمكن أن يراه من مناطقها الخاصة، لكنه صدم بتعرّفه على الشعر هناك، كان خشناً، وكان كثيفاً حتى أنه فرق ما بينه بظفر الإصبع. ولم يسع للنظر إلى شعر رأسها أيضاً، ولا للذي بوجهها فقد كان كنصال من العشب. رأى تواً عيون الغزال التي كانت مثبتة عليه خلال المطر، مثبتة عليه وهي تولّي الأدبار، مثبتة عليه بينما دار جسمها للفرار. لم يكن إحساس غزالة مرهفة فلم تكن تنظر في الاتجاه الذي كانت تنطلق إليه حالاً لترى شجرة القيقب العملاقة فوراً. فوراً. عند عودته إليها لم يدر إن كانت لاتزال هناك -فربما استطاعت النهوض والهرب- لكنه كان يصدّق، ويأمل، في أن تنطبق عيون الغزال. لم يكن فجأة متأكداً من نفسه. ربما كانت مفتّحة. امتنّ أن عيونها لم تكن هكذا ومنحه هذا القوة التي يحتاجهاليرفعها.

بعد أن ترنّح مع صندوقه، كان يخطو نحو الفناء. نور الشمس أطبق عينيه بقوة فغطاهما بيديه، واختلس الرؤية من خلل أصابعه ليصير بمأمن. وكان التنهّد الذي أطلقه عميقاً، استنشاق جائع للقوة والدأب طوال الحياة، ولكنه كان يطلبه على وجه الخصوص. هل يمكنك أن ترى الحقول المترامية، وهي مشقّقة بتجزيعاتها في الريح؟ مناقير الشحارير تصعد من لا مكان، تلوح ثم تختفي؟ رائحة الحيوانات غير المرئية تبرز في الحرّ المختلط الآن بنعناع مفلوت وشيء كالفاكهة يحتاج للقطف. لا أحد كان ينظر عليه، لكنه يتصرّف كما لو كان موجوداً. تلك هي الطريقة. احمل نفسك على فعل ماتهوى حتى لو كنت دائماً تحت النظرة الفاحصة لأحد المعارف العارضين.

هي لم تزل هناك. من الصعب تمييزها عن ظلّ كبّوت الكارتة النائمة من تحته. كل مافيها عنيف، أو يبدو كذلك، وسبب هذا أنها مبذولة تحت ذاك المعطف الطويل، ولا شيء

هناك سيمنع «جولدن جِرايِ» من التصديق بأن امرأة مبذولة ستنفجر في ذراعيه،أو الأسوأ، أن ينفجر هو فيها. لابد أن تحشر مع قطع الهلاهيل في قماش الوسائد، ويخاط عليها لإخفاء أوصالها المرئية وأجزائها المتحركة. لكنها هناك وهو ينظر في الظلّ ليعثر على وجهها، وعيونها الغزلان، أيضاً، لو أراد. عيونها الغزلان منطبقة وشكراً للرب أن لن تفتح بسهولة، لأنها مختومة على دم. طرطوفة جلد معلّقة من جبينها والدم غطّى نازلاً منها على عينيها وأنفها وأحد خدّيها قبل أن يستحيل إلىَ هلام. شفتاها كانتا أغمق من الدم، سميكتين حتى ليمكنهما أن تسخر منه أو تحطم قلبه.

أُعرف أنه مُراء ؛ فهو يكّون حكاية عن نفسه ليخبرها لواحد ما، ليخبر أباه طبعاً. كيف كان يقود على الطريق، ورأى وأنقذ هذه الفتاة السوداء الوحشية: لا إغماء، لم يحدث لي إغماء. إذن، انظرِ هنا، كيف أتلفت معطفي ووسّخت قميصاً بعد إصلاحه لن ترى واحداً مثله. ولديّ قفازاتٍ صنعت من باطن جلد بقرة صغيرة للغاية، ولكني لم أستخدمها في رفعها، أو حملها. كنت أمسكها بيديّ عاريتين. من العشب إلى الكارتّة ؛ ومن الكارتّة إلى هذه الكابينة التي لاتخصّ أحداً. أي أحد مطلقاً. أرقدتها على السرير الخشبيّ أول الأمر لأنها كانت أثقل مما تبدو عليه، وفي تعجّلي نسيت أن أرفع البطانية أولاً لأغطيها. فكّرت في الدم، كنت أظنه سيوسّخ المرتبة. لكن من يقدر أن يقول بأنها كانت قذرة أم لا ؟ لم أكن أريد رفعها ثانية، ولذا ذهبت إلى الغرفة الأخرى وجلبت الفستان الموجود هناك وثنيته جيداً حتى أتمكّن من أن أغطّيها به. عندئذ بدت عارية أكثر مما كانته من قبل أن أغطّيها، ولكن لم يكن هناك شيء آخر أفعله.

إنه يرقد، المُرائي. تمكّن من فتح صندوقه الكبير العريض ؛ نزع إحدى الملاتين المطرّزتين يدوياً، وحتى الروب ليغطّي به الفتاة. كان شاباً. في تمام الشباب. يظنّ بأن حكايته عجيبة. ولو حكاها بشكل صحيح، فإن أباه سيتأثر من عزمه، وشرفه. لكني أعرف أفضل من ذلك. فهو يودّ المباهاة بمثل هذا اللقاء غير المتوقّع، كفارسٍ هائم يتباهى ببروده أثناء ماكان يفكّ الرِّزة عن قلب الوحش فيتنفس الحياة وهي تعود إلى منخريه اللاهبين. غير أن هذا الوحش دون موازين أو نفس لاهبٍ بل خطراً أكثر، لأنها فتاة دامية الوجه بمناطق متحركة، وبعيونٍ نيّرة، وشفاهٍ لتحطم قلبك.

لماذا لم يمسح وجهها، أتساءل. فهي أكثر وحشية بهذا الشكل. أنقذها لتحيا. لو تنهض وتخمشه فسيرضيه هذا أكثر، ويؤكّد تحذير «تروبيليه» عن الرجل الذي أنقذ ثرثاراً، طبّب الثرثار، أطعم الثرثار، ليكتشف فحسب بأن آخر معلومة لديه على وجه البسيطة هي أن طبيعة الثرثار لا تنسخ. آو، لكنه شاب، شاب ويتألم، ولذا فإني أغفر له خديعته لنفسه، وتلميحاته المزورة المضخمة، وحين أراقبه وهو يرشف متعجلاً خمرة القصب التي وجدها، قلقاً من شأن معطفه وغير ميّال للفتاة، فإني لا أكرهه على الإطلاق. لديه مسدّس في صندوقه، وعلبة سيجار فضية، لكنه ولد رغم كل شيء، يجلس إلى المائدة في الكرسي الوحيد ليغير ملابسه بأخرى نظيفة، لأن التي يرتديها، مبلولة من عند الأساور والمرافق،قذرة بالعرق، بالدم والطين. هل لابد أن يسترد

الهَزازة المحطَمة من الفناء الأمامي؟ يذهب ليفحِص الحصان؟ يفكّر في ذلك، حركته التالية، حينها يسمع ببطء، وقع حوافر مكتومة. كان يحملق في الفتاة ليتأكد أن الفستان لم يمسسه دم، يفتح الباب ويحدّق في الفناء. كان يطفو تجاهه بمحازاة السور، ولد أسود منفرج الساقين على بغلٍ.

كان لابد أن يقول «صباحاً» رغم أن ذلك لم يحدث، لكنه ظنّ بأن الرجل المترنّح الخطى وهو ينزل السلالم رجل أبيض، ولا يمكن الكلام معه بغير استئذان. فكّر في أنه سكران أيضاً، لأن ملابسه لجنتلمان ينام في فنائه الخاص بعد حفلة كبيرة لافي سرير زوجته، وعندما يصحو تجيء كلابه تلحس وجهه. فكّر في أن هذا الرجل الأبيض، الجنتلمان السكران، جاء يبحث عن السيد «هنري»، ينتظره، يحتاج ديوكاً رومية برية الآن، الآن، اللعنة على ذلك – أو الجلود المسلوخة، أو أي شيء وعده به السيد «هنري» كدين عليه أو مباع.

«هاللو»، قالها الجنتلمان السكران، ولو شكّ الولد الأسود لدقيقة في أنه أبيض، فإن ابتسامته غير المبتسمة والتي جاءت مع التحية، تكون قد أقنعته.

«سيدي».

«تعيش هنا في المكان؟»

«لا، ياسيدي».

«لا؟ من أين إذن؟»

«من خارج طريق ڤيينا».

«صحيح؟ على أين طريقك؟»

حين أخذا يتساءلان معظم الوقت، كان ذلك أفضل. لو قالا أي شيء سطحيّ، فذلك مالم يكونا يريدان سماعه. التقط الولد الخيش من شنطته. «أبحث عن الماشية. فقد قال لي السيد هنري أن لابد أن أراها». تراها، راحت الابتسامة. «هنري؟» سأله الرجل. كان لون وجهه بشكل آخر الآن. فيه دم أكثر. «أنت قلت هنري؟»

«نعم، سيدي».

«أين هو؟ هل قريب؟»

«لا أعرف سيدي. قد رحل».

«أين يعيش. في أي منزل؟»

أوه، فكّر الولد، هو لايعرف السيد «هنري» لكنه يبحث عنه «مكانه هنا».

«ماذا؟»

«هذا مكانه».

«هذا؟ هذا له؟ يعيش هنا؟» غادر الدم وجهه فأظهر عينيه أفضل. «نعم، سيدي. حين يعود. لن يعود الآن».

عبس «جولدن جراي». فكّر أنه لابد يعرف ذلك، دون أن يخبره أحد، واندهش لهذا، فاستدار من حوله لينظر عليه. «أنت متأكد؟ متأكد أنه يعيش هنا؟ هنري ليستروي»

«نعم، سيدي».

«متى سيعود؟»

«في أي يوم قريب».

أجرى «جولدن جراي» إبهامه على شفته السُفلى. رفع عينيه من علي وجه الولد، وحملق عبر الحقول التي كانت مجزّعة في الريح. «ماذا قلت قد جاء بك إلى هنا؟»

«أرى ما شيته».

«ماشية ماذا؟ لاشيء هنا غير حصاني». «خارجة ستعود» أشار بعينيه وإيماءة من يده. «فهي تجول هنا وهناك. قال السيد «هنري» أنا لابد أن أنظر لأراها وهي تعود حتى لاتشرد». لم يسمع «جولدن جراي» الفخر في صوت الولد «قال السيد هنري أنا...»، لأنه كان مفزوعاً لدرجة أنه ضحك. ذلك ما كان، إذن. المكان الذي قصد أن يجيئه الآن وفي أي يوم، فإن أكثر الرجال اسوداداً في العالم لابد أنه موجود هنا كذلك. «حسناً، إذن. داوم على ذلك». جرّ الولد بغله – لأجل لاشيء، ظاهرياً، فلابد أن يخبط جنبي الحيوان بكعبيه القشديين قبل أن يطيع.

«انظر!» رفع «جولدن جراي» يده. «عندما تنتهي من ذلك، عد هنا. أريدك أن تساعدني في شيء. سامع؟»

«حاضر، سيدي. أعود».

دخل «جولدن جراي» الغرفة الثانية ليُغيّر ملابسه – اختار هذه المرة شيئاً رسمياً، أنيقاً. كان الوقت مناسباً لذلك. أن يختار قميصاً لطيفاً جدا، ويفكّ ثنية البنطلون الأزرق الداكن المتماشي معه. في الوقت المناسب والوقت الوحيد لأي واحد كان يعرفه من «ڤيينا»، ارتدى الملابس التي كان يرتديها هذه اللحظة. حين أخرجها، وضعها بالترتيب على السرير – القميص الأصفر، البنطلون بأزرار العظم في السوستة، والصدرية بلون الزبدة، ترقد كلها على الفراش، كأنها رجل فارغ بذراع واحدة مطوية لأسفل. جلس على المرتبة الخشنة قرب ثنية البنطلون، وعندما تشكّلت بقع غامضة على القماش رأى أنه يبكي.

فقط الآن، فكّر، أعرف الآن أن لديَ أباً، وكم أشعر بغيابه: المكان المفترَض بأن يكون

فيه وليس فيه. من قبل، كنتُ أظنّ بأن كل البشر بذراعٍ واحدة، مثلي. أما الآن فأشعر بالجراحة. مضغة العظم التي انفصلت، شريحة اللحم وأنابيب الدم المقطوعة، تصدم مجرى الدم وتزعج الأعصاب. تتدلّى وتلتوي. تنشد الألم. توقظني بصوت ذاتها، وتنمّل حين أنام بعمقٍ حتى أنها تخنق أحلامي تماماً. لاشيَء من أجل ذلك إلا الرحيل من حيثُ لايوجد هو إلي حيثما يعتاد أن يكون وقد يداوم أن يكون. دعِ التدلّي و التلوّي يرى ماقد فقد ؛ دعِ الألم ينشد للقذارة التي خطا عليها في المكان حيثما يعتاد أن يكون وقد يداوم أن يكونَ. سوف لن أبرأ، أو أجد الذراع التي نزعت مني. لسوف أنعش الألم، أحدّده، حتى يعرف كلانا لأي شيء هو.

ولا، لستُ غضباناً. فأنا غير محتاجٍ للذراع. ولكنني أحتاج بشدة أن أعرف ماذا كانت تشبه لو أنها كانت هناك. هي شبح عليّ أن أحضنه ويحضنّي، في أى شقّ يرقد، تحت أيّها غصن. أو ربما يطارد أمكنةً خلاءً وقفراً، مضاءً بشمس زيتية. هذا الجزء مني الذي لا يعرفني، لم يلمسني بتاتاً أو تلبّث في جانبي. هذه اليد التي رحلت، لم تساعدني أبداً في عبور السياج، أو أرشدتني أمام التنانين، أو اجتذبتني من خندقٍ حيثما زلّلت. أو مشّطت شعري، أطعمتني طعاماً ؛ أخذت الطرف البعيد من الحمولة لتجعل ذلك أسهل لي في الحمل. هذه الذراع التي ما انطوت من ذاتها، ممدودةً من بدني؛ لتهبني التوازن حيث أسير على قضبان أو جذوع، دائرية، وتنزلق بخطورة. حين أجدها ، هل ستلوّح لي؟ تومىء، تدعوني لأن آتي بصفقّها؟ أو حتى ستعرف مَن أنا أو ما أكون؟ هذا لايهمّ. سوف أموقعها بحيث يمكن للجزء الأكثر إيلاماً أن يتذكّر الانتزاع، شريحة بتشوّهها. ربما عندها لن تعود الذراع شبحاً، لكن ستأخذ شكلها الخاصّ، تنمّي عضلتها وعظمتها الخاصة، ولسوف يضخّ دمها بالنشيد الصاخب الذي التقى غرضه بعزف السيرينادا (*). آمين.

مَن سوف يأخذ دوري؟ يغسل العار تماماً؟ يُرغّيه حتى يتساقط القذَر كليةً عند قدميّ لتخطوا بعيداً عنه؟ هل هو؟ يستردني كتذكرة الرهان التي لاتستحقّ كثيراً في مكان السوق، ومعدومة الثمن بقيمتها الحقيقية المستردّة؟ مالونَ جلده هو الذي أهتمّ به، أو ما صلته بأمي؟ حين أراه، أو أري ما تبقّى منه، سأخبره كل شيء عن الجزء الناقص مني، وأنصت إلى عاره الباكي. لسوف أستبدل إذن، أدعه ليمتلكني وأمتلكه كما فعل، وكلانا سوف يتحرّر، يداً متدلية وكلاً.

سوف يصدَم حين يسمع مَن وماكُنه والده. فيجعله مُنفلتاً، ضائعاً. أشار أولاً، ثم مزق بعض ملابس أمه، بعدها جلس في العشب ناظراً على الأشياء مبعثرة في المرج كما هي في باله. أنوار شحيحة تتحرك كديدانٍ تمرح أمام عينيه، ونسيم اليأس كان برائحة كريهة. كانت

(*) serenade: لحنٌ يعزفه عاشقٌ ليلاً تحت شرفة محبوبته. (المترجم)

«ترويبيليه» هي مَن ساعدته على النهوض من العشب، صبَّنَتْ شعره الميّاس وأخبرته بما كان لابد أن يفعله.

«قُم» قالت. «سأخبرك كيف تجده، أو تجد ما تبقّى منه.لايهمّ إن وجدته أو لا ؛ فالرحلة هي التي يعوّل عليها». لَمَّ ما أخبرته أن يلمّه، وحزمه كله، بدأ الرحلة. بأثناء الرحلة، كثيراً ما كان يقلق مما يبدو عليه، أي درع كان يستدعيها. لاشيء إلا صندوقه وجهاز مخلبه. لكنه كان مستعداً، مستعداً للقاء الرجل الأسود المتوحّش الذي ضايقه وأساء لذراعه.

بدلاً من ذلك، قابل، قابل صدفةً، فتاة سوداء وحشية هشّمت رأسها من الرعب، وهي ترقد الآن في الغرفة الأخرى، بينما يدور ولد أسود بالخارج حول الماشية. ظنّ بأن هذه المرأة ستكون رمحه والدرع ؛ ولكنه الآن سيكون ذاته. ينظر لعيون الغزلان برمادها الغسقيّ التي تشبهه. يحتاج شجاعة من أجل ذلك، لكنها لديه. لديه الشجاعة ليفعل ما فعلته دوقة «مارلبورو» طوال الوقت: يهجر كونه برعماً معبوداً يصافح مستقبله، ويجرؤ على الانفتاح واسعاً، يدع طيّات بتلاته تتسطّح، يظهر عنقود الأعضاء الذكرية بالنقطة الميتة للجميع لكي يروه.

ما الذي أفكّر فيه؟ كيف يمكن أن أتخيله بائساً تماماً؟ لايلحظ الأذى المرتبط بغير لون جلده، أو بالدم الصاخب من تحته. لكنه ولشيء آخر تاق إلى التوثيق، لحقيقة أن يكون بهذا المكان، دون إجهاد، دون حاجة لاكتساب وجه مزيّف، لتكشيرة غير ضاحكة، لموقف كلام. لقد كنت مهملَةً وغبية، وهذا ما أحنقني، أن أكتشف (ثانية) كم أنا غير موثوق بها. حتى حصانه قد فهم، وحمل «جولدن جراي» على الطريق بمجرد لمسة أو اثنتين من السوط. بثبات كان يتهادى، خلال الأودية بدون قضبان، خلال جداول الماء دون جسور أو معدّيات للعبور. لمحة عين فقط فوق الطريق، لم تذهله الحياة البسيطة التي رمحت تجاه حوافره، تحمل ثقل صدره العريض أماماً، فيعدو ليستمرّ على قوّته ويجمّعها أكثر. لم يعرف على أين يذهب ولم يعرف شيئاً عن الطريق، لكنه كان يعرف تماماً طبيعة عمله. أن نصل إلى هناك، قالت حوافره. لو أمكن لنا فقط الوصول هناك.

وعليّ الآن أن أفكّر في هذا، بعناية، حتى لو أدنتموني بسوء فهمٍ آخر. عليّ أن أفعل هذا ولا أنحطم. أن لا أكرهه ليس كافياً ؛ بل الولوع به، فإن عشقه ليس يجدي. عليّ أن أعدّل الأشياء. أن أكون ظلاً يرغبه تماماً، كأنني بسمات الموتى التي رحلت عن حياتهم. أريد أن أحلم حلماً لطيفاً له، وآخر عنه. أرقد ملاصقة له، تجعيدة في الملاءة، وأتملّى ألمه، وبفعلي هذا أريحه، أجعله يضعف. أريد أن أكون اللغة التي ترغبه تماماً، تتحدث باسمه، توقظه عندما تحتاج عيناه أن تتفتّحا. أريده أن يقف جنب بئر محفورة كلها في خلاء من الأشجار وبذا فإن الأوراق والتويجات لن تسقط في الماء العميق، وبينما يقف هناك في النور المتشكّل، تكون أطراف أصابعه على حافة الصخرة، ونظرته ليست على شيء واحد، باله منقوع ومخضلّ بالأسى، أو جافّ وهشّ من يأسٍ كان يأتي من أنه يعرف القليل لكن يحسّ بالكثير (هشّ تماماً، جافّ

تماماً حتى أنه خطر في أن ينقلب: لايحسّ شيئاً، ويعرف كل شيء). هناك إذن، لا شيء متاح إلا النقيع أو الهشاشة، لا ينظر حتى إلى البئر، غير واع حتى بطحلبيته، رائحة لا تسرّ، أو حياة بسيطة تحوم على حافته، لكنه وقف هناك بالقرب منه ومن قاعه، حيث لا يصل النور، جمع مهتاج من البسمات الراحلات، بضعة من حبّ قصير كريم يرتقي من العتمة ولاشيء من أجله كي يراه أو يسمع به، ولاسبب هناك كي يبقى ولكنه يبقى. لأجل الأمان في البداية، ثم لأجل الصحبة. ثم لأجل نفسه – بنوع من قوة الواثق، القادر، الهادىء الذي يضرب خفيفاً كموسى ثم يختفي بعدها. قد أحسّ بذلك الآن، وربما يأتيه ثانيةً. ولاشك أن أشياء أخرى سوف تأتي ثانية: شكّ سيأتي، وأشياء تبدو غير واضحة بين وقت وآخر. لكن لو ضربت شفرة الموسى خفيفاً – فسوف يتذكّرها، ولو تذكّرها فسيسترجعها. هذا ما يجب أن يقال، وهذا ما كان في تدبيره.

❖ ❖ ❖

كان الولد في الثالثة عشرة، وقد رأى أناساً كثيرين يسقطون على محراث، أو يبقون بعد مولد طفل، أو أطفالاً غرقى، حتى يعرف الفرق بوضوح ما بين الأحياء والموتى. فإن ماراَه راقداً على السرير تحت فستان أخضر لامع، كان يظنه حياً. لم يرفع الولد وجهه عن وجه الفتاة (إلا عندما قال «جولدن جراي»: «وجدت هذا الفستان الأخضر هناك وقد غطّيتها به») حدّق في الغرفة الثانية، وعاد إلى الرجل الذي ظنّ بأنه أبيض. رفع الولد كمّ الفستان، وربّت على الثلم الذي بجبهة الفتاة. كان وجهها ساخناً ناراً. والدم جاف كجلد.

– «ماء» قال، وغادر الكابينة.

بدأ «جولدن جراي» يتتبعه ولكن واقفاً في المدخل غير قادر على التقدم أو التأخّر. عاد الولد بسطل من ماء البئر وكيس خيش فارغ. أغطس فنجاناً في الماء، وقطّر بعضاً منه في فمها. لم تنفخ أو تتقلب.

«منذ متى كانت بالخارج؟»

« أقلّ من ساعة» ، قال «جولدن جراي».

ركع الولد لينظّف وجهها، وفي بطء رفع كل بقع الدم عن خدّها، وأنفها، وأحد العينين، ثم الأخرى. كان «جولدن جراي» يراقبه، وظنّ بأنه على استعداد ليرى عيون الغزلان تلك وهي تتفتح.

❖ ❖ ❖

إن شيئاً مثل ذلك يمكن أن يضرُّكِ. بعد ثلاث عشرة سنة منذ صالب «جولدن جراي» نفسه لكي ينظر على تلك الفتاة، فإن الضرّ الذي أمكنها أن تؤدّيه لازال حياً. الفتيات الحوامل هنّ المشكوك فيهن أكثر، لأن أجدادهن كانوا هكذا. أية فتنة يمكنها أن تميّز حديث الولادة: بطيخ، أرانب، نبتة الحلوة، حبل، وأكثر من جلد حيّة منطرح، وامرأة وحشية أسوأ من كل ذلك. إن التحذيرات التي كانت تتلقاها البنات تعتبر جزءاً من مجموعة كاملة من الأشياء للتحذير، خشية أن يأتي الوليد ملحاحاً هنا، أو خادماً لارتباك الأم. من يظنّ بأن الرجال العجائز محتاجون للاحتراس كذلك؛ يحكى لهم عنها ويتم تحذيرهم من أن يروها، يشمّوها، أو حتى يسمعوها؟

كانت تعيش بالقُرب، قالوا، ليس بعيداً عن العُمران في الغابة أو حتى بأسفل قاع النهر، لكن في مكان ما بحقل القصب ذاك – عند حافته، قال البعض، أو ربما تتنقّل من حوله. قريبة منه. ويصير حصاد القصب مسعوراً أحياناً حين يتملك الشبان إحساسهم أنها هناك فقط تختفي، ولربما تنظر إليهم. يلوّح أحدهم بشفرة الحصيد ليمكنه بتر رأسها لو كانت قريبة للغاية أو تجرأت عليهم، ويكون ذلك خطؤها هي. حين يحدث ذلك يحصدون بطريقة سيئة – عندها تطير عيدان القصب لتلطم الوجوه، أو ينزلق المنجل ويجرح زميل عمل قريب. لمجرد التفكير فيها، أن تكون قريبة أم لا، يمكنه أن يجعل صباحية عمل كاملة فوضى.

الأجداد، أمام أرض محروثة، لكنهم لازالوا قادرين على ثني العيدان أو تغذية وعاء تكرير السُكّر، ومعتادين على التفكير بهدوء. كان ذلك حين جاء الرجل الذي كان يدعوه الأجداد «هنترز هنتر» (*).، يطرق أكتافهم بأطراف أصابع ليست لأي أحد غيرها. حينها قاطعهم الرجل بغلظة، رأى عيدان القصب تهتزّ ولكنه لم يسمع ولو تشققاً واحداً. لأنه كان معتاداً على حياة الغابة أكثر من الحياة المدجّنة، وعرف ذلك حين لاحظته العيون لما كان بأعلى الشجرة، خلف الهضبة الصغيرة، أو نحو ذلك، في مستوىً أرضيّ. يمكن أن ترى كيف كان متحيّرا: أطراف الأصابع على كتفه، والعيون على قدميه. أول ماجاء لباله كانت المرأة التي سمّاها بنفسه منذ

(*) بمعنى «صياد الصيادين». (المترجم)

ثلاث عشرة سنة مضت، لأنه حين كان يستميلها، فأول كلمة فكّر فيها هي: «وايلد». كان متأكداً أنه يستميل فتاة صغيرة لذيذة، لكنها تجهّمت في البداية، بل إنه حين عضتّه قال، أوه، هي وحشية (*). كان يفكّر في أشياء على هذه الشاكلة. وليس هناك مكسب من ذلك يفهمه أكثر.

رغم ذلك، تذكّر ضحكتها، كم كانت آمنة في الأيام القليلة الأولى التي تلت العضّة، ولذلك لم ترعبه لمسة أطراف أصابعها، لكنها جعلته حزيناً. حزيناً حتى أنه أبلغ المشهد لزملاء عمله، رجال عجائز مثله لم يعودوا قادرين على الحصاد طول النهار. وبغير تحذير، حين لمحوها، لم يكونوا مستعدين لكيفية سريان دمهم هكذا، أو لكيفية ارتعاش أرجلهم عند سماع ضحكة الفتاة الطفولية. تميز الفتيات الحوامل صغارهن أولا يميّزن، لكن الأجداد -بدون تحذير- كانت رؤوسهم تلين، وهم يخرجون من بيوت الشراب، يتركون أسرّتهم عند ساق الليل، يبلّلون أنفسهم، وينسون أسماء أطفالهم الكبار، وأين يضعون مشاحذ أمواسهم.

حين عرفها الرجل الذي كانوا يدعونه «هنترز هنتر» -استمالها- كانت ممسوسة. لو تعامل مع ذلك مباشرة، فلربما قعدت في البيت، ورعت وليدها، وتعلّمت كيف تلبس وتتكلّم مع القوم. بين الحين والآخر، حين كان يفكّر فيها، كان مقتنعاً بأنها ماتت. عندما لا يكون لها أي علامة هناك أو أيها صوت لعدة أشهر، كان يتنهّد، ويستعيد الحياة في ذلك الزمن حين كان منزله يفرغ من الأمومة - وقد كان الفراغ من الأمومة متوفراً أساساً عند «وايلد». كان أهل الحيّ يستخدمون قصّتها لتحذير الأطفال والفتيات الحوامل، وقد أحزنه - بدلاً من ذلك- أن يعلم بأنها كانت لاتزال جوعانة. رغم أي شيء، لم يستطع أن يقول، أن لون الشعر كان كاسم الشاب(*) أن تراهما معاً كان صدمة دائمة: رأس الرجل الشاب بشعره الأصفر الطويل كذيل كلب بجوار الصوف الأسود لخصلتها.

هو لم يحك هذا، ولكن الأخبار انتشرت به على أي حال: إن «وايلد» لم تكن قصة فتاة مجنونة منذ زمان طويل، حيث كان يتخيّلها قاطعو رقاب القصب تحت نصالهم، أو في وقفة متعجلة وقريباً من أطفال مستهزئين. كانت لاتزال خارجة هناك - وحقيقية. رأى أحدهم الرجل الذي كانوا يدعونه «هنترز هنتر» يقفز، ويقبض على كتفه، وحين استدار ليحملق في حقل القصب، دمدم صاخباً حتى سمعه واحد يقول «وايلد. طاردوني، إن لم تكن هي وايلد».
تحسرت الفتيات الحوامل على الأنباء، وظللن يكنسن الأفنية القذرة ويرششنها، وكان الشبان يسنّون شفراتهم حتى تصفرّ الحوافّ. لكن العجائز بدأوا يحلمون. تذكّروا حين أتت، ماذا كان شكلها، لماذا مكثت، وذلك الولد الغريب الذي وضعته ابن الشوارع.

لم ير هذا الولدَ كثيرٌ من الناس. لم يكن الأول «هنترز هنتر»، والذي كان يفتش خارج

(*) معنى كلمة «وايلد». (المترجم)

الديار عن ثعلب كي يبيعه. كان الأول ولَد «باتي»، «آنِر». كان في زيارةٍ قصيرة لبيت «هنري» حين كان هو خارجه، وفي أحد الأيام وقف جواره -ليزيل قليلاً من العشب، ربما، وليرى إن كانت لاتزال الدجاجاتِ والخنازير أحياء- وكانت تمطر طول الصباح. صفحات من ماء المطر جعلت الظهيرة أقواس قزح في كل مكان. أخبر أمه فيما بعد بأن الكابينة كلها كانت قوس قزح، وحين خرج الرجل من الباب رأى «آنر» شعره الأصفر المبلول وجلده القشديّ. ظنّ بأن عفريتاً استولى على المكان. ثم أدرك أنه كان يرى رجلا أبيضاً ولم يعتقد أبداً في غير ذلك، حتى حين رأى وجه «هنري» عندما أخبره الرجل الأبيض أنه ابنه.

حينما صار «هنري ليستروي»، رجُل الغابات الخبير للغاية، صياد الصيادين (ذلك ما كانوا يدعونه به، حين يتكلمون عنه أو إليه)، عاد فرأى عربة بمقعد واحد وحصان جميل مربوطة بالقرب من حظيرته، فانزعج على التوّ. مامن أحد يعرفه كان يقود مثل هذه الكارثة؛ ومامن حصان في المقاطعة له مثل هذا العرف المقصوص والممشّط على هذا النحو. بعدها شاف ركوبة البغل لولَد «باتي» فاطمأن قليلاً. وقف على بابه، مرّ به وقت عصيب حتى تبينّ ما كان ينظر إليه. كان ولَد «باتي»، «آنر»، راكعاً جنب السرير الذي ترقد عليه فتاة حامل، ورجل بشعر ذهبيّ يدور حولهما من أعلى. لم يأت إلى منزله رجل أبيض. انتفخ «هنترز هنتر». كل الآلام التي كان تلقّاها أطلقت للجحيم.

وحين استدار الرجُل الأشقر لينظر إليه، اتسعت العينان الرماديتان، ثم أُغلقتا، ثم انزلقتا بطيئاً من حذاء «هنتر» لأعلى إلى ركبتيه، إلى الصدر إلى الرأس، وكانت حملقة الرجل كلسانه. في وقت أن كانت العينان الرماديتان بمستواه، كان على «هنتر» أن يكفّ عن الشعور بأنه وقع بفخّ -في منزله. حتى أنين الفراش لم يكسر من قفل تحديق الغريب. كل شيء فيه كان شاباً وناعماً- عدا لون عينيه. وكان «آنر» ينظر من أحدهما إلى الآخر. «سعيد بعودتك ياسيد هنري».

«من هذان؟»

«كلاهما كان هنا قبل مجيئي».

«من يكون هذان؟»

«لا أعرف، سيدي. كانت المرأة متوعّكة، لكنها بدأت تفيق الآن».

ليس مع الرجل ذهبيّ الشعر مسدس يمكن لـ «هنتر» أن يراه، كما أن حذاءه الرقيق لم يمش أبداً على طرق ريفية. ملابسه تنطق بهيئة كاهن، وقد عرف «هنتر» من الأيدي شبه النسوية أن الغريب عمره ماضرب بطليخة بسيف يد قوية ليهشمها. سار إلى المائدة ووضع جرابه عليها. بركلة واحدة قذف زوجاً من الدجاج على الأرض إلى الركن. لكنه احتفظ ببندقيته في

(*) Golden :جولدن: ابن ڤيرالويز، امرأته البيضاء. (المترجم)

انعطافة ذراعه. وبقُبّعته على رأسه. تتبّعت العينان الرماديتان كل حركة منه.

«سقطت هذه المرأة بشكل مُريع حسب ما يمكن أن أخبرك . وكان هذا الجنتلمان هنا، حملها إلى هنا. وقد نظّفت الدم قدر استطاعتي». لاحظ «هنتر» الفستان الأخضر الذي يغطّي المرأة، وبقع الدم المسودّة فوق الكمّ.

«أدخلتُ الدجاج ومعظم الخنازير. وكذا ما تُسمّيه «سبت بوبا». إنه صغير لكنه يكبر، ياسيد هنري. كبير ومعقول...».

كانت زجاجة خمرة القصب على المائدة، منزوعة الغطاء وكاس صغيرة جنبها. تمعّن «هنتر» في محتوياتها وحرّر السدادة، متعجّباً من أيّها بلد جاء هذا الغريب الذي يعرف القليل للغاية عن آداب الضيافة. كان رجال الغابات -بيضاً وسوداً- وكل القرويين أحراراً في دخول الكوخ، كابينة الصيد للصياد. كانوا يأخذون ما يحتاجونه، ويتركون ما يتركون. وكأنهم بمحطات انتقالية، لأي امرىء ولكل واحد يحتاج للمأوى. لكن لا أحد، لا أحد شرب خمرة رجل في منزله مالم يكونا قد تعرّفا على بعضهما بصورة كافية.

«هل نعرف بعضنا الآخر؟» ظنّ «هنتر» بأن «السيد» التي حذفها لابد أنها ستكون لطمة عنيفة. لكن الرجل لم يسمع ذلك، لأنه كانت لديه لطمته الخاصة.

«لا. بابا. لانعرف». لم يتمكن من القول أن ذلك ليس محتملاً. لأنه عندئذ كان يحتاج إلى «داية» أو صورة في قلادة تقنعه. لكن صدمته كانت ثقيلة بهذا.

«لم أكن أعلم بوجودك في هذه الدنيا» هو ما قاله في النهاية، لكن ماكان على الرجُل الأشقر أن يقوله، يخطّط في أن يقوله ردّاً، كان لابد أن ينتظر، لأن المرأة صرخت عندئذ، ورفعت نفسها على مرفقيها لتنظر ما بين ركبتيها المرفوعتين.

بدا رجُل المدينة شاحباً، لكن «آنر» و«هنتر» لم يكونا قد شاهدا الرجال المولودين في المزرعة العاديين والمُعتمد عليهم ينظرون فحسب، بل كانوا يجرّون ويجرفون المواليد الجدد من كل أنواع القنوات. هذا الوليد لم يكن سهلاً. كان يتشبّث بالحوائط المزبدة لذلك الكهف، وما كان للأمّ عملياً أي نجدة. حين بزوغ الولد أخيراً، اتّضحت المشكلة على الفور: إن المرأة لن تحضن الوليد أو تنظر عليه. ولذا، أرسل «هنتر» الولَد (*) إلى بيته.

«قل لماما أن تحضر إحدى النساء إلى هنا. تأتي هنا وتأخذ هذا. وإلا فلن يعيش لبعد غدٍ».

«حاضر سيدي!».

«وهات خمرة قصب لو وجدت بعضاً هناك».

«حاضر سيدي!».

(*) ابن «باتي»، الغلام. (المترجم)

وركع «هنتر» عندئذ لينظر على الأم، التي لم تقُل شيئاً منذ تلك الصرخة. غطّى العَرَق وجهها، وكانت تتنفس بصعوبة، وقد لحست قطرات من عرقها كانت على شفتها العليا. انحنى أقرب. وتحت القذر، الذي زركش جلدها الأسود الفحمة، كانت آثار من أشياء رديئة؛ كأنها عصير تبغ، ماء مالح، أو حسّ بلعبة فنان. حين أدار رأسه لضبط البطانية عليها، نهضت حافرةً أسنانها في خدّه. جفل مبتعداً، ولمس وجهه المخدوش خفيفاً، مقوقئاً. «وايلد، هه؟». واستدار

لينظر على الرجُل – الولد الشاحب الذي ناداه «بابا».

«من أينما لقطت هذه المرأة الوحشية؟»

«في الغابة. حيث تنمو النسوة الوحشيات».

«قل لي مَن هي؟» هزّ الرجل رأسه. «روّعتها فجأة. فصدَمَتْ رأسها في بلاطة صخرة. ولم أقدر على تركها هناك وحيدة».

«تبدو غير أرعن. فمن أرسلك إليّ؟»

«تروبيليه».

«آها اه». تبسّم «هنتر». «أين هي الآن؟ لم أعرف أبداً على أين كان رحيلُها».

«أو مع مَن؟»

«رحلت مع بنت الكولونيل. كولونيل وردزوورث جراي. كل الناس تعرف ذلك. رحلتا في تعجّل، أيضاً».

«خمّن لماذا».

«ليس لي أن أُخمّن الآن. لم أكن أعلم أبداً بوجودك في الدنيا».

«هل كنت تفكّر فيها؟ تتساءل أين تكون؟»

«تروبيليه؟»

«لا! ڤيرا. ڤيرالويز».

«آو، يارجل. ماذا أكون لأسأل عن أينما ذهبت فتاة بيضاء؟»

«أمي!»

«افرض أني فعلتُ، هه؟ ماذا ستكون الخطوة التالية؟ الذهاب مباشرة إلى الكولونيل؟ فلنقل، انظر هنا، كولونيل جراي، إني أسألكم عن المكان الذي راحت إليه ابنتكم. لن نمضي راكبين في وهلة. أُخبرك بماذا تفعل. أخبرها بأني منتظرها وأن عليها اللحاق بي. هل تعرف المكان الذي نتقابل فيه. وقل لها بأن ترتدي ذلك الفستان الأخضر. فهو الوحيد الذي يجعلني من الصعب أن أراها في العشب». مرّر «هنتر» يده على فكّه. «أنت لم تقل أين هما. من أي بلدٍ أتيت».

«بلتيمور. واسمي جولدن جراي».

«ألا ترى أن ذلك غير مناسب».

«أيناسبك لو كان جولدن ليستروي؟»

«ليس في هذه الأماكن. زلق «هنتر» يده تحت بطانية الوليد ليرى إن كان قلبه لايزال يدقّ.«ضعيف هذا الولد الصغير. عليه أن يتولى بعض الرعاية الآن».

«كم هو حسّاس».

«انظر هنا. ماذا تريد؟ أقصد، الآن ؛ ماذا تريد الآن؟ تريد الإقامة هنا؟ مرحباً بك. تريد تأديبي؟ اطرد هذا عن بالك. لن أفوه بكلمة ضدّك. لقد أتيت إلي هنا، وشربت خمري، ونكشت هرائي، وفكّرت أن بإمكانك معارضتي في الكلام لمجرد أن تناديني بابا؟ لو كانت أخبرتك بأني أباك، فهي إذن أخبرتك بأكثر مما أخبرتني. على رسلك. إن الابن ليس ماتقوله امرأة. الابن هو ما يصنعه رجل. تريد أن تتصرف وكأنك أنا، افعل هكذا إذن، وأخرِج الشيطان عن منزلي!».

«لم آت هنا لكي أُحاكمك، بل لأنال تصديقك عليّ».

«أعرف ما أتيت من أجله. لترى مقدار سوادي. لقد ظننتَ بأنك أبيض، أليس كذلك؟ يُحتمل بأنها جعلتك تعتقد ذلك. أتمنى لو كنت اعتقدت به. وإني لأقسم بأني اعتقدت ذلك أيضاً».

«لقد قامت بحمايتي! لو أذاعت بأني «نيجرو»، لكان لابد أن أصير عبْداً!»

«لقد أطلقوا سراح الزنوج. وكان لديهم دائماً بعض زنوج مُحرَّرين. وكان يمكن أن تكون واحداً منهم».

«لاأريد أن أكون زنجياً مُحرَّراً ؛ أريد أن أكون إنساناً حراً».

«ألا نريد كلنا هذا. انظر. كن ماتريد -أبيض أو أسود. تخيَّر. لكنك لو اخترت الأسود، فإن عليك بأن تتصرَّف كأسود، أقصد أن تصوغ رجولتك- علي نحو السرعة، ولا تجلب لي أي ولدٍ أبيض وقح». أفاق «جولدن جراي» الآن، وبدا بأن إفاقته ستطيح برأس الرجل بعيداً. غداً. لكن لابد أنها الفتاة التي غيَّرت رأيه.

يمكن للفتيات فعلُ ذلك. يقُدن رجُلاً بعيداً عن الموت، أو يسُقنه مباشرةً إليه. يسحبنك من النوم، فتصحو على الأرض تحت شجرة لن تجدِ موضعها ثانية، لأنك تكون قد ضعتَ. أو لو قد وجدته، فلن تكون كما هي. لربما تكون تخوَّخت من الداخل، ملّت من حياة زَاحفة عليها أن تتّخذ طريقها الخاص أيضاً، وقد زِحفت فحسب وانتفخت وتآكلت واختبأت حتى تنقّرت كلها من خلال الخدمات التي قدّمتها لآخرين. أو قد يقطعونها قبل أن تتكفىء للداخل على نفسها. يحيلونها إلى خشب نيران بمدفأة كبيرة ليحدّق فيها الأطفال.

«ڤكتوري» ربما يتذكر. لقد كان أكثر من أخ مختارٍ لـ«جو»، كان أفضل أصحابه، وقد جاسا طريدين، وعملا في معظم أراضي مقاطعة «ڤسبر». لا يمكن حتى لخريطة العمدة أن

تحدّد شجرة الجوز التي سقط منها «جو»، لكن «ڤكتوری» يمكنه أن يتذكّرها. يمكنها أن تكون هناك لاتزال، فی خلفية فناء شخص ما، لكن حقول القطن والجيران الملّونين من حولها قد حرّكوهم وهوجِموا.

أسبوع واحد إشاعات، يومان للتعبئة، وتسعمائة زنجيّ، قد حفزوهم بالبنادقِ والحبال، فغادروا «ڤيينا»، ركبوا خارجين من البلدة على حافلات، أوسيراً على أقدامهم إلى من عرفوا (أو اهتموا) أين يذهبون. بإنذارٍ في يومين؟ كيف يمكنك أن تخطّط على أين الذهاب، ولو كنت تعرف مكاناً سيرحّب بك، فأين المال لكي تصل؟ وقفوا من حول المحطة، عسكروا في حقول على حافة الطريق في تجمّعات حتى روّعتهم الآفات التي لحقت بهم – لابد أنهم شعروا بالغمّ وكأنه انعكاس لمياه راكدة، ولتذكير الآخرين بالأجور الأثيمة التي دفعت للشغيلة. حقول القصب هناك حيث تخفّت «وايلد»، أو راقبت، أو ضحكت صاخبةً، أو ظلّت ساكنةً تتحرّق لأشهر. تخلّفت رائحة السكّر في الدخان – يثقله. هل ستعرف؟ تساءل هو. هل ستفهم أن النار لم تكن نوراً أو بأن الأزهار تسري نحوها، أو تطيّر الشعر الذهبيّ؟ الذي لو جرّبت بأن تلمسه أو تقبّله، فسيكتم أنفاسك تماماً؟ الجبّانات الصغيرة، بصلبان يدوية وشاهدة من الصخر أحياناً، تلتمس الذكرى بأحرف كبيرة معتنىً بها، لاتترك فرصة.

رفض «هنتر» أن يرحل ؛ كان يحيا في الغابات أكثر مما يحيا في كابينته على أي حال، وبدا أنه يتطلّع لقضاء أيامه الأخيرة في الأماكن التي كان يحسّ بأنها أكثر راحة. ولذا لم يسحب صندوقه إلى عربة. أو قطع الطريق إلى «بير»، ثم «كروسلاند»، بعدها «جوشن»، بعدها «فلسطين» باحثاً عن مكان عمل مثلما فعل «جو» و«ڤكتوري». هناك مزرعة ستهب أولاد الثالثة عشرة السود مكاناً للنوم والطعام مقابل تنظيف الغصون. أو معصرة بها مسكن بسيط. سار «جو» و«ڤكتوري» مع الآخرين على طول الطريق لفترة، ثم تخلّفا. عرفا بأنهما قد غادرا «كروسلاند» بعيداً خلفهما، حين مرّا بشجرة الجوز حيث كانا معتادين على النوم في الليالي، وحيث الصيد، بعيداً عن البيت، ويمكن أن يوجد الهواء الرطب بأعلى أفرعها. وعندما ألقيا بصريهما على الطريق، كانا لايزالان يريان الدخان مرفوعاً فوق ما خلّفته الحقول والقصب في «ڤيينا». وجدا عملاً قصير الأمد بماكينة نشر خشب في «بير»، وفيما بعد الظهر يجران جذوعاً في «كروسلاند»، وأخيراً عمل ثابت في «جوشن». بعدها في ذات ربيع، ثار الثلث الجنوبي من المقاطعة بكرات قطنية بيضاء سميكة، وترك «جو» لـ «ڤكتوري» مساعدة الحدّاد في «جوشن» لكي يجمع المحصول المربح باستمرار خارج «فلسطين»، على بعد خمسة عشر ميلاً. لكن أولاً، كان عليه في البدء أن يعرف مالو كانت المرأة التي صدّق أنها أمه لاتزال هناك – أو أن النار قد خالطت شعرها وانحبست بذلك أنفاسها.

وعلى العموم، قام بثلاث رحلات منفردات كي يجدها. في «ڤيينا»، عاش أولاً خائفاً منها، ثم كان يمزح معها، وأخيراً الاستحواذ، متبوعاً بالتنكّر لها. لا أحد كان أخبر «جو» أنها هي أمه. ليس على الحصر ؛ لكن «هنترز هنتر» نظر في عينيه مباشرة بأحد الأماسي وقال «كان

لديها أسبابها. حتى لو كانت مجنونة. فالمجانين لديهم أسبابهم».

كانوا ينظّفون بعد الأكل بعضاً مما اصطادوه. ظنّ «چو» في النهاية أنه طيْر، لكنه ربما كان شيئاً ذا فراء. سيتذكّر «ڤكتوري». كان «ڤكتوري» يمسح اللحم المقدّد في ورق الشجر، بينما «چو» كان يسوّي النار.

«لقد علّمتكما كلاكما أن لا تقتُلا الضعيف أبداً ولا الأنثى بقدر الإمكان. ولا أظن أني بحاجة لتعليمكما شيئاً عن الناس. والآن، اعلما هذا: هي ليست فريسة. وعليكما إدراك الفرق».

كان «ڤكتوري» مع «چو» يمزحان، يتأملان مقدار الوقت الذي يأخذانه في قتل «وايلد» لو صادفاها، لو أنه كان أثرها الذي رآه ثلاثتهم ذات حين وتتبّعوه فقادهم مباشرة لمخبئها. كان ذلك حين أبلغ عنه «هنتر». كيف أن المجانين لديهم أسبابهم. ثم نظر إلى «چو» (وليس «ڤكتوري») مباشرة. أثارت نظرته النار المستكنّة. «هل تعرف، إن هذه المرأة أمّ شخص ما، وينبغي عليه رعايتها». تبادل «ڤكتوري» مع «چو» النظرات، لكن لحم «چو» هو الذي ترطّب لاحلقه الذي حاول ابتلاع ريقه وفشل.

منذ ذلك الحين صارع هذه الفكرة، أن المرأة الوحشية أُمّ. أحياناً ما كان يُخزيه ذلك حتى الدموع. وفي أحيان أخرى يشوّش غضبه على هدفه بقتل الوحشية، أو يرمي اللعبة في أماكن غير صائبة ومختلطة. كان ينفق معظم الوقت في إنكار ذلك، مقنعاً نفسه أنه أساء قراءة كلمات «هنتر» ومعظم ما كان في كل نظرته.برغم ذلك، كانت «وايلد» دائماً في باله، ولم يعزم على الذهاب إلى «فلسطين» دون محاولته العثور عليها ولو لمرة أخرى إضافية.

لم تختبىء دائماً في القصب. ولا في الجزء الخلفي من الغابة بمزرعة الرجُل الأبيض. لقد شاهد هو و«هنتر» و«ڤكتوري» آثاراً لها في تلكم الغابات: دمّرت أقراص العسل، بقايا ومتروكات المؤن المسروقة، وفي أحيان كثيرة الإشارة التي كان يعتمد عليها «هنتر» في الأغلب – طيور السُمنة المغرّدة، الطيور السود المزرقّة بالبقع الحمراء على أجنحتها. شيء ما بشأنها كانوا يحبونه، قال «هنتر»، وإن رؤية أربعة منها أو أكثر كان يعني دواماً أن «وايلد» تحتجب. لقد حدّثها «هنتر» هناك، مرتين، قال، لكن «چو» عرف بأن تلك الغابات ليست مكانها الأثير. في أول مرة بحث عنها كان تفتيشه فاتراً، بعد صيد دراميّ لما يقرب من الساعتين. عبر النهر، وراء المكان الذي يتوفّر فيه السمك المرقّط وسمك القاروس، بل أمام النهر المنحدر متوجّهاً إلى الطاحونة، حيث تستدير الضفة على مهبط. في قمّته، نحو خمس عشرة قدماً بأعلى النهر، كان تشكيلٌ صخريّ ساتر، يسدّ مدخله سياجٌ من شجر الهيبسكوس العجوز. ذات مرة، بعد أن جرّ عشر سمكات مرقّطة بأول ساعات الفجر، سار «چو» أمام ذلك المكان، وسمع ما ظنّه في البدء بعض تجمّع لماءٍ جارٍ وريح في أعالي الشجر. الموسيقى التي يؤلفها العالم، والتي كان يألفها الصيادون والرعيان، ورجال الغابات يسمعونها كذلك. فهي تنيم الثدييات مغناطيسياً. ترفع ذكور الأيائل أرؤسها والسناجب تتجمد. يبتسم رجال الغابات المنتبهون لذلك، ويغلقون أعينهم.

ظنّ «چو» بأن هكذا الأمر، فأنصت ببساطة وفي لذة، حتى بدا أن كلمة أوكلمتين تنزلق مع الصوت. كان يعرف أن الموسيقى التي يؤلفها العالم بلا كلمات، فوقف ساكناً كالحجر، وأنعم النظر في الموجودات. خطّ فضيّ يرقد عبر الضفّة الموازية، وتقطع الشمس دابر الأزرق الملكي لِلّيلة. كان الهيبسكوس لأعلى وإلى يساره كثيفاً، متوحشاً، وعجوزاً. أزهاره مقفلة ترتقب النهار. فتات أغان كان قادماً من حلق مرأة. فذرع «چو» طريقه في همّة أعلى المنحدر وعبر السياج، لفيف من كروم العنب المسك، ونباتات «ڤرجينيا» المعشبة، والهيبكسوس الصدىء مع العمر. وجد المدخل في التشكيل الصخريّ لكنه لم يتمكن من ولوجه من تلك الزاوية. كان عليه أن يتسلّق من فوقه وينزلق إلى فمه. كان النور شحيحاً للغاية حتى أنه تبيّن بالكاد موضع قدميه. لكنه رأى آثاراً تكفي للتدليل بأنها كانت هناك. نادى. «هل أحد هنا؟»

توقّفت الأغنية، وحلّ محلها طقطقة وكأنها تحطيم أغصان.

«هاي! أنت بالداخل هناك!» لانأمة. ولم يتمكن من إقناع نفسه بأن الشذا الذي غمره لم يكن إلا مزيجاً من العسل والخراء. غادر عندئذ، مشمئزاً، دون خوف ولو قليلاً.

المرة الثانية التي فتش عنها كانت بعد طردهم. مجرّد أن رأى الدخان واستطعم الهواء المسكر على لسانه، أجّل رحلته إلى «فلسطين» لكي ينعطف عائداً باتجاه «ڤيينا». كان يطوف حوالي الأرض المسفوعة والحقول بعيدانها المتفحّمة؛ ناظراً لبعيد من الكبائن التي كانت الآن مجرّد طوب قائظ بينما كانت ذات يوم حوضاً للغسيل. توجّه إلى النهر والثغرة التي فيه حيثما السمك المرقّط يتكاثر كالذباب. وعند وصوله للمكان مع انحناءة النهر، ضبط حزام البندقية إلى ظهره وأسقطها على عجيزته.

ببطء، متنفّساً بهدوء من خلال فمه، زحف خلال الصخور الملقاة بعيداً جنب الخضرة التي نمت دون رحمة في الشمس والهواء. مامن علامة تدلّ عليها هناك، ولم يتعرّف شيئاً. نجح في تسلّق المدخل، لكنه وعند تسلله ودخول المكان، لم ير شيئاً يمكن لامرأة أن تستعمله، كما أن آثار سكنى أي بشري كان بارداً. هل أنها هربت، فرّت؟ أو قد بوغتت بالدخان، بالنار، بالرعب، بالعجز؟ انتظر «چو» هناك، حتى هداه إنصاته للنعاس، فنام ساعة أو تزيد. حين استيقظ كان النهار قد راح، والهيبسكوس كان منبسطاً كشكل يده. سحب نفسه أسفل المنحدر، وبينما استدار ليمضي كانت أربعة من طير السمنة المغرّد قد أصيبت من أطراف منخفضة لسنديانة بيضاء. كانت ضخمة، معزولة، في تربة غير محتملة — ومضفورة بجذورها. سقط «چو» تواً على يديه وركبتيه، هامساً: «هل أنت؟ فقط ردّي. قولي أي شيء». شخص قريب منه يتنفّس. استدار فاحصاً المكان الذي قد خرج منه. كل حركة وكل هفيف بورقة يبدو أنها هي. «أعطني علامة، إذن. لست في حاجة لأن تقولي شيئاً. دعيني أرى يدك. فقط أبرزيها من مكان ما ولسوف أذهب؛ إني أعد بذلك. علامة». كان يرجوها، مناشداً يدها حتى بدا النور شحيحاً أكثر. «أأنت أمي؟» نعم. لا. كلا منهما. لا أياً منهما. بل ليس هذا الهراء.

حين كان يهمس لعيدان الهيبسكوس وينصت للتنفّس، رأى نفسه فجأة يخوّض في الوحل، ليس لمجرد امرأة مجنونة بل امرأة قذرة تصادف أنها كانت أمّه السرية، والتي عرفها «هنتر»

ذات يوم، لكنها يتّمت صغيرها بدلاً من رعايته أو تدليله أو البقاء معه في البيت. امرأة كانت ترعب الأطفال، وتجعل الرجال يسنّون سكاكينهم، لأجل الطعام الذي تتركه العرائس بالخارج (ربما – والإ كانت تسرقه). تركت آثاراً عن ذاتها القذرة، غير المروّضة خلال كل المقاطعة. كانت تخذله أمام كل الناس عدا «ڤكتوري»، الذي لم يضحك أو يتغامز عليه حين أبلغه «جو» عن ظنّه بما كان يقصده «هنتر» بهذه الكلمات وتلك النظرة على وجه الخصوص. «لابد أنها بريّة» كان ردّ «ڤكتوري». «فهي تعيش خارج البيوت على هذه الهيئة طوال العام، لابد أنها بريّة».

ربما هكذا، لكن «جو» أحسّ بأنه أحمق وعنيد، أكثر جنوناً منها ووحشياً مثلها في انزلاقه بالطين، متعثراً بجذور سوداء، فقد كان يجرّ قدميه خلال لطع القذر زاحفاً مع النمل الأبيض. إنه يحبّ الغابات لأن «هنتر» علّمه ذلك. لكن هذه الغابات الآن مفعمة بها، بهذه المرأة بسيطة الطويّة إلتي كانت من السخف بحيث أنها لا تترجّى القوت. ضامرة العقل حتى ليصعب عليها أداء ما تنجح فيه أحطّ خنزيرة: رعاية ماقد تلده. ظنّ الأطفال الصغار بأنها ساحرة،لكنهم كانوا مخطئين. فهذه المخلوقة ليس لديها ذكاء أن تصير ساحرة. لقد كانت عاجزة، غير مرئية، معتوهة بضياع. فى كل مكان وبلا مكان.

هناك أولاد لديهم أمهات عواهر، ولا حيلة في ذلك. وهناك أولاد تتهادى أمهاتهم عبر طرق البلدة حين يغلق الملهى الرخيص بابه. وأمهات يرمين بأطفالهن بعيداً، أو يتاجرن فيهم لأجل رزم المال. وقد اختار واحدةً منهن عبر هذا الخبل الصموت غير المحتشم المترصد. لم تزعج أي شيء تلك الهبّة التي وجّهته عند أطراف السنديانة البيضاء، حيث كانت القواقع في جيبه. قرقع زند البندقية دون أذى. وكان يصرخ، وهو ينزلق، هابطاً، يتسارع عائداً على المنحدر، ومتتبعاً ضفّة النهر خارجاً من هناك.

من ذلك الحين، كان يعمل بشكل مسعور. في طريقه إلى «فلسطين»، تقلّد كل وظيفة سنحت أو كان يسمع بها. قطع أشجار، حصد قصب، حرث حتى يكلّ ذراعاه؛ تنظيف دجاج وقطف قطن؛ جرّ سقط متاع، حبوب، صخر مفتّت، وكتل خشبية. ظنّ البعض بأنه جوعان مال، لكن آخرين خمّنوا بأن «جو» لاتعجبه فكرة أن يظلّ كسولاً. كان أحياناً ما يعمل طويلاً، ولوقت متأخر، حتى أنه لايعود إلى الفراش الذي يرتاح فيه. وينام عندئذ بالخارج، ويكون محظوظاً حين ينام أحياناً قرب شجرة الجوز؛ متأرجحاً في الشبكة التي وضعوها هناك لعند الحاجة إليها. بعد «فلسطين»، وعند حزم القطن والإعلان عن بيعه، تزوّج «جو»، واشتغل بجدّ أكثر.

هل لبث «هنتر» قرب «ڤيينا» بعد الحريق؟ هل انزاح راجعاً إلى «وردزورث»؟ هل ثبّت نفسه في مكان صغير بأعالي المقاطعة –ككلامه عن الإنجاز– وكان يعمل وكأن العالم ملكه؟ في ١٩٢٦، بعيداً عن كل هذه الأماكن، ربما ظنّ «جو» أن «هنتر وردزورث» هو الذي انتقل قريباً منه، ولو سأل «ڤكتوري» فسيتذكّر تماماً (مؤكّداً بأنه حيّ يرزق، وأن السجن لم يبل منه) لأن «ڤكتوري» كان يتذكّر كل شيء، ويمكنه الاحتفاظ بالأشياء واضحةً في باله. مثل كم

مرةً اتّخذت إناث الطواويس عُشّاً معيناً. ومثل أين مكان الصوفة المحنّاة المغروز فيها إبر الصنوبر المأخوذة من عمق عظمة الساق. ومثل متى تبرعمت شجرة معينة -تنمو جذورها فوق الجذع- منذ يومين أو أسبوع، وأين هي بالضبط.

كان «چو» يتساءل عن كنه هذا في يوم صقيع من يناير. كان في طريق يبّعد كثيراً عن «ڤرچينيا»، وأبعد طويلاً من «عدن». بينما كان يلبس معطفه ويضع كابه، كان يحسّ بخاصّة أن «ڤكتوري» جنبه حين يبدأ الرحلة، متسلّحاً، ليجد «دوركا». لم يكن يفكّر في إيذائها، أو كما كان يحذّره «هنتر» من قتل شيء ضعيف. إنها أنثى. وهي ليست فريسة. ولذلك فلن يفكّر في هذا. وسيصطاد من أجلها رغم ذلك، ولأنه سيصطاد، فإن المسدّس رفيق طبيعيّ مثل «ڤكتوري».

يطوف خلال المدينة، وهي لن تعترض أو تتدخّل. هذا أول يوم من العام. معظم الناس متعبون من الليلة الفائتة. ولايزال الملوّنون، رغم ذلك، يحتفلون باليوم مجتمعين، عيد يمكنه أن يمتدّ حتى الليل. الشوارع زلقة. وتبدو المدينة غير مأهولة، وكأنها بلدة صغيرة.

«أريد فقط أن أراها. أخبرها أني أعرف هي لم تقصد ماقالته. هي صغيرة. والصغار منفلتو العيار. ينفجرون لمجرد الجحيم. ومثلي يصوّب بندقيته غير معمّرة على أوراق الشجر هذه المرة. مثلي يقول (حسناً، ڤيولت، سأتزوّجك) وذلك أنني لم أقدر أن أرى ما إذا كانت امرأة وحشية قد مدّت إليّ يداً أم لا».

الشوارع التي سار فيها كانت زلقة ومُسودّة. في جيب معطفه مسدس عيار الخمس والأربعين الذي رهن به بندقيته. وضحك حينما أمسك به، المسدّس الصغير السمين والذي لابد أنه من النوع الصاخب كمدفع. لا شيء معقّد ؛ لابد أن تحارب نفسك كي تخطيء التصويب، لكنه لن يخطيء لأنه غير عازم على التصويب. ليس إلى ذلك الجلد المهان. أبداً. لاتؤذ الصغار: بيّض العشّ، صغار الأيائل، أفراخ الطير، صغار السمك...

ريحٌ تنشقّ عن فم القناة وتطير بكابه. يجري ليمسكه من القناة التي انجرف إليها. لم يكن يرى حلقة الورق من سيجار «هوايت أوول» الملصوقة بتاج كابه. ذات مرة كان يعرق بغزارة داخل قطار وخلع معطفه. فارتطمت حافظة الأوراق بالأرض. نظر «چو» تحته إلى أصابع المسافر التي توصّلت للحافظة وأعادتها إليه. أومأ «چو» بالشكر، وأقحمَ الحافظة بجيب معطفه. هزّت امرأة زنجية رأسها إليه. ماذا بالحافظة ؟ محتوياتها ؟ كان وجهه يتقطّر بالعرَق. تمدّ إليه منديلاً نظيفاً ليمسحه. يرفض ؛ يرتدي معطفه ثانية، ثم ينتقل إلى الباب ليحدّق في السرعة والظلام.

يقف القطار فجأة، يُلقي المسافرين أمامه. بصعوبة يتذكَّر أنها محطته التي ينبغي أن ينزل فيها إن أراد العثور عليها. ثلاث فتيات تجمّعن خارجات من القطار، دبدبن على السلالم الثلجية. ثلاثة رجال منتظرون يحيونهن، وصار كلٌّ زوجاً. برد قارس. الفتيات بشفاه حمراء وتخرفش أرجلهن خلال جوارب الحرير. الشفاه الحمراء وقوة ضوء الحرير. قوة سيستبدلونها على الشكل الصحيح كي يهزموها، ويتموا ثقبها. الرجال من جانبهم يحبّون ذلك، لأنهم –في النهاية– يصلونها داخلين، ويتمدّدون، يلبسون ماخلف تلك القوة، ينزعونها، ويحتفظون بها ساكنين.

في المرة الثالثة، حين حاول «چو» أن يجدها (كان متزوّجاً حينذاك)، وكان يُفتّش عن جانب التلّ فيه الشجرة – التي كانت جذورها تنمو لأعلى رغم ذلك، فذهب منصاعاً إلى الأرض ووجدها قاحلة، ارتدّت للجذع ولما يحتاجه. وكانت جذورها تتحدّى المنطق متسلقة. باتجاه الأوراق، والنور، والريح. تحت تلكم الشجرة، كان النهر الذي دعاه البيض «تريسون»، حيث يتسابق السمك إلى الصّنانير، ويسبح ما بينها مشاغباً أوساكناً. لكن، وأن تصل هناك، فأنت تخاطر بغدر الأرض القريبة التي تمشي عليها. ترتمي الأوحال، والتلال الخفيفة بنعومة ناحية النهر الذي يبدو فحسب مرحّباً؛ كروم مترامية، سجّادة العشب، عنب بريٌّ، الهيبسكوس، وغابة الحميّض، والأرض كانت منقوبة كالمنخل. خطوة واحدة ستورّم قدمك أو ذاتك بكاملها.

«ما الذي كانت تريده من ديك؟ يتصايح على رُكن، ناظراً إلى الدجاجات لينتقي منهن. لاشيء عندهن ولا أتملّك خيراً منه. بالإضافة أني أعرف كيف أعامل امرأة. أنا لم أُسيء معاملة واحدة، أبداً، ولن يكون. لن أجعل امرأة تعيش مثل كلبة في كهف. الديوك تفعلها. وهي اعتادت على قول ذلك أيضاً. كيف أن الشبان لا يفكّرون في أي شيء عداهم؛ كيف أن كل أولئك الأولاد في الفناء أو المرقص لا يفكّرون عدا في أنفسهم. حين أجدها، أعرف –أرهن حياتي– فلن يخترقها واحد منهم أبداً. لن تتخالط ملابسه كاملة بملابسها. ليس هي. ليست «دوركا». ستكون وحيدة. عنيدة. وحتى، وحشية. لكنها الوحيدة».

❖ ❖ ❖

ما وراء الشجرة، خلف الهيبسكوس، كان جُلمود صخر. وراءه مدخل مقرف تماماً حتى أنك تتأكّد أنه من فعلة إنسان. لا ثعلب أو أيْل سريع سيكون مجلّلاً هكذا. هل كانت تختبيء هناك؟ هل كانت تلك الصغيرة؟ وقد أقعى لينظر على علامة منها، فلم يتعرف شيئاً. وأخيراً، ألصق رأسه به. ظلام دامس. لا رائحة روث أو وبر. لها، بديلاً، رائحة أليفة – زيت، رماد– وهي

التي قادته. كان يزحف، متلوّياً خلال مسافة منخفضة تكاد تمسّ شعره. وحين صمّم على الرجوع خارجاً من هناك، أصبح القذر تحت يديه جافاً، وصدمه النور بشدّة حتى أنه أجفل. رجع من خلال أطوال كانت الظلمة تجسّدها قليلاً، وكان يحذر من الجزء الجنوبي لوجه الصخرة. جحر طبيعي. لمّ يذهب لمكان. مال عبر المنحدر من منحنىً إلى آخر. وتلألأ نهر «تريسون» من تحته. غير قادر على الدوران للداخل، جذب نفسه طول طريق الخروج، ليسمح لرأسه أولاً. وعلى الفور، في الهواء الطلق، كانت الرائحة الأليفة تزداد حدّة. زيت طبيخ عبقت رائحته تحت نور شمس طاعنة. حينها رأى الشقّ. دلف إليه على ظهره حتى أوقفت زحفه أرض ما. كان ذلك كالسقوط في الشمس. نور الظهيرة يتبعه كالحسم إلى غرفة صخرية حيث كان يطبخ شخص ما بالزيت.

«ليس لها أن توضّح. ليس عليها أن تقول كلمةً. أعرف كُنه ذلك. وربما تظنّ هي بأنها الغيرة، ولكني رجل معتدل. ليس معنى ذلك أني لا أحسّ بالأشياء. فقد عرفت بعض الأوقات العصيبة. واجتزتها، أيضاً. إني أحسّ بالأشياء كأي امرىء آخر.

«ستكون لوجدها تماماً.

«سوف تنقاد لي.

«سوف تمدّد يدها، تسير تجاهي في حذائها المهترىء، لكن وجهها نظيف وأنا فخور بها. تضايقها خصلاتها المحزومة جيداً، ولذلك ترخيها، فتنساب تجاهي. وهي سعيدة أني وجدتها. ناعمة ومحنية، تريدني أن أفعل لها هذا، تطلبه مني. أنا فقط. لا أحد غيري».

أحسّ بسلام في البداية، وبنوع من الأرق، وكأن شيئاً ينتظره. كإحساس ما قبل العشاء، حين يرتقب الناس الأكل. ورغم أنه كان مكاناً خاصاً، بمدخل منغلق على العامة، فإنك لودخلت يمكنك أن تفعل ماتشاء: أشياء ممزقة، أشياء مختلطة، إلمس وتحرّك. تغيّر ذلك كله بطريقة لم يكن مقصوداً أن تكون. استحال لون حوائط الصخر من الذهبيّ إلى أزرق شبكات السمك وقت أن غادره. وقد رأى ما كان هناك. فستان أخضر. كرسي من حجر بدون ذراع. دائرة من حجارة للطبخ. أباريق، سلال، أوان، دمية، مغزل، حلقان أذن، صورة، كومة عصي، مجموعة من الفرش الفضية، وعلبة سيجار مفضّضة. أيضا. أيضاً، بنطلون رجل بأزرار من العظم. قميص من حرير، مطويّا بعناية، باهتاً للغاية وبلون القشدة – عدا مكان الثنية. كان هناك، كل من الخيط والقماش جديداً وأصفر مشمساً.

لكن أينها هي؟

❖❖❖

هناك هي. لا إخوة يرقصون في هذا المكان، ولابنات لاهثة الأنفاس ترتقب المصباح الأبيض كي يستبدل بالأزرق. وهذا الحفل للبالغين. إن ما يحدث، يحدث في النور الباهر. الكحول غير القانوني ليس سرياً، والأسرار ليست ممنوعة. ادفعي دولاراً أو اثنين عند دخولك، وما تقولينه يكون أليق وأكثر مرحاً مما يمكنك أن تقوليه في مطبخك. أسطح ظرفك تعلو وتعلو، كاندفاع رغوة إلى الحافة. الضحك كجلجلة الأجراس التي لاتحتاج يداً لتجذبها من الحبل ؛ تدوّم وتدوّم فحسب حتى تصيري ضعيفة معها. يمكن أن تشربي «الجن» المأمون لو أحببت، أو تتعلّقي بالبيرة، لكنك لن تحتاجي أياً منهما لأن لمسةً على الركبة، مصادفةً أو عامدة، تحفز الدم كدفعة مما قبل ويسكي «البوربون»، أو كأن إصبعين يقرصان حلمتك. روحك تصعد إلى السقف حيث تطفو قليلاً ناظرةً على ما تحتها من عري متنكّر بلذّة. تعرفين بأن شيئاً شريراً يدور في غرفة بباب مغلوق. لكن الانبهار الكافي والأذى هاهنا، حيث يلتصق المشاركون أو يستبدلون عند حفز الغناء الذي يسحق القلب.

«دوركا» راضية، سعيدة. ذراعان يحضنانها، وتقدر أن تريح خدها على كتفها، بينما معصماها ينعقدان خلف رقبته. من الأفضل أنهم لايحتاجون فراغاً كبيراً ليرقصوا فيه حيث لايوجد. الغرفة محشورة. الرجال يئنّون بارتياحهم ؛ والنساء يهمهمن بالحدس. تنحني الموسيقى، تسقط على ركبتيها لتحتضنهم جميعاً، تستحثّهم كلهم على أن يحيوا ولو قليلاً، لماذا أنت لا ؟ لأن هذا هو الموقف الذي تفتّشين عنه.

شريك «دوركا» لايهمس في أذنها. وعوده واضحة تماماً في الذقن التي يضغطها إلى شعرها، وفي أطراف الأصابع التي هدأت عليها. بينما تتمطط هي لتحيط برقبته. ينحني ليمكّنها من هذا.يتوافقان في كل شيء، فوق الخصر وتحته: العضلة، الوتر، مفصل العظم، ولحمة مخّ العظم. ولو تردّد الراقصون، لحظة شكٍّ تنتابهم، فإن الموسيقى تحلّ وتحلّل أيها استفهام.

«دوركا» سعيدة. أسعد مما كانت في أي وقت مضى. لا شذرات بياض في شارب رفيقها. إنه فائر ومنتش. صقر العينين، غير مجهد، وعنيف قليلاً. لم يهبها هديةً أبداً، ولافكّر في هذا. أحياناً ما يكون حيث يقول بأنه سيكون ؛ أحياناً لا. نسوة أخريات كن يردنه –بشدّة– لأنه

كان المختار. مايردنه كان هو، والمكافأة هو أن يهب ذاته الفاهمة. ماذا يمكن لزوج من جوارب الحرير أن تقارن به؟ لاخلاف. «دوركا» محظوظة. تعرف ذلك. وسعيدة كما لم تكن في أي وقتٍ مضى.

❖ ❖ ❖

«هو آتٍ لي، أعرف مقصده، لأنني أعرف كم تغيم عيناه فاترتين حين أخبره أن لا. وكم تركضان فيما بعد. لم أقل ذلك بلطف، رغم قصدي له. لقد تدربت على الغايات؛ أمام المرآة كنت أفحصها واحداً بعد آخر: الانسلال، وزوجته، والجميع. لم أقل أي شيء عن عمرينا، ولا عن «أكتون». لاشيءِ عن «أكتون». لكنه جادلني، فقلت، دعني لوحدي. فقط دعني لوحدي. ابتعد عني. جلبت لي زجاجة كولونيا أخرى، سوف أشربها وأموت، لو لم تدعني لوحدي.

«قال، لن تميتك الكولونيا.

«قلت، أنت تعرف ماذا أقصد.

«قال، تريدينني أن أهجر زوجتي؟

«قلت، لا! أريدك أن تهجرني أنا. لا أريدك داخلي. لا أريدك جانبي. أكره هذه الغرفة. لا أريد أن أكون هنا، وعليك أن لاتأتي باحثاً عني.

«قال، لم؟

«قلت، لأن. لأن. لأن.

«قال، لأن ماذا؟

«قلت، لأنك تمرضني.

«أمرضك؟ أنا أمرضك؟

«أمرض من نفسي وأمرض منك.

«أنا لا أقصد ذلك الدور... عن كون المرض. هو لم يفعل. يجعلني مريضة، أقصد. ما أردته أن يعرفه، أنه كانت لديّ هذه الفرصة لامتلاك «أكتون»، وقد أردت ذلك، وأردت صديقاتي أن يكلمنه في هذا. عن أي مكان ذهبنا إليه، وماذا فعل. عن الحاجات. عن الهراء. كيف تكون الأسرار نافعةً لو لم تتمكن من الكلام مع أي أحد بخصوصها؟ أفرزت هذا التلميح بشأني وشأن «چو» مع «فيليس»، والتي ضحكت قبل أن تحدّق فيّ وبعدها عبست.

«لم أستطع أن أحكي ذلك كله له، لأني كنتُ تدرّبتُ على الغايات الأُخَر، وصرتُ الآن مشوشةً.

«لكنه آتٍ لي. أعرف ذلك. لقد كان يفتش عني طول الوقت. ربما سيجدني غداً. ربما الليلة. خارج الطريق هنا؛ على طول خارج الطريق هنا.

«حين نزلنا من الترام، أنا و«أكتون» و«فيليس»، ظننتُ بأنه كان هناك، في المدخل التالي لمحل الكراميل، لكنه لم يكن هو. ليس بعد. أظن بأني أراه في كل مكان. أعرف أنه ينظر، وأعرف أنه آت الآن. لم يكن يهتم حتى بهيئتي. يمكن أن أكون أي شيء، أفعل أي شيء–وهذا ما كان يسره. إن شيئاً بخصوص ذلك جعلني أُجَنّ. لا أعرف.

«الآن يخبرني «أكتون» بأنه لا يحبّ الطريقة التي أُسوّي بها شعري، في أي حين، وعندها أجعله على هيئة ما يحبّ. لا أرتدي نظارات أبداً حين يكون معي، وأُغيّر من ضحكتي لأخرى يحبها أكثر من أجل خاطره. أظنّه يحبّ. أعرف أنه لم يحبّ من قبل. وأنا ألعب مع طعمي الآن. كان «جو» يحبّ مني أن ألتهمه وأطلب المزيد. أما «أكتون» فكان يهبني نظرة هادئة حين أمهله لثوان. كان يقلق لشأني على تلك الطريقة. لم يفعل «جو» ذلك أبداً. «جو» لم يكن يبالي أي نوع من النساء أكون. كان لابد أن يفعل. كنت أهتمّ. أردت أن يكون لي شخصية، ومع «أكتون» كانت لديّ واحدة. ألقِي بنظرة الآن. ما الذي يمكن لحاجبين في نحافة القلم الرصاص أن يفعلاه بوجهي، كان حلماً. كل أساوري كانت فقط تحت مرفقيّ. أحياناً أحبك جوربيّ لتحت، لا فوق، ركبتيّ. ثلاثة شرائط على مشط قدمي، وفي البيت عندي حذاء جلديّ مقطوع يبدو كالمشدّ.

«هو آت لي. ربما الليلة. ربما هنا.

«لو يريد سينظر ويري كم أن «أكتون» بقربي يرقص. كيف أريح رأسي على ذراعي الحاضنة له. طوق جونلتي يتثنىّ لأسفل في الظهر ويلمس ربلتي ساقيّ بينما نتأرجح خلفاً وللأمام، ثم جنباً لجنب. كل وجهي جسدينا يتلامسان، لا شيء يمكنه أن يمرّ من بيننا، فنحن لصيقان تماماً. كثير من الفتيات هنا يردن فعلة هذا معه. يمكن أن أراهن حين أفتح عينيّ لأنظر من خلف رقبته. أحكّ ظفر إبهامي على مؤخّر عنقه، فتعرف الفتيات بأني أعرف أنهن يردنه. هو لا يحبّ ذلك، ويستدير برأسه ليجعلني أكفّ عن لمس رقبته على هذا النحو. فأكفّ.

«چو لم يكن يهتم. يمكن لي أن أحكّ أي مكان به. يجعلني أرسم صوراً بالروج في أماكن عنده ليجلب مرآة ويرى».

أي شيء يحدث بعد أن تنتهي هذه الحفلة هو لا شيء. كل شيء الآن. هذا شبيه بالحرب. كل امرئ وسيم، متلمّع، ويفكّر فقط في دم الآخرين. وعلى ذلك، فإن الفيض الأحمر المتطاير من غير عروقهم يكون ماكياجاً لوجه مرخّص بلمعانه. إحياء. فاتن. بعدها هناك سيكون بعض الهذر واستخلاص لما قد يستمر ؛ لا شيء كمثل الفعل نفسه والدقّة التي تضخّ

القلب. في الحرب أو في حفلة كل امرئ يكون مراوغاً، آسراً ؛ الأهداف موضوعة ومتبدّلة ؛ والأنساب يعاد ترتيبها. المشاركون والمنافسون مخربون ؛ أزواج جديدة تنتصر. الاحتمالات الحاسمة تصدم «دوركا»، لأنه هنا –مع البالغين وكما في حرب– يلعب الناس لأجل الصمود.

«هو آت لي. وعندما يفعل فسوف يرى أني لن أخصّه بعدُ. أخصّ «أكتون»، و«أكتون» هذا هو ما أريده لإسعادي. يتوقّع ذلك. مع «چو» أسعدت نفسي، لأنه استحثّني على ذلك. مع «چو» اشتغلت مضرب هذه الدنيا، القوة في يميني».

❖ ❖ ❖

أوه، الغرفة –الموسيقى– ينحني الناس عند المداخل. الصور المظلّلة تقبّل بعضها خلف الستائر ؛ أصابع لعوب تتفحّص وتلاطف. هذا هو المكان الذي تندفع فيه الأشياء. هذا هو السوق حيث الإيماءة هي كل شيء: برق من لسان يلحس ؛ ظفر إبهام يسحج الخدود المفلوقة من خوخة أرجوان. أي عاشق منبوذ في حذاء مبكّل مفكوك وسويتر مزرّر لأعلى تحت معطفه، أجنبي عن هنا. ليس هذا المكان لرجال عجائز؛ هذا مكان للمغامرين.

«إنه هنا. أوه، انظروا. يا إلهي. إنه يبكي. هل أهبط؟ ولماذا أهبط؟ إن «أكتون» يحتضنّي عالياً، ولكني سأهبط على أي حال. تستدير الرؤوس لتنظر حيثما أهبط. الدنيا ظلام والآن نور. أرقد فوق فراش. يمسح امرؤ العرق عن جبهتي، لكني بردانة، بردانة جدا. أرى أفواهاً تتحرك ؛ وهي تبوح لي جميعها بشيء لم أتمكّن من سماعه. بعيداً هناك عند رجل السرير، أرى «أكتون». دم فوق چاكت معطفه وهو يمسحه بمنديل أبيض. امرأة تأخذ المعطف الآن عن كتفيه. يضايقه الدم. هو دمي، أحمر، بقع إلي قميصه من خلال چاكتته. تصرخ المضيفة. حفلها فسد. يبدو «أكتون» غاضباً، تجلب المرأة چاكتته ثانية، ولم تكن نظيفة على العهد الذي كانته من قبل وبالطريقة التي يحبّها فيها.

«يمكنني سماعهم الآن.

«(من؟ من فعل هذا؟)

«يريدون مني البوح باسمه. أن أقوله على ملأ في النهاية.

«خلع «أكتون» قميصه. الخلق يسدّون المدخل ؛ يشبّ البعض من خلفهم ليُلقي بنظرة أفضل. عزف الحاكي انتهى. شخص كانوا ينتظرونه يعزف البيانو. امرأة تغني كذلك. الموسيقى شاحبة، لكني أعرف الكلمات عن ظهر قلب.

«تنحني «فيليس» قريبة. يدها التي تحضنني مشدودة للغاية. أحاول الكلام بفمي أن تقرُب أكثر مني. عيناها أكبر من النور الراسخ على السقف. تسألني إن كان هو.

«يريدون مني البوح باسمه، حتى يمكنهم مطاردته. يسلبونني شنطة عيِّنته مع «روشيل وبرنادين وفاي» (*) بداخلها. أعرف اسمه، لكن ماما لن تقوله. لقد ضرب العالم من مضرب بغير يدي، يا «فيليس». هناك في تلكم الغرفة بأثر الثلج في النافذة. تضع «فيليس» أذنها على شفتيّ فأصرخ بذلك لها. أظن أني أصرخ لها. أظن أنني أنا.

«الخلق يرحلون.

«الدنيا صفاءٌ الآن. من خلل المدخل أرى النافذة. عليها وعاء من خشب بُنّيّ، مُسطّح، بانخفاض كصينية، مملوء حتى الحافة بالبرتقال. أريد أن أنام، لكن الدنيا صفاء الآن. صاف تماماً الوعاء الغامق بكومة البرتقال. برتقال فحسب. لامع. أنصتوا. لا أعرف من تكون تلك المرأةٌ التي تغنّي، ولكني أعرف الكلمات عن ظهر قلب».

❖ ❖ ❖

(*) أسماء عرائس «دوركا» التي احترقت مع أمها في البيت، بعد حادثة مصرع أبيها. (المترجم)

عشق. ذلك ما أُطلقَ على الطقس. طقس عشق، اليوم الأجمل من العام. وذلك حينما ابتدأ هذا. يوم رائق للغاية، يَتأنّق فيهْ الشجر الراسخ. وَاقفاً في وسط بلاطة إسمنتية، يتأنق، خائفاً من عمره. كان سخيفاً، نعم، لكنه كان نوع ذلك اليوم. أمكن لي أن أرى طريق «لينوكس» وهو يوسع من نفسه، ويخرج الرجال من محلاتهم لينظروا ماذا يحدث، يقفون بأيديهم تحت مرايلهم أو تلتصق بجيوبهم الخلفية، فقط ينظرون عبر شارع يفرش نفسه باتساع كي يحتوي النهار. المحاربون القدماء عاجزون في نصف زيّ ونصف أهليّة، وقفوا ناظرين بعبوس على الرجال العاملين ؛ ذهبوا إلى عربات «فازر دايڤين» ، وبعد تناولهم طعامهم لفوا سجائرهم، واستقرّوا عند منحنى كما لو كانوا في «دنكان ڤيف». وكانت النسوة المطرقات بكعوبهن على الرصيف يسرن على شقوق المفارق، لأنهن كن يتطلعن للأشجار كي يرين من أين يهلّ ذلك النور الصافي، ناعماً لكنه راسخ. دمدمة سيارات «إم ١١» «إم ٢» كانت بعيدة، شاردة، ومثلها «الپاكار». وحتى «الفورد» ، تلك الصاخبة، فهي تتهادى، ولم يحسّ واحد بحاجته لنفخ نفيره أو ليميل خارجاً من جانب السائق لمحاولة إحراج شخص متلكىء في عبور الشارع. إن عذوبة النهار تدغدغهم، تجعلهم يرنّمون بغنوة زنجية «وهبتك كل ما جنيته! فرجعتِ معي للبيت!» إلى امرأة تسير في كعبين أسودين لامعين عند المفارقَ.

غيّر شبّان على الأسطح من لحنهم ؛ ملفوظاً ومعزوفاً بالشفاه لوهلة، وحين كانوا يرجّعونه نافخين به وجناتهم كان صافياً وراسخاً ونوعاً من الأنواع، كمثل نور هذا النهار. لابد أن تظن بأن كل شيء مغفور لهم من طريقة عزفهم. آلات الكلارنت فيها مشكلة، لأن النحاس كان مقطوعاً بنعومة بالغة، وليس بالطريقة الوضيعة التي يحبوّن أن يفعلوها بها، لكنها عالية وناعمة كغناء شابة جنب غدير، تزجية للفراغ، بينما كاحلاها باردان في الماء. من المحتمل بأن الشبان بآلاتهم النحاسية هذه لم يروا هاتيك الفتاة أبداً، أو مثل هذا الغدير، لكنهم اخترعوهما في ذلك النهار. على الأسطح. كان بعضهم في ٢٥٤ حيث لاسور يحميهم هناك ؛ وآخرون في ١٣١ ، واحد مع خزّان الماء بلون خضار التفّاح، وشخص مباشرة جنبه، وفي ١٣٣ ، حيث يحتفظون بالطماطم في العلب المزخرفة، وفراش من القشّ للنوم ليلاً. نظراً لوجود الرطوبة، وطريقة لتجنب البعوض الذي لايقدر على الطيران لأعلى بل يلبث في لحم الرقبة الرقيق قرب

مصابيح الشارع. ولذا، فمن شارع «لينوكس» إلى شارع «نيقولا» وعبر الشارع ١٣٥ ،«لكسنجتون» ، ومن «كونفنت» إلى الشارع ٨ ، أمكنني أن أسمع الرجال وهم يرهقون قلوب أشجار سكّر القيقب، ينقرون أشجاراً عمرها أربعمائة عام ويجعلونها تسيل إلى أسفل الجذع، ولأنهم ليس لديهم دلو لحفظ السائل ولا يريدون، فهم يضيّعونه أيضا. يريدون فحسب بأن يجعلوه يسيل طوال النهار، بطيئاً لو شاء، أو سريعاً، فهي هكذا أشجار مدرّة مجاناً، تنفجر لكي تخلّي ما فيها.

تلك كانت طريقة عزف الشبان بآلاتهم النحاسية في ذلك النهار. كانوا واثقين بأنفسهم، واثقين بأنهم أتقياء، بوقوفهم هناك على الأسطح، مواجهين لبعضهم البعض في البداية، وحين تكون الدنيا صفاءً، يدوّون بآلات الكلارنت، ثم يديرون ظهورهم إليها، يتركون تلك الأبواق على استقامتها وينضمّون للنور الذي كان صافياً فحسب، وراسخاً ونوعاً من الأنواع.

مامن نهار هناك يدمّر فوراً هذه الحياة التي تتشظّى كلّوح نافذة رخيصة، لكن «ڤيولت» كان عليها أن تعرف من هي «ڤيولت». لقد ظنتّ بأن كلّ ما عليها أن تفعله هو احتساء شعير «د. دي زنيرف آند فليش بيلدر»، وأكل الخنزير، ولابد أن تكسب وزناً كافياً لملء عجيزة فستانها. كانت ترتدي في العادة معطفاً بهذه الأيام الدفيئة لتمنع الرجال جنب المنحنى أن يهزوا رؤوسهم بالشفقة عليها عند مرورها بهم. لكن في هذا النوع من النهار، كان يوماً جميلاً، لم تكن تعنى بمن فاتته من خلفها، لأنها خرجت من الباب واستندت بمرفقيها على راحتيها في الشرفة وانزلق جورباها إلى كاحليها. كانت تصيخ سمعاً للموسيقى التي تثقب تنهّدات «چو»، والتي كانت أهدأ الآن. وربما لأنها قد أعادت صورة «دوركا» إلى «أليس منفريد». لكن المساحة ظلت حقيقية حيث كانت الصورة. ربما ذلك السبب، في أنها تقف هناك على الشرفة، غافلةً عما وراءها، تفكّر أن من تصعد السلالم نحوها هي «دوركا» أخرى حقيقية حيّة، بأربع خصلات شعر متموّجة منسابة، وكل شيء.

كانت تحمل اسطوانة «أوكيه» تحت ذراعها، ونصف أوقيّة من اللحم ملفوفاً في ورقة جزّار قرنفلية في يدها، رغم أن الشمس كانت ملتهبة بحيث تعذّر عليها أن تتسكع في الشوارع باللحم. لو لم تسرع – فسينطبخ لوحده، قبل أن تضعه على الموقد.

فتاة كسولة. ذراعاها ممتلئان، لكن مامن شيء كثير في رأسها.

تجعلني عصبية.

تجعلني أتساءل عما إن كان هذا الطقس البديع سيدوم أكثر من هذا النهار. يشوّشني فعلاً ذلك الرماد المتساقط من مساحة الأزرق على هذه الشوارع. غشاوة قاتمة تتجمع عليالعتبات، وتغطّي ألواح النوافذ. وهاهي تشوّشني الآن، تجعلني أتشكّك في ذات نفسي لمجرد النظر إلى سيرها المتّئد خلال أشعة الشمس على هذا النحو. إنها تصعد السلالم الآن، متوجّهة نحو«ڤيولنت».

«كانت أمي، وأبي أيضاً، يعيشان في «تكسيدو». لم أكن أراهما على التقريب. كنت أحيا مع جدّتي التي قالت لي («فيليس»، هما لا يعيشان في «تكسيدو»؛ بل يعملان هناك، ويعيشان معنا). فقط كلمتا: يعيش، يعمل. كان من الضروري أن أراهما مرة كل ثلاثة أسابيع لمدة يومين ونصف، وكل يوم رأس السنة، وكل نهار عيد الفصح. كنت أحصي ذلك. اثنان وأربعون يوماً لو أحصيت أنصاف الأيام -التي ما كانت تجدي معي، حيث ينفد معظمها في حزم المتاع والوصول للقطار- بالإضافة لإجازتين فيكون الحاصل أربعاً وأربعين، لكنها في الحقيقة أربعاً وثلاثين فقط، لأن أنصاف الأيام لاينبغي إحصاؤها. أربع وثلاثون يوماً في السنة.

«حين يعودان للبيت، كانا يقبّلانني ويهبانني حاجات، كخاتمي الأوبال، لكن حقيقة ماكانا يريدان فعله هو الخروج للرقص بأحد الأماكن (أمي) أو النوم (أبي). وكانا يذهبان للكنيسة يوم الأحد، لكن أمي لاتزال حزينة على ذلك، لأن كل الأشياء التي عليها أن تؤدّيها بالكنيسة - العشاءات، الاجتماعات، ترتيب البدروم لحفلات مدارس الأحد، واستقبالات مابعد الجنائز - كانت ترفضها، وذلك بسبب وظيفتها في «تكسيدو». كانت تودّ، أفضل من أي شيء، النميمة مع النساء في حلقات الجمعية عما يدور؛ وتبغي الرقص قليلاً أو لعب الورق.

«كان أبي يفضّل البقاء في روب حمّام، يقرأ أكداس الجرائد التي خزنّاها له أنا وجدّتي، يترقّب تغييراً ما. صحف «الأمستردام»، «الآدج»، «الكرايسز»، «الميسنجر»، و«الوركر». وكان يأخذ بعضاً معه إلى «تكسيدو» لأنه لم يكن يتحصّل عليها هناك. كان يحب أن تطوى على الشكل الصحيح لو كانت جرائد، لاطعام أو بصمات أصابع فوق المجلات، ولذا لم أكن أقرأ فيها كثيراً. جدّتي كانت تفعل، وتكون حريصة جداً جداً أن لا تجعّدها أو تتّسخ. لاشيء كان يجعله أشدّ جنوناً من أن يفتح صحيفة بغير طية سليمة. يئن وينخر في أثناء القراءة وعلى حين غرة يضحك، لكنه ما كان يدع كل تلك القراءة حتى ولو أقلقت دمه، قالت جدتي. كان أفضل شيء له أن يقرأ كل حاجة، ويجادل بخصوص ما قرأه مع أمي وجدتي والصحاب الذين يلعب معهم الورق.

«فكّرت ذات مرة لو أنني كنت قرأت الجرائد، لوفّرت جدالي معه. فقد اخترت بشكل مغلوط. قرأت عن الشرطيّين البيض الذين قبض عليهم لقتلهم بعض الزنوج، وصرّحت بأني سعيدة للقبض عليهم، كان ذلك بالقرب من وقت الحادثة.

«نظر إليّ وصرخ (هذه حكاية لمجرد أنها لاءمت الصحيفة، فكل ذلك أخبار، يابنتي، أخبار!) لم أدر كيف أرد عليه، وبدأت أبكي، فقالت جدتي (اذهبي لهناك واستريحي)، وقالت أمي (ولتر، كفّ عن ذلك كله مع البنت). وقد وضّح لي ما كان يقصده: ذلك أن عمليات قتل الشرطة للزنوج تتم يومياً، ولا يتم القبض على أحد مطلقاً. بعدها أخذتني لنتسوق بعض أشياء لرؤسها في «تكسيدو» كانوا يطلبونها، ولمن أسالها لماذا عليها أن تتسوّق لهم بأيام عطلتها، لأنها كانت عندئذ لن تأخذني معها لمحلات «تيفاني» في الشارع ٣٧ الذي كان هادئاً أكثر مما

لو طلب الكاهن «ريڤرند» دقيقة لصلاة صامتة. عندما كان يحدث هذا، كنتُ أسمع أقدام وينفخ بعض الناس بأنوفهم. ولكن في محلات «تيفاني» فلا أحد ينفخ بأنفه ويمنع السجاد ضوضاء الأحذية من أي نوع. مثل «تكسيدو».

«منذ سنين، حين كنتُ صغيرة، وقبل أن أبدأ المدرسة، كان أبواي يأخذانني لهناك. وكان عليّ أظلّ هادئة طوال الوقت. لقد أخذاني مرتين، وظللت هناك كل الأسابيع الثلاثة. توقّف هذا، رغماً. تكلم أبي وأمي عن الذهاب لكنهما لم يفعلاه. جعلا جدتي تنطوي على نفسها وتشرف عليّ.

«أربع وثلاثون يوماً. أنا في السابعة عشرة الآن. وقد حدث هذا في أقلّ من ستمائة يوم. أقلّ من عامين بعد السابعة عشرة. قالت «دوركا» بأني محظوظة لمجرد أنهما كانا -على الأقل- هناك، في مكان ما، ولو مرضت فيمكنني استدعاؤهما، أو أركب القطار وأذهب لأراهما. كلاً من أبويها قد ماتا بطريقة كريهة للغاية، وقد رأتهما بعد موتهما، وقبل الجنازة حين اتخذ الناس الترتيبات. لديها صورة لهما جالسين تحت شجرة برقوق مرسومة. كانت أمها واقفة بيدها على كتف الأب. كان هو جالساً ويمسك بكتاب. وكانا ينظران بأسىً عليك، لكن «دوركا» لم تكن تشفى من المنظر الطيب الذي كانا عليه كلاهما.

«كانت تتكلم دواماً عمن كان حسن المنظر ومَن ليس كذلك. مَن روحه ملتَبسة، مَن في أفضل ملبس، من يجيد الرقص، من جريء.

«كانت جدّتي تشك في كوننا أصحاباً. لم تقل أبداً لماذا، لكني حزّرت السبب. لم يكن لديّ أصحاب كثيرون في المدرسة. كانت البنات -لا الأولاد- في مدرستي هن اللائي يتجمعن طبقاً للون جلودهن. أكره هذا الهراء -«دوركا» أيضاً. كنا أنا وهي مختلفتين بتلك الطريقة. حين كانت تتذمر إحدى المقرفات (هاى، ياذبابة، أين اللبن المخضوض؟)، أو (هاي، كنكي (★)، أين كند؟) كنا نلصق ألسنتنا للخارج، ونضع أصابعنا في أنوفنا كي تتمخّط. لكن لو لم يجد ذلك كنا نقوم بضربهن. بعض تلك الخناقات أتلفت ملابسي ونظارة «دوركا». لكن يبدو أن خناقات تلكم البنات مع «دوركا» كانت جيدة. فلم تكن تخاف أبداً، وكنا نمضي أفضل الأوقات. كان ذلك كله خلال مدرسة لأحداث العالية (★★)، وكل يوم.

«كل تلك الأوقات الطيبة قد راحت، أشهر قليلة ترى الرجل العجوز. عرفتُ ذلك من البداية، لكنها لم تعرف بأني عرفت. تركتها تظن بأنه سرٌ، لأنها أرادته أن يكون هكذا. في البدء ظننت بأنها كانت تخزى من الشيء، أو منه هو، وأنها فيه لمجرد الهدايا فقط. لكنها أحبّت ذلك

(★) كنكي: سخرية من الشعر المضفور فتائل. (المترجم)

(★★) مدرسة تشمل على الصفين السابع والثامن الابتدائيين والأول الثانوي. (المترجم)

السرّ الهراء. خطّطت وتآمرت كيف تخدع مسز «منفريد». كانت ترتدي في منزلي قميص نوم مغوياً لكي تذهب به. تخفي أشياء. تفعل ذلك دائماً وكأنه أسرار. لم تكن تخجل منه هو أيضاً.

«هو عجوز. حقيقةً عجوز. لكنه كان يُقابل من هن حسنات المظهر في مستواها، سأحكي له ذلك. كان لابد لـ«دوركا» أن تكون أجمل مما كانته. كانت فقط ضائعة. كان لديها كل مقوّمات الجمال أيضاً. شعر طويل، مموّج، نصف بديع، نصف رديء جلدها لامع. لم تكن تستخدم مليّنات الجلد أبداً. قوام رائع. لكنه ضائع بدرجة ما. لو نظرت فيها على أي شيء، فسيعجبك -الشعر، اللون، القوام. لكن كله سوياً غير متناسب. كان الأولاد ينظرون إليها، يصفّرون وينادون بمعاكسات طازجة حين كنا نسير في الشارع. وفي المدرسة أراد لأولاد بكل أنواعهم أن يكلموها. لكنهم كفّوا حينئذ ؛ فلا شيء يجدي. لم يكن ذلك من طبعها، فهي متكملة حاذقة، تحب المزاح والسخرية. ما من حفيظة لديها. لا أعرف ما كنه ذلك. إلا أن تكون هذه هي الطريقة التي تدفعهم بها. أعني وكأنها كانت تريدهم أن يفعلوا شيئاً مروّعاً طوال الوقت. يسرقون لها أشياء، أو يرجعون إلى المتجر لصفع وجه البائعة البيضاء التي لم تقم بخدمتها، أو يلعنون سلسال شخص كان عاملها بازدراء. تغلبني. كان كل شيء وكأنه صورة عرضت عليها، وكأنها الوحيدة على مدفّات سكة الحديد، أو المحجوزة في خيمة الساحر حينما اندلعت بها النيران.

«أظنّ ذلك ما جعلها تحبّ الرجل العجوز كثيرا جدا في البداية. التكتّم وأن كانت له زوجة. لابد أنه فعل شيئاً خطيراً معها حين قابلته لأول مرة، وإلا لم تكن استمرت في الانسلال معه. على أي حال، هي التي كانت تظنّ بأنها تنسلّ. لكن اثنتين من مصففات الشعر رأياها في ذلك الملهى الليلي، بالمكسيك، معه. قضّيت ساعتين هناك أسامع لما كانتا تقولانه عنها وعنه وعن كل الآخرين الذين يخونون. كانتا سعيدتين بالكلام عن «دوركا» وعنه، في الغالب، لأنهمالم تكونا تحبان زوجته. كانت تغضب منهما الزبائن، ولذا لم يكن عندهما ما هو طيب للكلام عنها، عدا أنها مجنونة، لكن تقصّ الشعر جيداً، ولو لم تكن عندهما ما هو طيب للكلام عنها، عدا أنها مجنونة، لكن تقصّ الشعر جيداً، ولو لم تكن مجنونة تماماً، لكانت حصلت على رخصة صحيحة بدلاً من أن تغضب منهما الزبائن.

«كانتا مُخطئتين بشأنها. فقد رحتُ أبحث عن خاتمي، ولم أجد شيئاً مجنوناً لديها على الإطلاق.

«أعرف أن أمي قد سرقت الخاتم. قالت بأن رئيستها أعطته لها، لكنني أذكره ذلك اليوم في محلات «تيفاني». خاتم فضيّ بحجر أسود أملس يدعى الأوبال. ذهبت البائعة لإحضار اللفّة التي أتت أمي لاستلامها، أرت الفتاة الورقة من رئيستها ليعطوها إياه (وأظهرتها حتى عند البوابة، ليمسحوا لها بالدخول). حين ذهبت البائعة، نظرنا إلى صينية الخواتم المخملية، التقطنا بعضها وحاولنا أن نجرّبه، لكن أتى رجل في بذلة جميلة إلينا وهزّ رأسه. بخفّة بالغة. (إني أنتظر

طرداً لمسز نيكلسون) قالت أمي.

«ابتسم الرجل عندئذ وقال (طبعاً. فقط الشرطة. علينا أن تكون حريصين) عند رحيلنا قالت أمي (من ماذا؟ ما الذي عليه أن يكون حريصاً بشأنه؟ لقد أخرجوا الصينية حتى يتمكنّ الناس من النظر إلى الحاجات، أليس كذلك؟ إذن فما الذي عليه أن يكون حريصاً بشأنه؟)

«عبسَت وتبرّمت، وانتظرنا وقتاً طويلاً حتى يأخذنا التاكسي إلى البيت، وتحدّث أبي بأن يقول شيئاً يخصّ هذا. الصباح التالي، حزما أمرهما واستعداً لأخذ القطار عائدين إلى محطة «تكسيدو». نادت عليّ مراراً، ووهبتني الخاتم الذي قالت بأن رئيستها أعطتها إياه. ربما كان لديهم الكثير منه، لكني أعلم بأن أمي قد أخذته من الصينية المخملية. أفترض ذلك، بعداً عن الضغينة، لكنها وهبته لي وأنا أحببته، وقد أقرضته لـ «دوركا» فحسب، لأنها ترجّتني لأجله بإلحاح شديد، ولأن قضيته كانت تلائم كثيراً أساور مرفقها.

«كانت تودّ التأثير على «أكتون». وهو عمل صعب، فقد كان ينتقد كل شيء. لم يكن وهبها قطّ أي هدايا كما كان يفعل الرجل العجوز. أعرف أنها أخذت هراء كثيراً منه، لأن مسز «منفريد» كان يمكن أن تموت قبل أن تشتري ملابس النوم المنزلقة أو جوارب الحرير لـ«دوركا». وهي أشياء لم تقدر على ارتدائها بالبيت أو في الطريق إلى الكنيسة.

«بعد أن علَقَت «دوركا» بـ«أكتون» كنا نرى بعضنا البعض كالسابق، لكنها اختلفت. كانت تفعل مع «أكتون» ما كان يفعله العجوز معها — تهبه الهدايا الصغيرة التي تشتريها من المال الذي نالته بتملّق العجوز ومن مسز «منفريد». لم يلحظ أحد «دوركا» تفتّش عن عملٍ، ولكنها كانت تكدّ لتدبير مال بالمكيدة كي تهب الحاجات لـ «أكتون». حاجات لم تعجبه، على أي حال، لأها كانت رخيصة، ولم يلبس أبدا ديوس الكرافتة القبيح ولا كذلك منديل لحرير بسبب لونه. إني أخمّن أن العجوز علّمها كيف تكون لطيفة، وقد أنفقت هذا الدرس على «أكتون»، والذي ناله كمنحة، كما نالها هي أيضاً كمنحة مثل أي فتاة أحبّته. لا أعرف مالو كانت قد هجرت العجوز أو كانت تحتفظ به مع «أكتون» في ذات الوقت. قالت جدتي بأنها هي التي جلبته لنفسها. وقالت: عش هذه الحياة، تدفع الثمن.

«عليّ أن أصل البيت. لو جلستُ هنا طويلاً، فإن رجلاً ما سيظنّ بأني أُفتشّ عن قضاء وقت طيب. ليس أكثر. بعدما حدث مع «دوركا» فإن كل ما أودّه هو استعادة خاتمي. أن تعمل بعد في «تكسيدو»، وصار لأبي وظيفة في فندق البرلمان. وهو أسعد مما قد رأيته ذات يوم. عند قراءته الصحف والمجلات، فهو لازال ينخر ويكلّم الكلمات المطبوعة مرة أخرى، لكنه صار يحصل عليها في يومها ومطوية على أصلها، ولم تعد مجادلاته عالية الصوت. (لقد رأيت العالم الآن) يقول.

«كان يعني «تكسيدو» بينما يقف القطار في «بنسلڤانيا» و«أوهايو» و«إنديانا» و «ألينوا» . (وكل أنواع البيض هناك، نوعان) يقول. (البعض يأسى عليك والبعض لا. وكلاً على نفس المستوى. لا مكّانة بينهما تحترم) . وهو مجادل كما في السابق، لكنه أسعد بسبب ركوب القطارات التي يأخذها ليرى الزنوج تلعب البسبول (بالجسم والخط، اللعنة على ذلك) . يدغدغه أن البيض خائفون من منافسة الزنوج بعدلٍ وإنصاف.

«جدتي أشدّ بطئاً الآن، وأمي مريضة، ولذا أقوم بمعظم الطبخ. تُريد لي أمي أن أجد رجلاً طيباً أتزوجه. أريد في الأول وظيفة طيبة. أوفّر من مالي الخاص. مثلما فعلت هي. مثل مسز «تريس» . ومثلما اعتادت مسز «منفريد» أن تفعل قبل أن تدع «دوركا» نفسها تموت.

«توقفتُ هناك لأرى مالو كان خاتمي عنده، لأن أمي ظلت تسألني عنه، ولأني لم أجده حين نَقّبت عنه في منزل مسز «منفريد» بعد الجنازة. وكان عندي سبب آخر كذلك. قالت مصففة الشعر بأن العجوز تحطّم تماماً. يبكي طول النهار وكل الليل. ترك وظيفته ولم يعد صالحاً لشيء. افترضت بأنه يفتقد «دوركا» ، ويفكّر في كيفية أنه هو قاتلها. ولكن لابد أنه لم يعرفها. كيف كانت تحبّ أن تدفع الناس، الرجال. كلهم عدا «أكتون» ولابد بأنها كانت ستدفعه أيضاً لوعاشت مدة أطول أو ظلّ هو حولها مدة أطول. كان ذلك فحسب لفرط الاهتمام أو الإثارة. لقد كنت هناك في الحفلة، وكنت الوحيدة التي كلّمتها وهي فوق الفراش.

«فكّرت في ذلك ثلاثة أشهر، وحين عرفت بأنه لازال هكذا، البكاء وإلخ، اتخذتُ قراري لأحكي له. عما قد قالته لي. وفي طريقِ عودتي من السوق، توقفت جنب محل «فيلتون» لكي أحضر الاسطوانة التي طلبتها أمي. سرت جنب العمارة على طريق «لينوكس» حيث اعتادت «دوركا» أن تقابله، وهناك على الشرفة كانت المرأة التي ينادونها «ڤيولنت» مما فعلته في جنازة «دوركا» .

«لم أذهب إلى الجنازة. لقد رأيتُها تموت كحمقاء، وكنت أُجَنّ لو أنني ذهبتُ إلى جنازتها. لم أر المشهد أيضاً. كرهتها بعدها. أي امرىء لابد يفعل ذلك. فهي صديقة ظهرت على حقيقتها.

«كل ما أريده خاتمي، وأن أدلّ العجوز على أن يكُفّ هياجه على هذا النحو. لم أكن خائفة من زوجته لأن مسز «منفريد» كانت تدعوها للزيارة، وبدا أنهما على ما يرام. أعرف مسز «منفريد» كم هي حازمة، قالت الناس كلها أنها لن تدعها أبداً تدخل منزلها ولن تتكلم عن «دوركا» أبداً، فتصوّرت أن «ڤيولنت» طيبة للغاية حتى تدعها للزيارة، وكانت طيبة فعلاً حتى أني لم أخف منها.

«يمكن أن أتخيّل لماذا دعتها مسز «منفريد» للزيارة. مسز «تريس» لاتكذب. لا تقول أي كذبة كما هي الحال مع معظم كبار السن. أول شيء قالته تقريباً عن «دوركا» أنها (كانت

قبيحة. في الظاهر والباطن).

«كانت «دوركا» صديقتي. لكنني عرفت أنها على حق بدرجة ما. كل تلك المقوّمات من الجمال والقبول لم تجد نفعاً. كنت أظن بأن مسز «تريس» ما هي إلا غيورة. وهي ذاتها مظلمة جداً جداً، ما سحة أحذية، الفتيات بالمدرسة يقلن هذا. ولم أتوقّع أن تكون جميلة، لكنها كانت. لن يرهقك أبداً أن تنظري إلى وجهها. هي ما تقول جدتي عنه نحيل القوام، وتعمل شعرها مفروداً وأملَس، ينزلق إلى الوراء كشعر الرجال، وقد صار هذا الطراز هو البدعة الآن. كان منسدلاً بلطافة على أذنيها ومن عند الفم أيضاً. لابد أن زوجها قد روّق لها جزء الفم. مِن أيضاً؟ فهي لم تخط قدماً إلى صالون تجميل، أو هكذا قالت مصففتا الشعر. أتصوّر أن زوجها يخفّف لها أسفل الرقبة. بالمجزّات، وربما حتى بالموسى، ثم البودرة فيما بعد. كان من ذلك النوع، وقد تبيّنت ما كانت تتكلم عنه «دوركا» وهي تنزف على طول فراش تلك المرأة في الحفلة.

«كانت «دوركا» حمقاء، ولكني حين قابلت العجوز صنّفت فهمي. كانت له طريقة بشأن نفسه. وكان وسيماً. أعني، بالنسبة لعجوز. لم يكن فيه شيء مترهّل. رأس شكلها بديع، تحمل ذاته وكأنها لشخص آخر. مثل والدي بواب البرلمان الفخور بأنه قد رأى العالم، والبسبول، ولم يعد محجوساً بمحطة «تكسيدو». لكن عينيه لم تصبحا باردتين كعيني والدي. ينظر السيد «تريس» عليك. لديه عينان مزدوجتان. كل واحدة بلون مختلف. واحدة حزينة تجعلك تنظرين بداخله، وأخرى صافية لتنظري داخلك أنت. أحببت أن ينظر إليّ. أشعر، لا أعرف، بالشوق. ينظر إليّ وأحسّ بذلك عميقاً - كما لو أنّ الأشياء التي أحسّها وأفكّر فيها هامة ومختلفة و... شائقة.

«أظنه يحبّ النساء، ولم أعرف أي واحد على شاكلته. لا أعني أنه يغازلهن، أعني أنه يحبهن دون فعله ذلك، و، وهذا ما لابد أنه أزعج مصفّفتي الشعر، لكني أظن بأنه يحبّ زوجته حقاً.

«بدايةً، حين ذهبت إلى هناك، كان جالساً جنب النافذة يحدق أسفلها في الزقاق، ولا يقول أي شيء. فيما بعد، حين جلبت له مسز «تريس» طبقاً مليئاً بطعام عجائز: هراء من خضار مع أرز وخبز ذرة فوقه تماما. قال (أشكرك، حبيبتي. خذي نصفه لنفسك). كان هناك شيء بخصوص الطريقة التي قالها بها. على رغم تقديره لذلك. حين يقول أبي شكراً، فهي مجرد كلمة. أما السيد «تريس» فيتصرف وكأنه يعني هذا. وعندما كان يترك الغرفة ويسير أمام زوجته، كان يلمسها. أحياناً على الرأس. وأحياناً مجرد تربيت على كتفها.

«لقد رأيته يبتسم مرتين الآن، ويضحك عالياً مرة. حينها لايعرف أحد ما عمره. حين يضحك فهو شبيه بولد صغير. ولكني كنت قد زرتهما ثلاث أو أربع مرات قبل أن أراه في مرة يبتسم. كان هذا حين قلت بأن الحيوانات في حديقة الحيوان لابد أنها أسعد مما لو تركوها طليقة لأنها في مأمن هناك من الصيادين. لم يعلق؛ ابتسم فقط وكأن ما قلته كان جديداً أو مضحكاً

حقاً.

«كان ذلك سبب ما جعلني أعود. أول مرة لأرى ما لو كان خاتمي عنده، أو يعرف بمكانه، ولكي أخبره بأن يكفّ عن مواصلة هياجه بخصوص «دوركا» فربما كانت لاتستحقّ هذا منه. المرة التالية، حين دعتني مسز «تريس» على العشاء، كان من الأفضل أن أشاهده كما هو ، وأنصت لمسز «تريس» تتكلّم على الطريقة التي تألفها. والطريقة التي تجلب إليها المتاعب دوماً. (لقد أفسدت حياتي) أخبرتني هي. (قبل أن آتي شمالاً، كان يفعمني الحس بالعالم وكذا العالم كان. لم نجن أي شيء كما أننا لم نخسره). من سمع بذلك مرة؟ إن الحياة في المدينة كانت أفضل شيء في الدنيا. ما الذي يمكن أن يحرمه منك الريف؟ عندما زرت «تكسيدو»، زمان حين كنت صغيرة، كنت متبرمة آنذاك. كم عدد الأشجار التي يمكنك أن تنظري إليها؟ ذلك ما قلته لها. (كم عدد الأشجار التي يمكنكِ أن تنظري إليها؟ ولمتى؟ وماذا بعد؟)

«قالت بأن الأمر ليس كذلك، متطلّعة إلى باقة من شجر. قالت لي أن أذهب إلى الشارع ١٤٣، وأنظر إلى شيء كبير في الركن، وأرى إن كان رجلاً أو امرأةً أو غلاماً.

«ضحكتُ، ولكن قبل أتفق مع مُصفّفتي الشعر بأنها مجنونة، قالت لي (ما الذي يعنيه لكِ العالم لو لم تخلقيه على الطريقة التي تريدينه بها؟)

«(الطريقة التي أريده بها؟)

«(بيه. الطريقة التي تريدينه بها. ألا تريدينه أفضل مما هو عليه؟)

«(ما المسألة؟ فأنا لا أستطيع تغييره.)

«(تلكِ هي المسألة. لو لم تغيّريه، فسيغيّركِ أنتِ، ويكون خطؤكِ أنكِ أرخيتِ له الزمام. أنا بنفسي أرخيت له الزمام. وأفسدت حياتي.)

«(أفسدتها كيف؟)

«(انسيِ ذلك.)

«(أنسى؟)

«(انسيِ أن كانت لي حياة. فقط كنتُ أعدو في الشوراع جيئة وذهاباً أودُّ لو كنتُ شخصاً آخر).

«(من؟ تريدين أن تكوني مَن؟)

«(ليس من بقدر ما هي ماذا. بيضاء. لامعة. شابة مرة أخرى.)

«(والآن لا تقدرين؟)

«(الآن أودّ لو أكون المرأة التي لم تمكث أمي طويلاً حتى تراها. تلك المرأة. المرأة التي لابد أنها أحبتّها، والتي اعتدت حبّها أنا أيضاً من قبل... لقد غذّتني جدتي بحكايا عن طفل

أشقر صغير. كان ولداً، ولكني كنتُ أفكّر فيه كبنتٍ أحياناً، وكأخٍ، ورفيقٍ أحياناً أخرى. كان يحيا بداخل روحي. هادئاً كبغلٍ. لكني لم أعرفه حتّى وصلت هنا. كلانا الاثنان. فهل عليّ أن أتخلّص منه.)

«كانت تتكلّم على هذه الشاكلة. لكني كنتُ أفهمُ ما تقصده. عن تملكها آخر بداخلها وهي ليست مثله. اعتدنا، أنا و «دوركا»، على تمثّل مشاهد غرام ونصفها لبعضنا البعض. كان ذلك مرحاً وفاحشاً قليلاً. شيء ما بشأن هذا ضايقني، رغماً. ليس هراء الغرام، بل صورة نفسي وهي تفعل مثل ذلك. لا شبيه لي. شفت نفسي كشخصٍ كنت رأيته في عرض سينما أو مجلة. بعدها يتمّ به الفعل. لو تخيّلت نفسي على ما هي عليه تختلط الصورة.

«(كيف تخلّصتِ من ذلك؟)

«(قتلتها. ثم قتلتَ الأنا التي قتلت هي.)

«(ومن تبقّى؟)

«(أنا.)

«لم أقل أي شيء. بدأتُ ثانيةً أظنّ بأن مصفّفة الشعر ربما كانت على حقٍ، بسبب الطريقة التي بدت عليها وهي تقول (أنا). وكأنها أول ما لفظته من الكلام.

«عاد السيد«تريس» عندئذ، قال بأنه ذاهب للجلوس بالخارج فترة. قالت له (لا، يا «چو». ابق معنا. فهي لن تعضّك).

«كانت تقصدني، وتقصد شيئاً آخر لم ألحه. أومأ وجلس جوار النافذة يقول (لفترة وجيزة).

«كانت مسز «تريس» تنظر عليه، ولكني عرفتُ بأنها كانت تكلّمني حين سمعتها تقول (صاحبتك القبيحة، تلك الصغيرة، قد آذته، وأنتِ تذكّرينه بها).

«وجدتُ بالكاد لساني. (أنا لستُ بمثلها!).

«لم أقصدِ أن أقول هذا بصوتٍ عالٍ. فتحوّل كل منهما للنظر إليّ. قلتُ ذلك دون أن أكون قد خطّطت له. أخبرتهما به حتّى قبل أن أطلب الخاتم. (لقد تركت «دوركا» نفسها لتموت. فالرصاصة خرقت كتفها، من هنا). أشرت.

«لم تدع أي امرىء يحرّكها ؛ قالت بأنها تريدُ أن تنام وستكون على ما يُرام. وقالت بأنها ستروح للمستشفى صبحاً. (لاتدعيهم يستدعون أحداً) قالت. (لا إسعاف، ولا شرطة، ولا أي أحد). ظننت أنها لاتريد خالتها، مسز «منفريد»، أن تعرف. أين تكون ولا أي شيء. والمرأة التي أقامت الحفلة قالت ما شي، لأنها كانت خائفة من استدعاء الشرطة. كلهم كانوا خائفين. وقف الخلق حولها يتكلّمون فقط وينتظرون. أراد بعضهم أن يحملوها إلى الدور السفلي، لوضعها في

سيارة وإلى عنبر الاستقبال. رفضت «دوركا». قالت أنها بِتمام خالص. من فضلكم اتركوني لوحدي وخلّوني أستريح. لكني فعلتها. أقصد، استدعيت الإسعاف ؛ ولكنها لم تهلّ قبل الصباح، بعد أن استدعيتها مرتين. ثلج الطريق، قالوا، بل الحقيقة في أن الاستدعاء جاء من ملوّنين. نزفت كلها حتى الموتِ خلال ملاءات فراش تلكم المرأة والموضوعة فوق المرتبة، ويمكنني أن أقول بأن ذلك لم يعجب المرأة ولو قليلا. فقد كان كل ما تكلّمت عنه. هي ورفيق «دوركا». الدم. باللِفوضى التي أحدثتها. هذا كل ما كانوا يتكلمون به].

«كان عليّ أن أكف عندئذ لأني كنت لاهثة الأنفاس وأبكي.

«كرهت البكاء من كل أعماق نفسي على ذلك.

«لم يجعلاني أكفّ أيضاً. سلّمني السيد «تريس» منديل جيبه، وقد كان منقوعاً وقت أن نفخت بأنفي فيه.

«(أهذه هي المرة الأولى؟) سألني. (المرة الأولى التي بكيتُها فيها؟)

«لم أكن فكّرت في ذلك، لكنه كان صحيحاً.

«قالت مسز «تريس» (أوه، خراء)

«بعدها كان كلاهما ينظر لي فقط. لم أكن أظن بأنهما سيقولان كلمة أخرى حتى قالت مسز «تريس»(تعالي على العشاء، لماذا لا تأتين. الجمعة مساءً. هل تحبين سمك السلّور؟)

«أجبت بالتأكيد، لكني لم أكن عازمة على المجيء. الجحيم مع الخاتم. ولكنني في الخميس السابق، كنت أفكر في الطريقة التي ينظر بها السيد « تريس» إليّ، وطريقة زوجته في قول (أنا).

«الطريقة التي قالتها بها. ليست مثل (أنا) شخص جلف، أو كالتي يُقدّم بها شخصٌ عرّضاً. لكنها مثل، مثل شخصٍ قدّمت له خدمةً ويمكن أنَ تعوّل عليه. شخص باطنيّ ليس من الضروري أن تحسّ بالأسى عليه أو تقاتل من أجله. شخص ليس من الضروري أن يسرق خاتماً من البيض وبعدها يكذب ويقول بأنه كان هدية منهم. كنت أريد استرجاع الخاتم، ليس فقط لأن أمي تسألني دواماً إن كنت وجدته بعد. فهو جميل. ورغم أنه يخصّني، فهو ليس لي. أحبه، ولكن كانت به خديعة، ويجب أن أتفق مع هذه الخديعة فأقول بأنه لي. يذكّرني بالصغير الأشقر المخادع الذي يحيا بداخل رأس مسز «تريس». هدية مأخوذة من قوم بِيض، موهوبة لي من وقت أن كنت صغيرة، حتى تعذّر معي أن أقول لا شكراً.

«لقد دُفنَ معها. ذلك ما كشفتُه حين رجعتُ لعشاء سمك السلّور. كانت مسز «تريس» قد رأته في يد «دوركا» حين حاولت طعنها في الكفن.

«جاءني شعور بالمرح في معدتي، وحلقي جفّ حتى صَعبَ عليه أن ينتفخ، ولكن كان يجب أن أسألها نفس السؤال – لماذا أتلفت الجنازة على ذلك النحو. نظر السيد «تريس» إليها. كما لو أنه هو سائل السؤال.

«(كنتُ فقدتُ المرآة) قالت. (أنزلتُها في مكانٍ ما ونسيتُ أين).
«(وكيف وجدتها؟)
«(كنت أنظر).
«جلسنا هناكٍ لفترة، ولا أحد يقول أي شيء. عندها نهضت مسز «تريس» لتردّ على طرقة بالباب. سمعت أصواتاً. (فقط من هنا ومن هنا. لن يأخذ منكِ سوى دقيقتين.)
«(أنا لا أعمل عمل دقيقتين».
«(رجاءً، «ڤيولت»، فأنا لا أطلبكِ إلا حين يكون ضرورياً تماما، تعرفين ذلك).

«جاءتا إلى غرفة الطعام، مسز «تريس» وامرأة تُدافع عن خصلاتها القليلة (فقط هنا وهنا. ممكن أن تلفيه لأعلى هنا، لا معقوصاً، بل ملفوفاً، تعرفين ما أقصد؟)

«(يمكنكما الذهاب للغرفة، فلن أمكث طويلاً). قالت للسيد «تريس» ولي، بعد أن قلنا (يسعد مساءك) للزبونة المتعجّلة، ولكن لم يقدّم أحدنا نفسه للآخر.

«لم يجلس السيد «تريس» إلى النافذة هذه المرة. جلس جنبي على الكنبة.
«(فيليس. وجودك يسعدني. وأنتِ؟)
«(طبعاً. ولم لا.)
«(لم تكن «دوركا» قبيحة. لا باطناً أو ظاهراً).
«استهجنت. (كانت تستخدم الناس لصالحها).
«(فقط لو أرادوا منها ذلك).
«(وهل أردت منها أن تستخدمكَ؟)
«(لابدّ).
«(حسناً، أنا لم أفعل. حمداً للربّ أنه ليس بمقدروها بعد).
«تمنّيت لو لم أكن خلعت جاكتتي. كان فستاني ممطوطاً من عند قمتيه غير عابىء بما أفعله. نظر على وجهي، لا جسمي، فلم أدر لماذا أتوتّر من كوني بمفردي في الغرفة معه.
«عندها قال (لقد أجنّك موتها. وأنا أيضاً).
«(أنت سبب كونها هكذا).
«(أعرف. أعرف).
«(حتى لو أنك لم تقتلها على الإجمال؛ حتى لو أنها تركت نفسها لتموت، فأنت الملوم).
«(كنتُ أنا، ولباقي عمري، سأكون أنا. هل أخبركِ بشيء. لم أر أبداً مخلوقاً أشد احتياجاً لي منها في حياتي).
«(«دوركا»؟ تقصد أنك لاتزال متُعلقاً بها؟)
«(متعلّق؟ نعم، لو تقصدين أني أحبّ ما كنتُ أشعر به نحوها. أخمّن عندئذ أني لازلتُ

مُتعلّقاً بها) .

«(وماذا عن مسز «تريس» ؟ ماذا عنها ؟)

«(نعمل باستمرار. وسنسرع الآن، منذ أن وقفت معنا وأخبرتنا ما فعلته) .

«(كانت «دوركا» باردة) قلت. (طوال عمرها وحتى النهاية كانت عصيّة الدمع. لم أرها أبداً تظلّل أي دمعة من شأن أيها شيء) .

«قال(أنا فعلتُ. تعرفين جانبها القاسي ؛ رأيتُ منها الضعيف. حظي كان أن ملتُ لذلك) .

«(دوركا ؟ضعيفة ؟)

«(«دوركا» . ضعيفة. هي الفتاة التي عرفتها. أن كان لديها موازين لم يكن يعني أنها لا تخجل .لم يعرفها أحد هكذا عداي. فلا أحد جرّب أن يحبها قبلي أنا) .

«(لو كنت تحبها، فلماذا كان ضرورياً أن تطلق عليها النار ؟)

«(كنت أخاف. ألا تعرفين كيف الحبّ مع أي واحد.)

«(هل تعرفه أنتَ الآن ؟)

«(لا. هل تعرفينه أنت، يا فيليس ؟)

«(لديّ أشياء أخرى أشغل بها وقتي.)

«(لم يسخر مني فقلت(إني لم أخبركَ بكل شيء.)

«(أهناك المزيد ؟»)

«(لابد من المفترض. كان آخر شيء قالته. قبل أن... راحت في النوم. كل امرىء كان يصرخ (من أطلق عليك النار، من فعلها ؟) ، قالت (اتركوني لوحدي. سأخبركم غداً) . لابد أنها ظنتْ ستبرأ غداً، وقد جعلتني أظنّ ذلك أيضاً. بعدها نادت باسمي رغم أني كنت أركع جنبها تماماً. (فيليس. فيليس. اقتربي، أقرب) . وضعت وجهي مباشرة هناك. أمكنني أن أشمّ خمرة الكوكتيل في أنفاسها. كانت تعرق، وتهمس لنفسها. لم تتمكن من فتح عينيها. وفجأة فتحتهما على اتساع وقالت، بعلو صوت حقيقي : (هناك فقط تفاحة واحدة) . نطقت ما يشبه الـ(تفاحة) . (واحدة فقط: قولي لـ«چو») .

«(أرأيتَ؟ كنت آخر شيء على بالها. أنا كنتُ هناك، هناك فعلاً. كنتُ أظن بأني أعزّ صواحبها، ولكن معزّتي لم تكن كافية عندها حتى تجعلني آخذها إلى عنبر الاستقبال وتبقى حيّة. تركت نفسها لتموت مباشرة، تحتِ يدي، بخاتمي وكل شيء، ولم أكن حتى على بالها. هكذا. هذا ما كان. وكما أخبرتك) .

«تلك كانت المرة الثانية التي رأيته يبتسم فيها، ولكنها كانت بسمة حزينة أكثر منها بهيجة. قال (فيليس) . وظل يقولها. (فيليس. فيليس.) بمقطعين لا بمقطع واحد كما يفعل معظم الناس، وضمنهم أبي.

«مرّت المرأة المعقوصة الشَعر أمامهما في طريقها للخروج من الباب، مزقزقة، تقول، شكراً

جزيلاً أراكَ يا «چو» آسفة لإزعاجك باي حبيبي لم أذكر اسمك بسوء لديك المباركة «ڤيولت» المباركة حقاً باي.

«قلت بأنه يجب أن أذهب أيضاً. غطست مسز «تريس» في كرسيٍّ برأسها مرمية للخلف وبذراعيها محوّمتين. (إن الناس هم الوضاعة) قالت (محض وضاعة). قال السيد «تريس» (لا. فهم كوميديون بما هم عليه). ضحك قليلاً عند ذاك، ليثبت نظريته، وكذلك فعلت هي. وضحكت أنا أيضا، لكن ضحكتي لم تكن على الوجه الصحيح، لأني لم أكن أظن هذه المرأة بكل هذه المرح.

«وضع شخصٌ في المنزل أو عبر الزقاق اسطوانة، طفت الموسيقى من خلال النافذة المفتوحة داخلة علينا. حرّك السيد «تريس» رأسه على الإيقاع وكانت زوجته تعضّ أصابعها في ذات الوقت. قامت بخطوة صغيرة للرقص أمامه وهو ابتسم. خطوة بخطوة كانا يرقصان. بمرح، كما يفعل العجائز، وضحكت أنا بحق. ليس بسبب ما بدا عليهما من مرح. كان شيء ما في ذلك يجعلني أشعر بأنني لايجب أن أظَل هناك. لاينبغي أن أنظر عليهما وهما يفعلان هذا.

«قال السيد «تريس» (تعالي، يافيليس. دعينا نرى ما الذي يمكنكِ أن تفعليه). ومدّ يده.

«قالت مسز «تريس» (بيه. تعالي. بالعَجَل ؛ فهي توشك على النهاية).

«هززتُ برأسي، ولكني كنتُ أُريد.

«عندما انتهيا، طلبتُ چاكتتي، قالت مسز «تريس» (عودي في أي وقت. فأنا أودّ أن أعمل لكِ شعركِ على أي حال. مجاناً. نهايات شعرك تحتاج للجزّ)

«جلس السيد «تريس» وتمدّد. (هذا المكان يحتاج لطيورٍ).

«(وحاكي «ڤكترولا»).

«(أمسكي عليكِ لسانكِ، يافتاة).

«(لو أتيتم بالحاكي، سآتي ببعض اسطوانات. حين أجيء لقصّ شَعري).

«(سامع، يا«چو» ؟ ستأتي ببعض اسطوانات).

«(إذن من الأفضل أن أجد وظيفةً أخرى) دار جزئياً، وتلامس مع مرفقي بينما كنتُ أمشي إلى الباب. (فيليس. اسمكِ على مسمّى(*). تذكّري هذا)

(*) فيليس: تعني هناء. (المترجم)

«سأحكي لأمي الحقيقة. أعرف أنها تفتخر بسرقة خاتم الأوبال ؛ بجرأتها على فعل شيء كهذا. كان الرجل الأبيض يظنّ بأنها تسرق في حين أنها كانت أتّمت الفعلة. أمي شريفة جداً حتى أن الناس تضحك منها لذلك. فقد ردّت زوجاً من القفّازات للمتجر حين أعطوها زوجين بديلاً عن واحد كانت دفعت حقّه ؛ وكانت تعطي للمحصّلين ما تجده على المقعد في الترولِلي من أرباع الدولار. وكأنها لا تعيش في مدينة كبيرة. حين تفعل هراءً كهذا، يضع أبي جبهته على يده، وينظر عليها ناس المتجر والمحصلون كأنها مختلّة العقل بالتأكيد. ولذا أعرف بأن أخذها الخاتم كان يعني لديها الكثير. كم تفتخر بأنها حطّمت قوانينها ولو مرة. لكني سأقول لها بأني أعرف، أنها هي التي فعلت ذلك، رغم أن الخاتم كنتُ أحبّه حقاً.

«أنا سعيدة أن «دوركا» أخذته. كان يلائم إسورتها ويلائم المنزل الذي به الحفلة. فقد كانت الحوائط بيضاء مع ستائر من فضة وفيروز على النوافذ. وكان قماش الأثاث من الفيروز أيضاً، كما كانت السجاجيد المترامية التي تلفّها المضيفة وتخزنها في حجرة النوم الإضافية، بيضاء. فقط حجرة مائدتها كانت معتمة، وغير مرتبة كالجزء الأمامي. ربما لم تكن تتجنب ألوانها المفضلة على هذا النحو، فقد تركت وعاءً من برتقال رأس السنة ليكون الزينة الوحيدة.وكانت حجرة نومها الخاصة بيضاء ومذهّبة، لكن الحجرة التي وضعت بها «دوركا» كانت للنوم إضافية وتبعد عن حجرة المائدة المعتمة، وبدون لون.

«لم يكن لدي رفيقٌ للحفلة. فذهبتُ مع كل من «دوركا» و«أكتون». كانت «دوركا» تبغي عذراً وقد كنته. كنا استعدنا صدا قتنا للتوّ، بعد أن كفّت عن رؤية السيد «تريس» في حين كانت تدور مع «صيدها». والذي أرادته فتيات كثيرات أكبر منا وننله أيضاً. كانت «دوركا» تحبّ ذلك الدور – تجعل الأخريات غيورات ؛ فقد اختارها من بينهن ؛ وهذا يعني أنها انتصرت. ذلك ما قالته (فزت به. انتصرت!). ياإلهي. لقد ظنت أنها في معركة.

«ماذا بحق الجحيم يعني أنها انتصرت؟ كان يسومها العذاب ولم تكن تدري. كانت تقضي وقتها تتخيل كيف تحافظ عليه مهتماً بها. تتآمر بما يمكن أن تفعله مع أي فتاة تحاول أن تسعى إليه. تلك هي الطريقة التي تفكّر بها كل البنات: كيف تصل، ثم تعلّق، ولداً، ومعظمهن لهن صاحبات يردنها أن تناله، وعدوّات لايردن هذا. أظنّ أنها طريقة تفكيرك في ذلك. لكن ماذا لو لم أرغب؟

«الدنيا دفيئة هذه الليلة. ربما لن يهلّ الربيع وننزلق إلى الصيف مباشرة. أمي تحبّ ذلك – فهي لا تستطيع تحمّل البرد. وأبي سيكون سعيداً أيضاً، حيث كان يطارد الأماكن باحثاً عن لاعبي البسبول الملوّنين (بالجسم والحظ) متذمّراً، كان يقفز لأعلى وأسفل حين يعّد اللعبات لأصحابه. لا أزهار على الشجر بعد، لكن الدنيا دفيئة بدرجة معقولة. لسوف تبرعم الأزهار قريباً. تلك العالية هناك تتوجع من أجل هذا. ليست الشجرة لرجل ؛ أظن بأنها لطفل. حسناً، قد

تكون لامرأة، على ما أفترض.

«كان سمك السلْوْر لديها طيباً للغاية. ليس طيباً كما اعتادت جدتي أن تفعله، أو كما اعتادت أمي قبل أن يبلىَ صدرِها. فلفل حارّ كثير جداً في الدقيق المرشوش الذي ألصقت به مسز «تريس» السمك. شربت كثيراً من الماء كي لا أوذي مشاعرها. ذلك خفّف الألم» .

❖ ❖ ❖

ألَم. يبدو أنني التقطت عدوى، نوع من حبّ الحلوياتِ سبَّب ذلك. سهامٌ من البرق، جداول رفيعة من الرعد. وأنا عين العاصفة. الحداد الذي يشطر الشجر، دجاجات يمتن جوعاً في أعالي السطوح. أتصوّر ما الذي يمكن فعله لإنقاذها لأنها لاتقدر على إنقاذ أنفسِها بدوني. لأنه — حسناً، إنها عاصفتي، أليس كذلك؟ أحطِم الحيوات لأثبت أنه بإمكاني جبرها ثانيةً. ورغم أن الألم لهم، فإني أشاركهم فيهِ، ألستُ كذلك؟ طبعاً. طبعاً. فلن أحصل عليه بأي طريقة أخرى. لكن هذا شأن آخر. لست مرتاحة الآن. أشعر بالزيف قليلاً. ماذا؟ إني أتساءل، ما الذي يجب أن أكونه بغير بقع الدماء اللامعة القليلة حتى أتأمّل؟ بدون تمثّل الكلمات التي تضع العلامة، ثم تفقدها؟

ينبغي أن أغادر هذا المكان. أتجنّب النافذة؛ أترك الثُقب الذي اخترمتُه خلال الباب للدخول في حيوات بديلاً عن معايشة حياتي الخاصة. كان ذلك هو عشق المدينة التي أذهلتني وأوهبتني أفكاراً. جعلتني أظنّ بأن في إمكاني الحديث بصوتها العالي وأن أجعل ذلك الصوت صوتاً بشرياً. افتقدت الناس كلهم.

ظننتُ بأني عرفتُهم ولم أقلق بخصوص أنهم لايعرفونني حقاً. ويتّضح الآن لماذا ينكرونني عند كل منحنيً: لقد عرفوني كلهم. من خارج زوايا عيونهم راقبوني. وعندما كنت أشعر بأنني غير مرئية تماماً، بشفتين مزمومتين، صامتةً ولا أراقب، كانوا يتهامسون بشأني لبعضهم البعض. عرفوا القدْر القليل الذي يمكنهم أن يعوّلوه عليّ؛ وكم أحسّ بالبؤس والهشاشة من أن نفسي التي أعرفها قد تغطّت بالعجز. وذلك حين اخترعت الحكايا عنهم — وجعلتها تبدو ملائمة تماماً — كأني كنت في أيديهم، وساسوني دون رحمة. ظننت بأني قد أخفيت نفسي كليّةً حين راقبتهم من خلال النوافذ والأبواب، انتهزت كل فرصة سنحت لي لكي أتتبعهم، أنمنم عنهم وأملأ حيواتهم، وذلك بطول الفترة التي كانوا يراقبونني فيها. تأسّوا عليّ أحياناً وفكّروا فحسب في شفقتهم التي أودّ لها الفناء.

افتقدتُ هذا كلهِ. إني متأكدة من إمكان أن يقتل أحدهم الآخر. ترقّبت ذلك حتى يمكن لي وصفه. كنت موقنة من أنه سوف يحدث. إن الماضي كان اسطوانة خربة بدون خيار إلا لتكرار نفسه في الأخاديد وما من قوة يمكنها أن ترفع الذراع الذي أمسك الإبرة. كنت أوقن

بذلك، فقد رقصوا وساروا من خلالي. كانوا مشغولين، مشغولين بكونهم أصلاء، ومعقدين، وهوائيين — فهم بشر، أخمن ما تقوله، في حين أني قابلة للنبوءة، أتحير في عزلتي نحو غطرسة، أعتبر كونها مساحتي، وأرى أنها الوحيدة التي كانت أو حدثت. صرت أنفعل للغاية أثناء تطفّلي، أثناء تشكّل إصبعي، ولذا احتلت وفاتني الوضوح. كنت أرقب الشوارع، مهزهزة تخترقني المباني الضاغطة والمضغوطة بالحجر؛ يسعدني تماماً أني أطلّ على الأشياء خارجها وداخلها والتي رفضت أن تداوم حياتها في جيوب قلبي الحميمة.

رأيتُ ثلاثتهم «فيليس وچو وڤيولت»، بدوا لي كأنهم انعكاس مرآة لـ «دوركا وچو وڤيولت». ظننت بأني رأيت كل شيء مهم فعلوه، واعتمدت على ما رأيت وعلى ما أتصوّر أني لم أره: كم كانوا دخلاء ومنساقين. كأنهم أطفال أشقياء. ذلك ما أردت أن أعتقده. لم يخطر ببالي أبداً أنهم فكّروا أفكاراً أخرى، أو شعروا بمشاعر أخرى، أو وضعوا حيواتهم سوياً في طرق لم أحلم بها أبدا. مثل «چو» حتى هذه اللحظة فأنا لست متأكدة حقاً بشأن دموعه من أجل ماذا، لكني أعلم في يقين بأنها كانت لما يزيد عن «دوركا». في كل الفترة التي كان يجري فيها عبر الشوارع في طقس رديء، كنت أظنّ بأنه يفتش عنها، لا عن تجويف «وايلد» الذهبي. ذلك البيت في الجبل؛ ذلك المكان الذي يدخله نور الشمس معظم النهار. فهو لا شيء حتى يتمّ التباهي به، لنظهره لأي امرىء أو نريد أن نكون فيه. لكني سأفعل. أريد أن أكون في مكان جاهز ومعدّ لي، أنيق ومفتوح على اتساع معاً. بمدخلٍ لايحتاج بتاتاً لإغلاق، برؤية تنحدر للنور، وبأوراق خريف لامعة ولكن دون مطر. أين يمكن لنور القمر بأن يعوّل عليه لو لم تكن السماء صافيةً والنجوم على سجاياها. وتحتها، هنالك نهر فحسب، يدعى «تريسون»، كي تعتمد عليه.

أحبّ أن أغلق على نفسي في الهدوء الذي تركته المرأة التي عاشت هناك وقد أخافت الجميع. كانت غير مرئية لأنها تعرف ذلك أفضل من أن تكون مرئية. بعد ذلك، من سيراها، المرأة اللعوب التي كانت تعيش بجوف صخرة؟ من يمكنه ذلك، دون رعب؟ هل من عينيها الناظرتين وهي تكرّر النظر؟ لن أبالي. ماذا يتوجّب عليّ إذن؟ لقد رأتني ولم تكن خائفة مني. تشبثت بي. فهمتني. أوهبتني يدها. جسّتني. فتحرّرت سراً.

الآن أعرف.

❖ ❖ ❖

تنقّلت «أليس منفريد» بعيداً عن الشارع المصفوف بالشجر عائدة إلى سبرنجفليد. كانت امرأة تهوى الفساتين الملونة اللامعة ومحتمل بأن ثدييها كانا يطريّان أكياس النقود الجلدية الآن، وربما هي تحتاج للقليل: ستائر، معطف ببطانة جيدة تتحمّل فيه الشتاء. رفقة شخص مبهجة

بإمكانها أن تمدّ بحاجات الليل.

لاتزال «فيليس» تشتري اسطوانات «أوكيه» من محلات فيلتون، وتمشي ببطء عائدة من محل الجزارة فيفسد اللحم قبل ارتطامه بالوعاء. تفكّر على تلك الطريقة، ويمكنها خداعي مرة أخرى – حركة الناس ببطء جنبها يبدو أنها ركض. أيمكن أن تجعلني حمقاء: ربما تكون سرعتها بطيئة لكن درجة نشاطها تنبىء بعام جديد. لو رفعت يديها لتحية رفاقها أو فتحتهما لمصافحة، فإنها في الأمرين ليست هزؤاً أو لعبة لأي واحد.

وجد «چو» عملاً في «باي درت»، وظيفة ليلية بحانة غير مرخصة تجعله يرى سماء المدينة غير المعقولة بينما كان يلمّ بـ «ڤيولت» في نور النهار بعد الظهيرة. في طريق عودته للبيت، بعد الشروق بالضبط، سينزل سلالم «إيڤاتيد»، ولو كانت عربة الحليب تركن عند المنحنى، فلربما يشتري جالوناً من تموين اليوم الجديد يرطّب به خبز القمح في عشاء المساء. عند وصوله عمارة السكنى، يلتقط قطع نفاية الليل التي ألقاها قاطنو الشرفات، فيسقطها في وعاء الزبالة، ويجمع لعب الأطفال ليضعها في بئر السلم. ولو وجد دمية تعرّف عليها من بين اللعب، فهو يتركها تقف بارتياح إلى الكومة. يصعد السلالم وقبل أن يصل إلى بابه يمكنه أن يشمّ لحم فخذة الخنزير الذي لاتتركه «ڤيولت» ليجمّر في دهنه حتى تتبّل الفتة التي كانت انتفخت في الوعاء. ينادي عليها بصوت عالٍ حين يغلق خلفه الباب وهي ترد النداء: «ڤي؟»، «چو؟» كما لو أنه شخص آخر، كما لو أنه جار جريء أو شبح صغير بجلد وسخ هناك بديلاً عنه. بعدها يتناولان الإفطار، وعلى الأغلب أكثر مما سبق، يروحان في النوم. بسبب عمل «چو» –و«ڤيولت» أيضاً– وأشياء أخرى كذلك، كفّا عن نومة الليل – أبدلا مضيعة الوقت تلك بغفلات نوم قصار حين يصرّ البدن، ولم يدهشهما شعورهما بأن هذا أطيب. وكانا يمضيان باقي النهار على كيفما يريدان. بعد حلاقة شعر واحدة، على المثال، يقابلها في الصيدلية المتجر لتتناول هي شعير الڤانيليا وهو خمر الكريز.

كانا يسيران في الشارع ١٢٥ وعبر الطريق السابع وعندما يتعبان، يجلسان ويستريحان بأي رواق يريدانه ويتكلمان عن الطقس وسوء السلوك عند الشباب وذلك مع المرأة المحنيّة على عتبة نافذة الدور الأول. أو ربما يسيران الهوينى إلى «كورنر» لينضمّا إلى الحشد الذي ينصت للرجال ذوي عيون البصيرة. (كانا يحبان هؤلاء الرجال، رغم أن «ڤيولت» كانت تضطرب من دقّ أحدهم على صندوقه الخشبي أو الكرسي المكسور الذي يقف عليه، أو تضطرب من ذلك الذي وسط الحشد ويفوه بكلمة تؤذي مشاعر الرجل. كان «چو» هو عاشق عيون البصيرة، وهو حمول دائماً، ويقاطع مستحسناً في لحظات مناسبة بكلمات تشجيعية).

حدث ذات مرة أن أخذا قطاراً على طول الطريق إلى الشارع ٤٢ ليستمتعا بما دعاه «چو» درَج الأسود. أو كانا يتسكّعان بالشارع ٧٢ ليروا رجالاً يحفرون حفائر في الأرض من أجل مبنىً جديد. كانت الحفائر العميقة ترعب «ڤيولت»، بينما تفتن «چو». ويظن كلاهما بأنها عار.

كانا يقضيان كثيراً من الوقت، رغم ذلك، في البيت يكتشفان أشياء، ويحكيان لبعضهما البعض تلك الحكايا الشخصية القليلة والتي يحبان سماعها مرة تلو مرة، أو يتشاجران مع الطائر الذي اشترته «ڤيولت». لقد اشترته رخيصاً لأنه لم يكن على مايرام. كان يتمكّن بمشقّة من النقر. يشرب الماء لكنه لا يستطيع أن يطعم. لم تجد نفعاً كذلك خلطة الطائر المخصوصة التي كانت تعدّها له «ڤيولت». كان ينظر فقط على وجهها ولا يدير رأسه حين تسقسق له وتخرخر من خلال قضبان القفص الصغير. لكني، وكما قلت فيما تلي من زمن، فإن «ڤيولت» لم تكن إلا مثابرة. لقد خمّنت أن الطائر ليس مستوحداً لأنه كان حزيناً بالفعل حين اشترته من بين حشد آخرين منه. ولذا فإن الطعام أو الصحبة أو مأواه الخاص لم تكن بمهمة لديه، فقرّرت «ڤيولت»، ووافقها «چو»، بأنه لاشيء باقٍ مع الحب أو الاحتياج غير الموسيقى. فأخذا القفص إلى السطح أحد أيام السبت، حيث كانت ترجّع الريح ما يفعله العازفون بقمصانهم المنفوخة من خلفهم. ومن حينها استجلب الطائر اللذة لنفسه ولهما أيضاً.

ولأن «چو» كان ينبغي أن يكون بعمله عند منتصف الليل، فقد كانا يتناغيان بعد وقت العشاء. لو لم يلعبا الورق مع «چيستان» و«ستوك» وزوجة «ستوك» الجديدة «فاي»، أو يراعيان أطفال أحد ما، أو يسمحان لـ «ملڤون» بالدخول للقيل والقال، حيث كانت لاتشعر بالأسى حين تتظاهر بالوفاء وتخدعهما كليهما؛ فهما يلعبان البوكر اثناهما فقط حتى يأتي وقت الذهاب للنوم تحت لحاف خططا لتمزيقه إلى قصاصاته الأصلية لكي يشتريا بطانية صوف لطيفة لها حاشية من الساتان. ربما يرغبانها باللون الأزرق الفاتح، رغم أنه سيكون سيئاً بالقياس مع السِناج الهائم وكل شيء، لكن «چو» كان يميل قليلاً إلى الأزرق. كانت رغبته أن ينزلق تحت اللحاف ويتعلّق بها. يأخذيدها ويضعها على صدره، وعلى معدته. كان يريد أن يتخيل، بينما هو راقد معها في الظلام، كل الأشكال التي يكوّنها هذا الهراء الأزرق لأجسادهما. لم تكن «ڤيولت» تهتم على أي لون تكون، فقط تكون طويلة تصل إلى ما تحت أذقانهما دونما أي استفسار عدا أن يرطّب الساتان حرارتهما للأبد.

راقداً جنبها، كان يُدير رأسه ناحية النافذة، يرى العتمة من خلال الزجاج وهي تأخذ شكل كتف بخيط رفيع من الدم. وبطيئاً، بطيئاً، كان الكتف يصوغ نفسه إلى طائر بشفرة حمراء على الجناح. بهذه الأثناء تكون «ڤيولت» قد أراحت يدها على صدره كما لو كان حافة بئر مشمسة منيرة وبأسفله هناك واحد ما يجمع هدايا (أقلام رصاص، ثور الدورام قصير القرون، صابون چاب روز) ليوزعها كلاً عليهما.

وذات مساء، بالعودة إلى ١٩٠٦، قبل ذهاب «جو» و«ڤيولت» إلى المدينة، حين تركت «ڤيولت» المحراث وسارت إلى منزلهما القسري الصغير، كان حرّ النهار لازال صاعقاً. كانت ترتدي مِئزراً بكمّين وقميصاً باهتاً دون أكمام، نزعتهما ببطء مع قميص النوم من رأسها. وعلى المائدة بقرب موقد المطبخ كان وعاء صقيل – مزيّن بالأزرق والأبيض ومقشور من دوران حافته كلها. وتحت حامل المناشف،كان حوض مليء بماء راكد لطرد الحشرات، موضوعاً هناك. بينما راحتاها لأعلى، وأصابعها هادية، كانت «ڤيولت» تزلق يديها إلى الماءوتشطف وجهها. غرفت منه مرات عديدة وحتى رشرشت، فاختلط الماء برشح العرق، وترطّب خداها وجبهتها. ثم، غطّست المنشفة في الماء، وتحمّمت في عناية. من عتبة النافذة تناولت قميص نوم أبيض، كانت قد غسلته ذلك الصباح، فأسقطته على رأسها وإلى كتفيها. في النهاية جلست على السرير لكي تفكّ شعرها. من تحت غطاء رأسها أرسلت معظم العقد التي ثبّتتها ذلك الصباح، وصار شعرها الآن كأكواب من صوف ناعم تتخلله أناملها. كانت تجلس هناك، يداها تتعمقان بشعرها في لذة ممنوعة، وقد لاحظت أنها لم تخلع حذاء عملها الثقيل. وضعت إصبع قدمها اليسرى في كعب اليمنى؛ وشدّت الحذاء لتخلعه. بدا ذلك كجهد إضافي بينما كانت الدهشة معتدلة من مقدار التعب الذي شعرت به. وأعاقتها قبّعة واسعة ناعمة، بالية ومعتمة، كالغرفة التي تجلس فيها، فكان أن انزلقت عليها. لم تشعر «ڤيولت» بكتفها وهو يلامس المرتبة. طريق طويل حتى دخلت في سكينة النوم. كان عميقاً، جديراً بالثقة، ومريّشاً بأحلام ملونة. وكان الحرّ لا يلين، متسللاً. كأصوات النساء في المنازل القريبة وهي تنشد «اهبط،اهبط، اهبط طريقاً إلى أرض مصر...» يجاوبن بعضهن من فناء إلى فناء ببيت من الشعر أو نحو ذلك.

كان «جو» متغيباً لمدة شهرين في «كروسلاند»، وعند عودته وقف في المدخل، رأى جسم «ڤيولت» الأسود رخواً على السرير. بدت له ضعيفة، قابلة للإختراق بكل موضع عدا قدم واحدة، حيث لازال باقياً فيها حذاء العمل الخاص برجلها. خلع قبّعته القشّ، مبتسماً. وجلس عند أسفل السرير. أحد يديها كان يحضن وجهها ؛ وارتاحت الأخرى على فخذها. نظر إلى أظافر أصابعها المتصلّبة كجلد راحتها، ولاحظ للمرة الأولى كيف كان شكل يديها. الذراع التي احدودبت خارجة من كمّ القميص الأبيض كانت عضلّية من عمل الحقول، رفيعة للغاية لكنها ناعمة كذراع طفل. حلّ أربطة حذائها وأراحها منه. لابد أن ذلك أفاد شيئاً في حلمها، لأنها ضحكت عندئذ، ضحكة سعيدة خفيفة لم يسمعها من قبل أبداً، لكن بدا بأنها تخصها.

عند رؤيتي لهما الآن لا أراهما كهلام، فلازالا يفقدان حدودهما بنور ظهيرة لغد. لقد لحقا منتصف الطريق بين ما كان وما لابدّ أن يكون. بالنسبة لي فهما حقيقيان. الصورة محدودة في البؤرة وتتكتك. إني أتساءل، هل يعرفان بأن ذلك صوت الأصابع المطقطقة تحت شجر

الجميز الذي يحدّ الشوارع؟ حين تنجذب القطارات الصاخبة إلى محطاتها وتسكن المحركات، يمكن للمنصتين المتنبهين سماع ذلك. وحتى حينما لا يكونان هناك، حين تزدحم مدينة بأكملها من وسطها وأحيائها المجاورة المخضرة في «ساج هاربر» لا يمكن أن تراهما، التكتكة هناك. في الأحذية بشريط حرف «تي» لفتيات «لونغ ايلند» المائسات، بأطراف جونلاتهن القصار الجريئة المهفهفة التي تنزلق على موسيقى تسكرهن بأشدّ من الشمبانيا. في عيون الرجال العجائز الذين يراقبون هؤلاء الفتيات، والرجال الأصغر الذين يعلّقونهن. في مشية الرجال المترهّلة المجيدة والذين يزلقون أيديهم في جيوب بنطلوناتهم التكسيدية.(★) أسنانهم لامعة؛ وشعرهم أملس ومفروق عند المنتصف. حين يأخذون الفتيات ذوات الأحذية بشرائط حرف «تي» ويقودونهن بعيداً عن الحشد والأنوار شديدة اللمعان، تأتي التكتكة التي تجعلهم يترنحون على الشرفات غير المضاءة بينما يعزف حاكي «الفيكترولا» في الردهات. إن قرقعة الظلام والأصابع المطقطقة تقودهم نحو ملاهي «روز لاند»، «بوني»، والمماشي الخشبية جنب البحر. إلى أماكن قد حذّرهم آباؤهم منها، وارتجفت أمهاتهم من التفكير فيها. إن كلاً من التحذيروالارتجاف يأتي من الأصابع المطقطقة، والتكتكة. والظلّ. يدفعهم لبعيد في شوارع معينة، تتحدّد من بين شوارع أخرى، تجعل من الممكن لساكنيها بأن يتنهّدوا وينامواً في ارتياح، يتمدد الظلّ —فقط هنالك— عند حافة الحلم، أو ينزلق مع انهيارات ضحكة خافتة. تخرج من السياج هناك نبتة الرباط التي تحدّ الطريق. وتنزلق خلال الحجرات كما لو رتّبت لهذا، ومدّت ذاك. تتضامّ على حجارة الطريق، السواعد متقاطعة، وتخفي هي ابتسامتها تحت قبّعة بحافة واسعة. الظلّ. حام، ومحتمل. ولا يكون أحياناً هكذا؛ يبدو حينها أنه يترصّد فضلاً عن الرفرفة الحانية. وتمديداته لا تفغر فاهاً بل تنفسح لتستعيد هزيمته بعضاً. قبل أن تتكتك، يدقّ برفق، أو يطقطق أنامله.

بعضهم يعرف ذلك. المحظوظون. كل مكان يروحون فيه كمثل ساعة من صنع ساحر بأيد لها نفس الحجم، فلا يمكنك أن تتصور كم الوقت الآن، لكن يمكنك سماع التكتكة، الدقّ برفق، الطقطقة.

بدأت أظن بأن الحياة قد صُنعت لتدع العالم يفكّر بطريقة ما في نفسه، لكن ذلك قد راح منحرفاً مع البشر لأن الجسد، مكبّلاً بالبؤس، كان يتعلق في الحياة بلذة. يتعلق بآبار وولد ذهبيّ الشعر؛ يشهق على الفور من نار لذيذة سببتها فتاة سوداء تمدّ يداً ربما بنعم، وربما بلا. لم أعد أصدّق ذلك بعد. إن شيئاً يضيع هناك. شيئاً وغداً. شيئاً آخر عليك أن تتخيله بالداخل قبل إمكانك أن تتخيله بالخارج.

(★) نسبة إلى بلدة «تكسيدو». (المترجم)

شيء لطيف أن يتهامس الكبار لبعضهم البعض تحت الأغطية. إن نشوتهم لهفة رقيقة أكثر مما هي صوت منكر، والجسم مركبة ولاهدف. يتوصّل الكبار لشيء ما في الوراء، وراء خلف الوراء، وراء ماتحت النسيج الأسفل. يتذكّرون بينما يهمسون لعرائس الكرنفال التي فازوا بها، ويتذكّرون قوارب «بلتيمور» التي لم يبحروا أبداً عليها. يتذكّرون الكمثرى التي تركوها معلّقة هناك على الفرع، لأنهم لو قطفوها يرحلون، ومن كان سيرى أيضاً ينوعها لو أنهم سلبوها لأنفسهم؟ كيف يمكن لأي عابر أن يراها ويتخيل على أي وجه تكون النكهة؟ يتنفّس كل منهم ويدمدم تحت الأغطية بعد أن يغتسل ويعلّق خطّ الهاتف، في سرير تخيّروه معاً، وظلوا هكذا غير مبالين أي قدم قد استندت على قاموس ١٩١٦، بينما المرتبة محنيّة كراحة يد الكاهن طالب الشهادة باسم الربّ، تضمهم جميعاً وكل ليلة وتلفع همساتهم، كحبّ زمان قديم. إنهم تحت الأغطية لأنهم ماعادوا يرغبون في النظر لأنفسهم بعد؛ لاعين فرس هناك، ليس من لمحة سنونو تحلّلهم. فهم منسحبون تجاه الآخر، موثقين ومرتبطين بعرائس الكرنفال وبالبواخر التي تمخر موانىء لم يروها أبداً. ذلك ما كان وراء همساتهم تحت الأغطية.

لكن دوراً آخراً هنالك، ليس سرياً تماماً. الدور الذى يلمس الأصابع عندما يُمرّر أحدهم الفنجان وطبقه إلى آخر. الدور الذي ينهي طرقعة امرأة لآخر رقبتها في انتظار الترولّلي؛ ويجعله هو يفرك النسالة عن بذلته ذات النسيج الأزرق حين يخرجان من دار السينما إلى نور الشمس.

أحسدُهم، أحسدُ حبّهم العلنيّ. عرفتُ ذلك بنفسي، فقط سراً، شاركتُ به سراً وبشغَف، آه بشغف لأظهره – كي أتمكّن من البوح بصوتٍ عالٍ بما ليسوا هم في حاجة إليه على الإطلاق:

ذلك أنني أحببتكم فحسب، أسلمت ذاتي كاملة طائشة لكم لا لأي واحدٍ غيركم. أردتكم أن تردّوا لي الحب وتظهروه لي. أحبّ الطريقة التي تحضنونني بها، كم القرب الذي تسمحون به أن أكون لكم. أحبّ أناملكم أكثر وأكثر، وهي ترفعني، تديرني. لقد راقبت وجهكم الآن لمدة طويلة، وافتقدت عيونكم حينما فارقتموني. أن أكلمكم وأسمع منكم ردّاً – ذاك هدفي.

لكنني لا يمكنني أن أبوح بهذا عالياً؛ لا يمكن أن أخبر أحداً أنني كنتُ أرقُبُ هذا كل عمري، وقد اختير لي أن أنتظر مبّرر أن أكون. لو كنت قادرةً لبحت به. أقول أنشئوني، أعيدوا نشأتي. أنتم أحرار في فعل ذلك وأنا حرة في أن أسمح لكم به، فانظروا، انظروا. انظروا حيث تكون أيديكم. الآن.

❖❖❖

طائرٌ في يدي،
حيٌّ هو أمْ ميت؟

«كان ياما كان هناك امرأة عجوز. عمياء لكن حكيمة». أو أنه كان رجلاً عجوزاً؟ هادياً، ربما. أو عصبة أطفال متململين بهدوء. قد سمعتُ هذه الحكاية، أو أخرى مثلها بالضبط، في سياق ثقافات عديدة.

«كان ياما كان هناك امرأة عجوز. عمياء. حكيمة».

في الرواية عرفتُ امرأةً كانت ابنةً لعبيد، سوداء، أميركية، وتحيا بمفردها في منزل صغير خارج البلدة. وكانت مكانتها كحكيمة بدون نظير ولا خلاف عليها. ما بين ناسها كانت، هي القانون وانتهاكه معاً. كان التكريم الذي أولوها به والرعب الذي أقاموه من حولها يصل ما وراء الحيّ المجاور إلى أماكن جدّ بعيدة؛ إلى المدينة حيث نباهة المتنبئين الريفيين تكون مصدر تسلية كبيرة.

ذاتَ يوم زار المرأةَ بعض شباب كان يبدو أنهم يميلون إلى دحض استبصارها وفضح دجَلها الذي يعتقدون فيها. وكانت خطتهم بسيطة: يدخلون منزلها ويسألونها السؤال الوحيد الذي سيهدي بجوابه فحسب إلى اختلافها عنهم، الاختلاف الذي سيعتبرونه مثل عماها: انعدامَ أهليّة تاماً. يقفون أمامها، ويقول أحدهم «أيتها العجوز، إني أمسكُ في يدي طائراً. فقولي لي إن هو حيٌّ أم ميت».

لم تردّ، فتكرّر السؤال. «هل الطائر الذي أمسكه حيٌّ أم ميت؟»

لم تردّ حتى الآن. فهي عمياء وغير قادرة على أن ترى زوّارها، ناهيك عن هذا الذي في أيديهم. إنها لا تعرفُ لونهم، جنسهم أو موطنهم. تعرف فقط حافزهم.

صمتتْ المرأة العجوز بطول جداً، وقد تعبَ الشباب من حبسة الضحك.

تتحدّث أخيراً بصوت رقيق ولكنه صارم. «لا أعرف»، تقول. «لا أعرف إن كان الطائر الذي تُمسكونه حيّاً أو ميتاً، لكن ما أعرفه بالتأكيد هو أنه في أيديكم. هو في أيديكم».

يمكن لجوابها أن يؤخذ على محمل: إن كان ميّتاً، فقد وجدتموه هكذا، أو أنكم قتلتموه. وإن كان حيّاً، قتلهُ سوف يأتي من بعد أن يكون على قيد الحياة، فهذا قراركم. ومهما تكون القضية، فهي مسئوليتكم.

ولاستعراض قوّتهم مقابل عجزها، أنّبت زوّارها الشباب، أخبرتهم أنهم مسئولون ليس فحسب عن فعلة الاستهزاء بل أيضاً عن حزمة الحياة القليلة التي ضحّوا بها في سبيل إنجاز مقاصدهم. فكان أن أبدلت المرأة العمياء اهتمامهم بعيداً عن ادعاءات القوة إلى الآلة التي تمارس القوة من خلالها.

(★) نص المحاضرة التي ألقتها توني موريسون في حفل تسلمها جائزة نوبل في الآداب ١٩٩٣

إن تأمّل ما قد يشير له الطائر في اليد (فضلاً عن هيكله الهش) هو ما يصير لديّ جذّاباً على الدوام، بل إنه خصوصاً الآن، يستدعي تفكيري عما أؤدّيه من عملٍ جلبني إلى هذه الصحبة. ولذلك آثرت بأن أدلّ على اللغة بهذا الطائر، وعلى الكاتبة المتمرّسة بهذه المرأة. فهي قلقة بشأن اللغة التي تحلم فيها، والممنوحة لها عند الميلاد، الملموسة، والمطروحة للخدمة، حتى التي تمسك عنها لأغراضٍ محددة شائنة. ولكونها كاتبة فهي تفكّر جزئياً في اللغة كنظام، وجزئياً كشيءٍ حيّ قد سيطرَ عليه المرء، ولكن في الأغلب كوسيط — كفعلٍ بنتائجه. ولذلك كان السؤال الذي وضعه الأطفال للمرأة: «هل هو حي أم ميت؟» غير مصطنع لأنها تفكّر في اللغة كشيءٍ قابلٍ للموت، للانمحاء؛ منذر للخطر بالتأكيد ويمكن تعويضه بجهود الإرادة فحسب. وهي تعتقد بأنه لو كان الطائر الذي في أيدي زوّارها ميتاً، فإن القيّمين عليه هم المسئولون عن الجثّة. وبالنسبة لها، فإن لغةً ميتة ليست ما لم يعد يتحدّث به المرء أو يكتبه، بل بسببٍ من محتواها الصلد حتى ليعجبها ركودها الخاصّ. مثل اللغة الرسمية، فهي مراقبة ومراقبة. متحجّرة في واجباتها الحاكمة، ليس بها رغبة أو غرض غير الحفاظ على المجال الحرّ لنرجسيّتها المُخدِّرة، لاحتكاريتها ولهيمنتها. وعموماً، فهي محتضرة، ليس لانعدام تأثيرها، بل لأنها تحبط العقل بشكلٍ فعّال، وتؤخّر الوعي، وتقمع الممكن البشريّ. غير منفتحة على الفضول، ليس لها أن تصيغ أو تجيز أفكاراً جديدة، أو تشكّل مقاصد أخرى، أو تحكي حكاية أخرى، أو تملأ نسيانات مرتبكة. إن اللغة الرسمية تندكّ بجهلٍ مصدّق عليه وبامتيازٍ محفوظ، فهي كنمطٍ من درع، ملتمع ببهارج صادمة، كمحارة غادرها الفارس منذ زمانٍ طويل. ولايزال الأمر هكذا: فهي بكماء، ضارية، ووجدانية. بمهابة مثيرة لدى أطفال المدارس، وتمدّ الطغاة بالحماية، وتستدعي الذكريات الزائفة للاستقرار والانسجام ما بين المجموع.

وهي تقتنع بأنه حين تموت اللغة، بدافعٍ من الإهمال وسوء الاستعمال وغيبة المهابة واللامبالاة ؛ أو تقتَل بكلمة «ليكن»، فليست هي فقط، ولكن كل مستخدميها وصنّاعها مسئولون عن زوالها. في بلادها، قد يعضّ الأطفال ألسنتهم وهم يضعون كرات صغيرة بدلاً من أن يردّدوا صوت لغة بكماء، مضعفة ومستضعفة، لغة قد يهجرها البالغون كليّةً كجهاز إيصالٍ لمعنى، يمدّهم باسترشاد، أو يعبّرون به عن الحبّ. لكنها تعرف أن «انتحار — الكلام» لايوجد في صوت الأطفال فحسب. فهو شائع ما بين الأدمغة الصبيانية لتجار القوة والطبقة، حيث لاتدع لهم لغتهم المفرّغة مدخلاً لما يتبقّى من مواهبهم البشرية، لأنهم يتحدّثون فقط إلى من يطيع، أو لكي يفرضوا طاعةً.

ويمكن التعرّف على النهب المُنظّم للغة من خلال ميل مستخدميها للامتناع عن استعمال خصائصها الدقيقة والمعقّدة والمولّدة، كأنها خطر واستعباد. إن اللغة المستبدة تفعل أكثر من تمثّل العنف، فهي العنف ذاته ؛ وتفعل أكثر من تمثّل حدود المعرفة، فهي تحدّد المعرفة. ومهما كانت اللغة رفيعة غامضة أو لغة — مبتذلة لإعلامٍ غبيّ ؛ ومهما كانت اللغة أكاديمية متكبرة بل ومتكلّسة أو لغة علمٍ تساق كسلعة ؛ ومهما كانت اللغة ضارية لقانونٍ — بلا — أخلاق أو لغة مفصّلة لإقصاء الأقليات فتخفي غنيمتها العنصرية في جانبٍ أدبيّ — فلابد أن تنبذ، وتعدّل، فتنكشف. إنها اللغة التي تشرب دماً، وتنطوي في قابلية الانجراح، وتزمّم أحذيتها الفاشيّة من تحت أردية الاحترام والوطنية بينما هي تسعى في غيرما شفقة نحو الحدّ الأدنى والمزاج عويص الفهم. لغة جنسية، لغة عنصرية، لغة قدسية — كلها نماذج للغات السيطرة الحاكمة، ولا تستطيع، لا تسمح بمعرفة جديدة أو تحثّ على تبادلٍ مشتركٍ لأفكار.

إن المرأة العجوز تعي بعنفٍ أنه ما من مرتزقة فكريّ، ولا مستبدّ نهمٍ، ولا سياسي أو ديماجوجي مدفوع الأجر ؛ ولا صحفيّ زائف، يمكن له الاقتناع بأفكارها. هناك إذن وستكون، لغة محرّضة لتجعل المواطنين

مُسلَّحين ومُسلَّحين ؛ مجزورين وجازرين في المُتنزَّهات، ديار القضاء، مكاتب البريد، الملاعب، غُرَف النوم، والشوارع المُشجَّرة ؛ لغة مُنشّطة ومستَظهرة. لتقَنّع الشفقة وتبدّد الموت بغير لزوم. سوف توجد لغة أكثر لياقة لتقُر الاغتصاب، والتعذيب، والاغتيال. هناك إذنَ وستكون، لغةٌ متحوِّرة ومغوية أكثر، فُصِّلت لخنق النساء، لحزم حلوقهن مثل إوزٍّ معجون، بكلماتهن غير المنطوقة والمُنتَهكَة ؛ سوف توجَد لغةٌ مُراقِبة أكثر بمظهر بَحْث علميّ ؛ عن ميول السياسة والتاريخ المُبرمَج لاستدعاء معاناة ملايين خرساء ؛ لغة فاتنة تثير المُستائين والمحرومين للانقضاض على جيرانهم ؛ لغة تجريب – زائف متعجرفة تمتهن لَجْمَ المُبدعين في أقفاصٍ من الدونيّة والعَجز.

ما تحت الفصاحة والسحر والتداعيات المُثقفة عموماً، مُنشّطاً أو مُغوياً ؛ فإن قلبَ مثل هذه اللغة واهنٌ، أو ربمّا لا يدقّ على الإطلاق – لو كان الطائر ميّتاً فعلاً.

لقد فكّرت هي فيما يمكن أن يكون عليه التاريخ الفكريّ لأيّ نظامٍ لو لم يكن مُصرّاً عليّ، أو مدفوعاً إليّ، فاقد الوقت والحياة الذي يتطلّب تسويغاتٍ وتمثّلاتٍ للسيطرة – فإن أكثر من خطاب للإقصاء مهلك يسدّ المدخل على إدراكٍ كليّ من النابذ والمنبوذ.

إن الحكمة المألوفة من حكاية «برج بابل» هو أن الانهيار كان بَليّةً. ذلك كان النزاع، أو هو ثُقل اللغات العديدة التي طوّحت بعمارة البرج الواهنة. لغة الوحدة والتناغم تلك قد عجّلت بالمبنى أو أن السماء قد وصلت إليه. سماء مَن، إنها تتساءل؟ ومن أي نوع؟ ربما كان مأثرة الجنة في أنها مبتسَرة، وطائشة قليلاً لو لم يتمكّن المرء من أن يأخذ الوقت في سبر لغات أخرى، وآراء أخرى، وحكايا أخرى. لو كان لهم ذلك، فإن السماء التي تخيّلوها ربما كانت تحت أقدامهم. مركّبة، ومتطلّبة نعم، لكنها سماء مشهودة كحياة ؛ لاسماء كحياة – سابقة.

لم تكن تريد أن تدعَ زوّارها الشباب لانطباع أن اللغة ينبغي قسرها لتظلّ حيّة على قيد الوجود ليس غير. إن حيوية اللغة تنصبُّ في قابليتها على ترسيم حيوات متحدّثيها، وقرائها، وكُتّابها ؛ الممكنة والمُتخيّلة والفعلية. رغم أن اتزانها يكون أحياناً في إزاحة الخبرة التي لابديل عنها. فهي تتّخذ مسارها نحو المكان حيث يرقد المعنى. حينَ فكّر رئيس الولايات المتحدة في بلاده التي صارت كجبّانة، وقال (إن العالم لن يلحظ قليلاً أو يتذكّر طويلاً ما نقوله هنا. لكنه لن ينسى أبداً ما فعلوه هنا) . فإن كلماته البسيطة كانت مبهجة في خصائصها التي تؤازر الحياة لأنهم رفضوا تغليف حقيقة أن ستمائة ألف رجل مات في حرب عنصرية عنيفة ومفاجئة. كان يرفض تخليد ذكرى، آنفاً من «كلمة أخيرة» ، حريصاً على «تبليغ حكم» ، عارفاً بأن «قوّتهم البائسة في أن يضيفوا أو ينقصوا» ، ولذلك كانت كلماته تشير في إذعانٍ لانعدام قابلية أسر الحياة التي يتفجّعون عليها. هو الإذعان الذي يحرّكها، التسليم بأن اللغة لا يمكن لها أن تستعيد الحياة مرة أخرى وللأبد. ولا ينبغي لها. ليس للغة أن «تصبّر» العبودية، الإبادة الجماعية، الحرب. ولا ينبغي لها أن ترتئي غطرسة لكي تكون قادرة على فعل هذا. إن قوّتها، لياقتها، هي في وصولها صوبَ مالا يوصَف.

أن تكون رفيعة أو هزيلة، متحجّرة، منفجرة، أو ترفض التقديس ؛ ما لو تضحك بصَخَب أو تُطلق صرخة من دون حروف الهجاء، الكلمة المختارة، الصمت المختار، لغة مسالمة تتدفق تجاه المعرفة، لاتجاه دمارها. لكن، من لا يعرف إدانة الأدب لأنه استفهاميّ ؛ الشكّ فيه لأنه نقديّ ؛ مَحوه لأنه بديل؟ وكم مرةً يُنتهك بدعوى اللسان الذي يخرّب ذاته؟

وهي تفكّر، في أن عملَ – الكلمة سَام، لأنه مُولّد ؛ فهو يكوّن المعنى الذي يصون تمايُزَنا، تمايُزَنا البشريَ – الطريقة التي لا نشبه فيها أي حيَاة أُخرى.

نحن نموت. ربما ذلك هو معنى الحياة. لكننا نُنجز لغةً. ذلك قد يكون كنزَ حياتنا.

«كان ياما كان،...» يستفهم زُوّار من امرأة عجوز. مَن يكونون، هؤلاء الأطفال؟ ماذا يقصدون من تلك المناوشة؟ ما الذي سمعوه من تلكم الكلمات الأخيرة: «الطائر في أيديكم»؟ كلمة تُلَمّح لإمكانية أو كلمة لتسقطَ المزلاج؟ ربما كان ما سمعه الأطفال هو «هي ليست مشكلتي. فأنا عجوز، وأنثى، سوداء، وعمياء. قَدْر الحكمة الذي لديّ الآن هو في معرفتي أنني لا يمكنني مساعدتكم. فمستقبل اللغة يخصّكم».

يقفون هناك. افرض أنه لا شيء كان في أيديهم؟ افرض بأن الزيارة كانت مجرّد حيلة، خُدعة، ليتّم معهم كلام، ويؤخذوا مأخذ الجدّ كما لم يكونوا من قبل؟ وهي فرصة لتأويل، لتدنيس عالمٍ بالغ، عَطَن خطابه بخصوصهم، من أجلهم، لكنه أبداً ليس لهم؟ إن الأسئلة العاجلة في رِهان، من ضمنها السؤال الذي سألوه: «هل الطائر الذي نمسك به حيٍ أم ميّت؟» ربما كان يعني: «هل يمكن لأحد أن يقول لنا ما الحياة؟ ما الموت؟» فلا خدعة على الإطلاق ؛ لاسخف. سؤال صريح يستحقّ الاهتمام من امرىء حكيم. عجوز. ولو لم يتسنّ للعجائز والحكماء الذين عاشوا الحياة وواجهوا الموت أن يوصّفوه، فأنّى لغيرهم؟

لكنها لم تفعل ؛ فهي تحفظ سرّها ؛ جميلَ رأيها لذاتها ؛ أقوالَها المأثورةَ ؛ فنّها من دون ارتكاب. تحتفظ بمسافتها، لتدعمها وتسحبها إلى انفراد عزلة، في فضاءٍ محنّك بامتياز.

لا شيء، لا كلمة تتبع ما صرّحَت به من تحوُّل. ذلك الصمت عميق، وأعمق من المعنى المُتاح في الكلمات التي تحدّثَت بها. هذا الصمت، يتشظى، والأطفال، منزعجون، فيملأونه بلغة قد اخترعت للتوّ.

«أما من كلامٍ هناك؟» يسألونها «لا كلمات يمكنكِ أن تمنحينا فتساعدنا في اختراق ملفّ إخفاقاتك؟ تجتاز التعاليم التي قد منحتنا إياها منذ قليل بأنه لا تعاليم على الإطلاق، لأننا نسترعي اهتماماً دقيقاً لما قد فعلتِ بنفس القدر لما قد قُلتِ؟ لذلك العائق الذي قد أقمته ما بين السماحة والحكمة؟

«ليس لدينا أيّ طائر في أيدينا، حيّاً أو ميّتاً. لدينا أنت فقط وسؤالنا الهامّ. فهل يكون العَدَمُ الذي بأيدينا شيئاً لا يمكنك تحمُّل أن تتأمّلي فيه، أو حتى تخمنيه؟ ألا تذكرين وأنت صغيرة حينما كانت اللغة سحراً بلا معنى؟ حينما كان يمكنكِ القول، فلا يعني شيئاً؟ حينما كان اللامرئيّ هو ما يجاهد الخيال في أن يراه؟ حينما كانت الأسئلة ومطالب الأجوبة تحترق في سطوعٍ وأنت ترجفين بالغضب لعدم المعرفة؟

«هل علينا أن نبدأ الوعي بأبطال وبطلات معركة مثل التي خُضتها فعلاً وخسرت فتركتنا بالعَدَم في أيدينا عدا ما قد تخيّلته فيها هناك؟ جوابكِ بارعٌ، لكن براعته تورّطنا وهي حتماً تورّطك. جوابكِ غير محتشم في شكره لنفسه. مصنوع لأجل شريط تلفزة لايعي حاسّةً إن كان العَدَم هناك في أيدينا

«لماذا لم تبسُطي يديك، فتلمسينا بأصابعك الليّنة، تؤجّلين عضّة الصوت، الدرْسَ، حتى تعرفي مَن نكون؟ هل ازدريتِ تماماً خديعتنا، طريقة فعلتنا التي لم تريها، ذلك أننا كُنّا نسعى بلا طائلٍ من أجل كيفية لَفْتِ انتباهك؟ نحن شباب. غير ناضج. قد سمعنا طوال حياتنا القصيرة بأننا لابد أن نكون مسئولين. ماذا يمكن

أن يَعنيه ذلك، بأية حالٍ، فيما قد يليق بهذه الكلمةِ في محتواها الأخير ؛ حيث يكون الأمر، كما قال شاعرٌ «العدَم يحتاج أن ينكشفَ لأنه سافرٌ بالفعل» . إرثنا مهين. تريدين منا أن نأخذ عينيك العجوزين الأبيضين ونرى فحسب الاعتياد والوحشية. هل تظنّين بأننا أغبياء حتى لنحنث بأنفسنا مرةً ومرة في رواية عشيرتنا؟ كيف تجرؤين أن تكلّمينا عن الواجب في حين أننا نقف خصورنا تغطس في مادّة من سمّ ما ضيك؟

«تستهونين بأمرنا وأمر الطائر الذي ليس بأيدينا. ألا من سياق لحياتنا؟ لا أغنية، لا أدب، لا قصيدة مُفعمة بفيتامين، لا تاريخ مرتبطٌ بخبرة يمكنك اجتيازه لنَجدتنا فنبدأ أقوياء؟ أنت راشدة. العجوز، الحكيمة. كُفي عن التفكير بشأن إنقاذ وجهك. فكّري في حياتنا واحكي لنا عن دُنياك المخصوصة. ألّفي قصّةً. بسردٍ فطريّ، يدعنا بنفس لحظة أن يبتدع. فلن نلومك لو يئزّ لسانك عما في قبضتك ؛ لو يشعل الحبّ تماماً كلماتك حتى تغرقَ في اللّهب ولا شيء يبقى عداه الحريق. أو لو، كما في صمت يدَي جرّاح، تخيطُ كلماتك الأماكنَ فحسب بحيث ربما يفيض دم. نعرف أنك لن تستطيعي فعلَ ذلكَ في شكله الصحيح — لمرةٍ وللأبد. الولوعُ ليس كافياً ؛ ولا البراعة. لكن جرّبي. من أجلَ خاطرنا وخاطرك انسيْ اسمك في الشارع ؛ واحكي لنا ماذا يكون العالم عندك في أماكن العتمة وفي النور. لا تحكي عما تعتقدين، عما تخافين. أرينا كساءَ معتقَدك الواسع والفتقَ الذي ينحلّ عن غشاء خوفك منه. أنت، يا امرأة عجوز، مباركٌ عماك، بإمكانك أن تتحدّثي اللغةَ التي تحكي لنا ما بوسع اللغة أن تحكيه: كيف ترى دون صوَر. إن اللغة وحدَها تحمينا أن نرتاع من أشياء بلا أسماء. وحدها اللغة تفكّر.

«احكي لنا ما ينبغي أن تكونه امرأة فلربما نعرف ما ينبغي أن يكونه الرجُل. ما يسري على الهامش. ما الذي يعينه أن تكون في العراء بهذا المكان. أن تكون على غير هدىً مع الشخص الذي قد عرفته. ما الذي يعنيه أن تحيا على طرف المدن والتي لا تحتمل عشرتك.

«احكي لنا عن مراكب ترحل عن حدّ الشواطىء في عيد فَصحٍ، ومَشيمة مرميّة في حقل. احكي لنا عن حمل حافلة من عبيد، كيف كانوا يغنّون بنعومة بالغة حتى أن نسيمهم كان يصعب تمييزه من بين ثلج ساقطٍ. كيف كانوا يعرفون من حدبة أقرب كتف أن المحطّة القادمة ستكون الأخيرة لهم. كيف أنهم، بأيديهم الضارعة في غريزتهم، كانوا يفكّرونَ في الحرّ، بعدها الشموس. رافعين أوجهَهم، وكأنهم في لحظة الأسر هناك. ملتفتين كلحظة الأسر هناك. يوقف بهم عند خان. يدلف السائق وتابعه مع القنديل يخلّونهم ليهمهموا في الظلام. زفير الحصان يتبخّر في الجليد تحت حوافره وهسيسه، بينما الذوبان هو موضع حسد العبيد المتجمّدين.

«يفتَح باب الخان: فتاةٌ وغلامٌ يخطوان بعيداً عن نوره. يصعدان إلى سرير الحافلة. سيكون لدى الغلام بندقية في خلال أعوامٍ ثلاثة، لكنه الآن يحمل قنديلاً وإبريقاً من عصير دافىء. يمرّرانه من فمٍ لفم. تعرض الفتاة خبزاً، وقطعاً من اللحم، وشيئاً إضافياً: لمحة لعيون الذي تخدمه. حصّة من طعام لكلّ رجل، حصّتان لكلّ امرأة. ونظرة. يردّون النظر. المحطّة القادمة ستكون الأخيرة لهم. لكن ليست هذه. هذه المحطّة دافئة».

يهدأ الحال ثانيةً حينما ينتهي الأطفال من الحديث، حتى تقتحم المرأة الصمت.

«أخيراً» تقول «فأنا أثق بكم الآن. أثق بكم مع الطائر الذي ليس في أيديكم، لأنكم حقاً اصطدتموه. فانظروا. كم هو فاتن، هذا الشيء الذي أدّيناه — معاً». ❖

رقم الايداع ١٦٩٧ / ٩٥
الترقيم الدولي I S B N 977- 5406 -25- 0

عيون الأدب الأجنبي

صدر منها

- **عبدة الصفر**

ألان نادو

ترجمة : البستاني والبطراوي

- **مدام بوفاري**

جوستاف فلوبير

ترجمة : محمد مندور

- **الكلمات**

چان بول سارتر

ترجمة : خليل صابات

- **الأحمر والأسود**

ستاندال

ترجمة : عبد الحميد الدواخلي

- **المكان**

آني إرنو

ترجمة : أمينة رشيد
وسيد البحراوي

- **الآثار الشعرية الكاملة**

إديت سودرجران

ترجمة : محمد عفيفى مطر
ومحمد عيد إبراهيم

- **چاز**

توني موريسون

ترجمة : محمد عيد إبراهيم

دار شرقيات للنشر و التوزيع

